وردة الصحراء

مدونة ابو عبدو

قصص قصيرة

حنان الشيخ

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

وردة الصحراء

جَميعُ الحقــوق محفوظــة

الطبعة الاولى

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

الحمراء - شارع اميل اده - بناية سلام

هاتف. ٨٠٢٤٠٧-٨٠٢٤٢٨ ص . ب ١١٣/٦٣١١ بيروت - لبنان

صمم الغلاف : نجاح طاهر

حنان الشيخ

وردة الصحراء

قصص قصيرة

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

رأس النبع

لماذا احدّق في أبنية زاروب رأس النبع القديمة وأفكر كيف بهت لون اجمل بناية ، كانت مطروشة باللون القرميدي . أفكر اذا كانت الست ماري لا تزال تسكن طبقتها الاولى ، حيث الجنينة ، كيف كنا نتسمر خلف مرايا نوافذ صندوق الفرجة ، ونسترق النظر عبر ثقوب كبيرة في باب جنينه الست ماري ، ونرى الغزالة تأكل الخس من يدها والست ماري تأكل الراحة والبسكوت . لماذا افكر اذا كانت شجرة ليمون البوسفير لا تزال واقفة في الجنينة ، وإذا لا زال النمش الاسود يتكاثر فوق كل ثمره .

وزاروب رأس النبع يمتد ، ولا اتبين وجها أعرفه ، رغم اني اتعرف على قوس قزح كان في بقعة ماء عند اول درجات السلم . لماذا اقف حزينه امام قضبان درابزين الدرج الحديدية لان سوادها اللامع « تزنجر » ولان معظم قضبانها تفكك وجمعها أحدهم في خيط مصيص قوي .

وافكر لماذا كنت أسير وأسير في رأس النبع ابحث عن النبع ، ولا اجد سوى ماء سبيل يكر من حنفية امام دكان صقر ، وابحث عن الرأس فيقول نظمي بائع السوس والتمر الهندي ، انه أول شارع بشاره الخوري . من أنا حتى يتوقف نفسي ونحن نمر بالناصرة ، وابي ،

رصيف موقف محطة الناصرة ، وقد تبعثر بلاطه الرصاصي المربع والمستطيل حتى بان من تحته الرمل . ولم اجد على الحائط صورة الولد الضاحك ، والذي يلحس بوظة ستيك ولياسس « عتوت » وهو ينظر دائماً الى دكان ورصيف الازهار وصاحبته سعاد ترش النرجس بالماء ويدها على خدها ، لان ضرسها مقبوع ؟ بجانب ازهار سعاد دكان فيه خوابي الزيت والزيتون والذي حلفت لتلميذة في صفي في مدرسة العاملية ، كانت تتباهى بسوارها الذهبي وتطلب مني ان امسك ضفيرتي الطويلة حتى تصبح اكثر طولاً وان أشدها حتى تصبح ملساء .

حلفت لها اني رأيت ذات ليلة ، في هذا الدكان ، الاربعين حرامي يختبئون من علي بابا في هذه الخوابي واني رأيته يحرقهم فيها . وبرهان على كلامي لفت نظرها أو حاسة شمها لتلك الرائحة القوية المنبعثة من ذلك الدكان ، والتي كانت رائحة دبس الخروب .

لماذا احبس نفسي والسيارة تقطع شارع بشارة الخوري بالعرض ، ومن فوق . من جهة رأس النبع ، ولا ارى فيها سوى الحشائش صارت أشجاراً برية . اوراقها كالاعين الشريرة ، ورصيفها لملم بلاطه وسوّح زفته . ولا ارى يدي تحمل سطليه الالمينيوم ومن سرعتي كان الاكل يهتز في طبقاتها . خائفة من ان يراني احدا وهي في يدي .

واذا تبدل هذا الشارع . وتلك البناية . وذاك الرصيف . من أنا حتى اضع يدي فوق قلبي ، يدي فوق عيني وفوق نبضي . والسيارة تتمهل من زحمة السير . سائقها يلعن ويدخن السيكارة ويصفر .

هل الجدار يعرفني . وحنفية ماء السبيل التي انقطعت ستتذكر يدي رغم مرور السنين وهي تضم اصابعها تجمع الماء . ما ان ادنيها من فمي حتى تفلت وتدخل الماء كمي ويقشعر بدني . والنوافذ الخشبية

الخضراء ، وان بان خشبها القديم ، هل تتذكر قامتي وخطواتي . لماذا احاول تجاهل الصخب رغم انه يعتلي رأسي ويدق ، لما لم تستطع سيارتي ان تمر فوق جسر شهاب هذا العصر ، بعد ان كنت اتنفس النسيم والصعتر في « الرابية » . والبحر من هناك بدا هادىء ، ارتاح من عاصفة الليل ، وبيروت كأنها تحولت من ملاعب للجن الى ملاعب ملائكة . رغم اننا حولنا وجهة سيرنا عن جسر شهاب الا اني استطعت ان المح البواخر والاهراءات والميناء من بعيد . ولم اسمع صافرة القبطان . رأيت عساكر يسدون الجسر ويحمون اكفهم بالنفخ عليها ، وينقلون ارتكازهم من قدم لاخرى يطردون عنهم البرد والقتل والجسر صامت . من انا حتى يعتليني الحزن لان الجسر صامت . وعندما ارى طرف البحر ارتاح . تعود تغمرني موجة القهر . لماذا وانا خيال راكبة في سيارة تبتعد وبسرعة عن جسر فؤاد شهاب .

يتساقط المطر فافكر : هل يعرفني . وحبيباته اللؤلؤية التي وقفت تتنصت فوق زجاج السيارة . تهتز ولا تتساقط الا عندما يمسها السائق . تعود . يمسحها ، وتعود . الشتاء نفسه عاد ، وانا عدت اركب السرفيس ، واقطع الرصيف ، وافتح المظلة ، اقفل حقيبة يدي . واشتري كستناء واختار الطاولة وانا ادخل المقهى . وانتظر صديقة نتحدث عن الماضي .

الصخب يراقبني ، الهدوء اراقبه . واجلس وخمارة الموز في رأس النبع قد تهدمت . والفرن زاد شحاره الاسود حتى غطى جدرانه وبابه . تمثال الشيخ بشارة الخوري يحط على رأسه عصفور بردان ، وشجرة الصفصافة تبكي . رأس النبع ، يدفش الباب ويدخل معي المقهى . ارى آثاره فوق وجهي وعيناي تبكيان محطة الناصرة المهجورة .

والاشجار الخائنة لان اخضرارها يزداد جمالاً ، والحشائش غريزية تمتد وتعلو . واسمع تن تن الترام ، وامد يدي اتأكد من ان خمسة القروش لا تزال ، وان لا ثقب في جيبي . اقف رغم مقاعد البريمو شاغرة . مقاعد البريمو قشها مسوّس ، سمعت جارنا قاطع التذاكر يقول في السنة التالية أمد يدي وأنا أقول « باس » وانا أتأكد من وجود البطاقة بين كتبي ، الملح الاقحوانة المجففة بين صفحات كتاب التاريخ ، وصورة الامير بشير على غلافه . ولما يصل الترام الى محطة الرينو ، انزل درجاته ، ويدي فوق علبة دود القز ، ذات الثقوب ، حتى تتنفس الديدان وهي تقضم ورقات التوت .

احتسي الشاي بلا سكر ، واتوقف عن التفكير برأس النبع ، بمحطة الناصرة ، بشارع بشارة الخوري وبجسر فؤاد شهاب . كيف ، وكيس الصعتر بالسماق والسمسم بجانبي على الطاولة ، وقد اتيت به من بيتنا في رأس النبع .

اتوقف عن التفكير ، لكن اعرف انهم يفكرون . عندهم الليل ابدي ، رغم الصباح والشمس . انهم ينامون بلا لحاف . بلا نجوم . انهم يرتجفون من سماع وقع خطى ومن طيران بومه . كأنهم دخلوا المقهى وقالوا لي انهم تاعسون ، لا يملكون الا احلام الماضي .

حمام النسوان

أنا في خيمة شك الدخان ، بين تلال غرسات التبغ ، والمبابر . اشم الرائحة الخضراء متربعة ، اشك الورقة تلو الاخرى . اجد نفسي احلم واعطش واحلم . افتح المجلة ، التهم الكلمات ، واحدق في الصور خلسة . واغتاظ لانني في هذه الخيمة . ثم يتحول غيظي الى حزن .

اعطش وأنهض . اسمع ابو غالب يقول . « شو يا ست لوين رايحة ؟ » وأتوجه الى جدّتي قائلة : « عطشانة » اخرج . اتجه الى حاووز المياه . اتعثر بالرمل الترابي . وأرى المياه الزرقاء المخضرة . أمد يدي الى سطحها الساكن ، انها حارة من وطأة الشمس . أمد يدي وأمسح جبيني ، وجهي ، ورقبتي ، وأمسح صدري . وقبل أن أتلذذ برودتها النسبية أسمع اسمي ، ارى جدتي تقف في باب الخيمة بفستانها الاسود . وأتمنى بصوت مسموع لو يناديني احد سواها . بتنا كالبرتقالة وصرتها . جدتي لحمتني بها حتى ما عادت بنات الضيعة يجرأون على مصاحبتي ، ربما خوفاً من شق هذا الالتحام .

أعود الى الخيمة ، اعطش وأحلم ويراودني البحر . كيف تكون مياهه ، كيف يكون لونه الان ، لو يمر هذا الاسبوع في لمحة بصر ،

اقنعت جدتي اخيراً بأن تنزل الى بيروت ، الى البحر ، بعدما اقسمت صديقتي سمية ان المسبح الذي ذهبت اليه كان للنساء فقط .

جلست جدتي على حافة حجر ذي نتؤات وهي تستند الى ذراعي . يدها ساخنة وخشنة . تنهدت وهي تطرد ذبابة .

في م تتأمل جدتي ؟ وليس قبالتنا سوى الاسفلت الذي بدا باهتاً رغم أشعة الشمس . والقبور الرخامية البيضاء ممتدة عند سفح مرتفع ، بينما تراءت لي بيوت النبطية الفوقا كأنها قلاع صليبية مهجورة . حاراتها فارغة ، نوافذها حديد . كذلك بدا بيتنا من بعيد يئن من الوحدة ، تظلله شجرة التين . حبل الغسيل يهتز مع الريح فوق قبر جدي العلامة المشيد في باحة البيت . في م تتأمل جدتي . ام ان الذي ينتظر لا يتأمل ؟

أدارت وجهها نحوي قائلة : « يا بنت بنتي اذا ما أجت البوسطة شو منعمل ؟» بدا وجهها المحفور في ذاكرتي معكراً ، وعيناها نصف المغمضتين ، ووشم ذقنها الأزرق ، ولم أجبها لئلا أبكي اذا تكلمت . أشحت بنظري هذه المرة عن القبور البيضاء ، وأبعدت قدمي عن ساق جدتي إذ ظهر جارباها الأسودان السميكان ، وأخذت أتمشى ونظري على الجهة الثانية حيث حقول التبغ الأخضر ، تلمع أوراقها تحت الشمس ، أوراقها المطبوعة في ذهني ، وآثارها فوق يدي . تميل في هدوء وهي شامخة .

نظري امتد خلف الاف الغرسات ثم تخطاها ، وابتعد حتى وصل الى خيمة شك الدخان . اقتربت من جدتي ولا تزال جالسة مكانها . نظرها الى الامام ، لما اقتربت منها سمعتها تتنهد ورذاذ العرق يجوب عينيها : « آه يا بنت بنتي ، شو بدك بالبحر ، ما بتعرفي انو البحر بياخذ

الناس » ، وما اجبتها ، كنت قلقة ان يمر الصباح ، ويمر الظهر ولا ارى البوسطة الخضراء تتوقف عند حجر جدتي وتأخذنا معها الى البحر ، الى بيروت . واسمع جدتي تزفر قائلة : « سمية هالشيطان . . . » ورجوتها ان تتوقف ، وارتفع تفكيري وابتعد عن حجر جدتي وعن الاسفلت المحفور ، وعن كل شيء . وعدت الى احلامي ، الى البحر .

بات البحر هاجسي منذ رأيته لاول مرة داخل كرة زجاجية ، كان في لونه الازرق مثل صندوق فرجة ، مفتوح ، مشرع ، وكانت صفحة مياهه لا تهتز الا اذا قلبت هذه الزجاجة وما معها من اصداف صغيرة ونقاط بيضاء كالثلج . كانت هذه الكرة التي وعيت في غرفة الاستقبال الشيء الوحيد الذي يسليني وينعشني . كلما حدقت فيها ، شعرت بأن مياهها باردة ، تدعوني ان أغتسل بها . هي تعلم انني ولدت بين الغبار والطين ، ورائحة التبغ .

آه لو تمر البوسطة الخضراء . ونقلت شنطتي من يد الى اخرى . وسمعت جدتي تقول : « يا بنت بنتي قربي حجر واجلسي ، حطي هالشنطة ، وروقي يا روحي » . قلقي ازداد ، ما عاد يسعني ، انه يتحول الى دموع تنزل في غزارة فوق وجهي ، انها تغطيه ، تغطي الاسفلت . ومددت امسحها بكمي ، في هذا الحر علي ان ارتدي هذا الفستان الطويل الاكمام ، وهذا الغطاء لا يزال فوق ضفيرتي رغم الهواء الساخن الذي يميل بغرسات التبغ ، وباشجار الحور القليلة . الحمد لله اني عاندتها وما رضيت ارتداء جواربي . شهقت وأنا أسمع بوق البوسطة من بعيد . صرخت في جدتي ، خائفة ، مضطربة وأنا أساعدها على الوقوف اتلفت حولي ليتأكد لي ان شنطتي في يدي ، ويد

جدتي في يدي . توقفت البوسطة وساعد المعاون جدتي في الصعود . ولما رأيت نفسي الى جانبها والحجر وحيد ، شددت يدي على الشنطة : فيها مايوه سمية وفستان عاري الاكمام ، وليراتي .

ولاحظت والبوسطة تتمهل فوق الاسفلت ان قلقي ما زال ، بل انه يشتد ، لماذا لا تتخطى البوسطة هذه الاشجار والارض البور في لمحة بصر . لماذا سيرها يكاد يكون زحفاً . قلقي ما زال ، بل انه يشتد طاغياً على احاسيس اخرى كالغثيان والفضول .

كيف نعرف طريقنا الى البحر ، هل نراه ما ان نصل الى بيروت ، هل هو في اخرها . هل توقف البوسطة في منطقة الزيتونة ، على باب مسبح النساء ؟ ترى لماذا اسمها الزيتونة ، هل هناك اشجار زيتون . ملت الى جدتي ذات الوجه الصامت ، وأنفها الطويل يكاد يلتصق بفمها فظنت اني اريد حبة سكر نبات . ومدت يدها الى عبها تخرج لفة قماش صغيرة . ضاق صبري وسألتها هل كانت متأكدة أن مريم الطويلة تعرف الزيتونة ، أجابتني وفمها يمص سكر نبات ولسانها يحدث صوتاً :

« الله يدبر » . وقطعت الصمت قائلة : « هالهمّ كله من سمية هالشيطان ، هي قالتلك انو بعينها شافت المسبح بس للنسوان مش للرجال ؟ » ، اجبتها : « اي يا ستي » قالت : « احلفي برحمة امك » فكرت ساهية ، لماذا فقط برحمة امي ، وماذا عن والدي ، ام انها تعترف بموت ابنتها فقط. « برحمة امي انوللنسوان » مالت براسها وقالت وهي لا تزال تمص حبة سكر النبات ، ولسانها يحدث صوتاً : « اذا شافك رجال واحد ، راحت عليك ، وعلى امك وأبوك وجدك العلامة ، وراحت علي اكثر شيء لاني وافقتك وساعدتك » .

ووددت لو أقول لها : كلهم راحوا ، كلهم ماتوا ، ليش بدنا نخاف ، لكن كنت اعلم قصدها ، انها خائفة عليهم الا يدخلوا الجنة .

أخذت أعرق وقلبي ينقبض ولاحت بيروت ، بناياتها الشاهقة ، أبواق السيارات ، وأذرع النساء المكشوفة ، وشعور البنات ، يرتدين السراويل الضيقة . الناس على كراس في وسط الرصيف يأكلون ويشربون ، الترام ، الفراريج المشوية تدور على السيخ . آه ، هذه الفساتين في الواجهات هل تجد من يرتديها فعلاً ؟ هذا رجل ياباني ، هذه أول مرة أرى جنساً أصفر خارج الكتب ، هذا تمثال الشهداء ، هذه ساحة رياض الصلح . بللني العرق ، وقلبي يخفق ، كأني ندمت على مجيئي الى بيروت ، ربما لانني وجدتي . اذ سرعان ما ظهرنا كدخيلين على العاصمة . وسرنا بعدما سألت جدتي ، سائق البوسطة عن منطقة خندق الغميق حيث تسكن مريم الطويلة . جسمي امتص العرق كله وترك قلبي يفلت من قفصه . أنا اسير فوق رصيف حلمت بخطواتي عليه سنوات طويلة . وأسمع اصواتاً حفرتها في مخيلتي ، وكل شيء أراه ، رأيته في أحلام اليقظة ، وأنا في المدرسة ، وأنا في خيمة شك الدخان . ربما ما كان علي ان آتي ، أنا نادمة ، فلن أنسى بيروت من الان . واخذنا نسير ونتيه كأنما الطرق في بيروت لا تنتهي ولا تؤدي الى شيء . واخذنا نسأل ونسير ونتيه ، وذهابي الى البحر بدا مستحيلاً ، البحر يهرب مني . جدتي تتوقف ونستند الى عمود الكهرباء او الى سلة القمامة المعلقة ، وعلى كتفي ، وتتنهد ، وتزفر . واحسست اننا لن نجد بيت مريم الطويلة ابداً . سار معنا رجل استوقفناه نسأله . ولما قرعنا الباب وما فتح أحد ، ايقنت ان غطسي في البحر ما عاد ممكناً . والعرق يتكثف وحلقي يغص . انتشلني صوت امرأة وانا أغرق في

بحيرة قلقي وحزني وخوفي ، لكنه اغرقني من جديد . لم تكن مريم الطويلة بل جارتها تسألنا أن ننتظر عندها . نزلنا الدرج حتى مصطبة الجارة وجلست جدتي على عتبة الدار ، وعادت تنهض عندما اقسمت المرأة على جدتي أن نجلس في كرسي الخيزران . واستأذنتنا ريثما تنتهي من شطف الدرج . كانت تشتم الحر ، وبيروت في الصيف . لاحظت تنكات مرصوصة ، فيها الفلفل الاخضر والاحمر ، طال انتظارنا . واخذت ابكي في داخلي . وأنا ابحلق في التنكات .

البحر لن أراه اليوم ، ربما لسنوات ، ومياهه لن تغلفني وتزيل عني احلامي . كان يجب ان اقنع جدتي بالذهاب الى بيروت مع سمية . ربما ما كان يجب ذكر المسبح أمامها. لن أرى البحر اليوم. أغوص في بحيرة الشك والخوف والحزن . وصوت نسائي ينتشلني وكانت مريم الطويلة التي مدت عنقها الطويل ، وقبلتني سائلة جدتي « مش بنت المرحومة » واقسمت بالامام علي أن نتناول الغداء معها ، قبل أن نمانع ، ربما شعرت بأنني سأمانع . ولما وقفت تخرج بابور كاز من تحت سريرها وتجلب البطاطا والبندورة وقطع اللحم ، شعرت بالغثيان ثم بالحرقصة . لكزت جدتي ، فمالت الي هامسة : « شو يا روحي » والتفتت عندئذ مريم الطويلة سائلة : « شو بدها بنت بنتك بيت المي ؟ » . وكان ريقي جف . ودموعي اختزنت منتظرة من دقات قلبي الاشارة لتنزل . وقالت جدتي في خجل : « بدها تروح عالبحر ، على مسبح النسوان ، وسوست لها الشيطان سمية » ولعجبي صاحت مريم الطويلة ايه ليش لا ، هلق بيجي علي موسى ، جارنا وبوصلكم ، عنده سيارة » ، واخذت مريم الطويلة تقشر البطاطا على طبلية تتوسط الغرفة وسألتها جدتي : « من وين علي موسى ، وين ساكن ؟ » .

لا أستطيع الانتظار ، لن آكل . لن أشرب ، أريد الذهاب الان ، الان ، وبقيت جالسة ، ابكي في داخلي لانني ولدت في الجنوب ، لانني لا مفر لي من الجنوب ، وبقيت افرك أصابعي واقضم أظافري . والعرق عاد . لن اكل ، لن أشرب ، لن اجيب مريم الطويلة . كأنني اقاصص جدتي على ذنب لا تعرفه . اختفى صبري . وقفت قائلة لجدتي قبل أن أشهق باكية : « يلـلا يا ستي قومي » ، « خلصينا قومي » ، وساعدتها على النهوض . ومريم الطويلة تتساءل في حيرة عما جرى لي فجأة . وسرت اجر جدتي حتى الطريق . اوقف أول سيارة اجرة .

كأن لحظات مرت قبل ان يوقف السائق المحرك قائلاً : «الزيتونة» ، تلفت حولي ، وما رأيت البحر . سألته وأنا أعطيه ليرة : « وين حمام النسوان ؟ » هز كتفيه . ترجلنا بصعوبة كما مع جدتي دائماً . ولدهشتي اذا السائق يمد رأسه مشفقاً علينا وقال : « اطلعوا » . ركبنا السيارة . وهو يدور بنا . يدور ويتوقف تارة عند محطة البنزين ، وتارة عند بائع جرائد ، يسأل عن حمام النسوان . وما عرف احد اين يقع . ينزلنا ويتركنا في عرض شارع الزيتونة .

ثم رأيت البحر ، خلف الفنادق والبنايات الجميلة ، وأشجار البلح . مثل خط أزرق زئبقي . وكأنما أوراق فضية تنام فوقه . البحر أمامي ، اجمل مما كان في الكرة الزجاجية ، ولا أعرف كيف اقترب منه . كيف المسه . الاسمنت بيننا ، اخذنا نستجدي مكان المسبح ، لا احد يعرفه ، والبحر لا يزال بلا أمواج . كخط أزرق . اتحرقص . ربما هذا المسبح سري لا تعرفه سوى بنات الجنوب . واخذت اسأل كل شخص

أراه . حاولت ان اخنق دموعي ، وتركت يد جدتي ، كأني أريد معاتبتها ، معاقبتها على اصرارها لتصحبني بدلاً من سمية . آه يا انا . آه يا جدتي . آه يا بيروت . هل انتهت احلامي في عرض الشارع ، أمسك الشنطة ، ويد جدتي ، والبحر أمامي يفصلني . لكن عنادي ونرفزتي حركاني لاسأل واسأل . ودنوت من رجل يتكيء على سيارة عمومية ، ولاستغرابي أشار الى فتحة بين دكانين . فاسرعت نحو جدتي المستندة الى عمود الكهرباء اخبرها اني وجدته . ولما رأيتها تتحرك محاولة المشي في صعوبة طلبت منها ان تنتظرني ريثما أتأكد . دخلت في الفتحة ولم أر البحر . رأيت امراة سمينة عارية الكتفين ، تجلس خلف طاولة . ووقفت مترددة انظر اليها ولا اجرؤ على التقدم . اختفت حماستي واخذت معها جرأتي . وقالت المرأة : « نعم » تقدمت اسألها : هون مسبح النسوان ؟ » فهزت رأسها قائلة : « الدخولية بليرة » . سألتها هل في استطاعة جدتي انتظاري هنا ، فتأملتني وقالت « معلوم » كان في نظراتها هزء ، هل هي لهجتي الجنوبية ، أم فستاني الطويل الاكمام ، وكنت غافلت جدتي وخلعت غطاء رأسي واخفيته في شنطتي . ناولتها الليرة وأنا أسمع أصوات نساء وأولاد . لكني لم أر البحر . في اخر الرواق درج ايقنت أنه يؤدي الى البحر المسقوف . المهم اني وصلت ، وسأذوق رذاذ المياه المالح . لن أرى الموج . لا بأس سأغطس في المياه .

ووجدتني أقول للمرأة ، بل اقول لنفسي ، لأن صوتي ما خرج من حلقي : «سآتي بجدتي» خرجت عبر الفتحة ، وأنا لا أزال أضم الشنطة الى صدري ، ورأيت جدتي واقفة ، تنظر الى السماء ، ناديتها ، لكنها كانت تتمتم وهي لا تزال تنظر الى اعلى ، انها تصلي ، اجل في

الشارع ، تصلي على الرصيف ، وعلى باب المسبح . فرشت كيس ورق ومدت يديها الى السماء ، مررت في اتجاه اخر . وتوقفت عن النظر اليها . ووددت أن أقنع نفسي بأنها لا تعنيني ، لا أعرفها . لكن كيف . انها جدتي التي انتزعتها بتوسلاتي من خيمة شك الدخان . ومن الحجر ذي النتوءات ، ومن رياح الجنوب ، وحشرتها في البوسطة ، وبين الطرقات ، تهت معها نبحث عن بيت مريم الطويلة . ها نحن واقفتان على باب المسبح . لكنها سمعت الاذان ، وركعت تصلي . أنها تهدم ما في شنطتي ، تسد الطريق بيني وبين البحر . أشفقت عليها ، أشفقت على ركبتيها وهي تنحني فوق قساوة الرصيف ، وعلى يديها الموشومتين فوق القذارة . وعدت أنظر اليها ، وأرى المارة ، يبحلقون. بدت لي لاول مرة ملايتها السوداء ، باهتة . وشعرت كم أننا لا ننتمي الى المارة ، الى هذا الشارع ، الى هذه المدينة ، الى هذا البحر . واقتربت منها فاتكأت على يدي من جديد .

هل تعرف من يعلمني البيانو

تتوعدني امي كلما زارنا احد . تمد اصبعها تحركه في وجهي اذا لم الحق بها الى المطبخ ، حتى أتلقى هذه التهديدات وجهاً لوجه ، تنظر الي نظرة افهم منها ان علي تخفيف كلامي . واذا تغاضيت عن نظرتها وجلست وانا اضع الساق فوق الاخرى ، اعطي رأيي في كل حديث ، رأياً متهوراً في مسائل ومناقشات لا افهمها . كان والدي يتجه صوبي بهدوء يحمل منشفة كبيرة يضعها فوق ركبتي فتهبط مغطية ساقي ، واسمعه يقول بصوت خافت : « عزرائيل »

كان والدي متدينا ، رؤيته لركبتي مكشوفة تؤلمه ، حاول ان اتحجب وبلا فائدة . وانتقل اصراره على تغطية شعري وذراعي الى ساقي واخذ يصب هناك كل تدينه .

عندما كان يغطيني بالمنشفة ، كان لا يعرف انه يغطي لساني ويخرسه . اجمد . اود لو تنشق الارض وتبلعني ولما لا تفعل انسحب الى غرفتي بعد ثوان .

وتدينه كان جسمانياً فقط . اذا هو منفتح العقل ، يدعني اتحدث مع اصدقاء اخي ، امازحهم ، كذلك مع معارف العائلة من الشباب . يراني استعير الكتب من شباب الجيران فيزيد من اعجابه بي . ما ان

يسمعني اتحدث وأدلي برأيي حتى يقول أمام الجميع ، بانه سيعلمني حتى اصبح محامية : لما كان اخي يعترض سائلاً والدي لماذا لا يتوقف عن تعليمي عند نيلي شهادة البريفيه ويعلمني الخياطة ، كان والدي يبتسم في طيبة ، ولا يفهم مزاح اخي ويجيبه : « حرام ، ما في اذكى منها بنت في العالم » .

رغم انتقال اخي الى الشمال ليصبح استاذاً في المدرسة الحكومية ، لم يكف اصدقاؤه عن زيارتنا ، وعن المبيت عندنا ، اذ كان بعضهم يقيم في الجنوب . ولا اعرف لماذا كنت احس بوجود هؤلاء الشباب كأني لعبة ادخلت عليها بطارية جديدة . كنت اتباهى بمعرفتي لاي شيء . فاحدثهم باسهاب عن قصص « جرجي زيدان » ، وعن فيلم « لا تقل وداعاً » ادخل بعض الكلمات الانكليزية في حديثي والتي كنت الفظها خطأ . كنت اضحكهم بتقليدي للاشخاص وللممثلين . كان الكذب والمغالاة تمزج احاديثي . كلما شعرت بانهم محرجون أمام صراحتي وانفتاحي . كنت لا أتوقف ، بل استغل قوة بطاريتي لمداراة خجلي احياناً .

كنت في الثانية عشرة من العمر عندما أصبح البيانو هوسي . وما كان يفلت أحد من سؤالي : « بتعرف حدا بيلعب بيانو » لم أكن أسألهم اذا كانوا يعرفون أنفسهم ، فأنا كنت أعرف الجواب مسبقاً . ولم أكف عن الترديد كاذبة بأن مدرّسة الموسيقى قالت لي يوماً بأن مستقبلاً باهراً ينتظرني اذا أنا تعلمت البيانو .

من بين الذين سألتهم السؤال الذي اصبح تقليدياً شاب جنوبي اسمه خليل ، اعتاد ان يبيت عندنا كلما جاء الى بيروت ، ليقبض راتبه

في اخر الشهر . كان خجولاً لدرجة اني تساءلت لنفسي كيف يشرح الدروس لتلامذته ، واذا كان يستطيع الصراخ ام الضحك امامهم . كان سكوتاً لدرجة انه كان ، عندما نحدثه ، يخفض رأسه ولا يجيب . وعندما كان والدي وامي يطرحان السؤال عليه مرة ثانية ، يجيبهما وعيناه تنظران الى رأسي حذائه . أما أنا فلا اذكر انه حادثني ام اجابني على أي سؤال .

كانت امي تفرش له فراشاً على ارض غرفة الجلوس بعد العشاء . وما ان يختلي كل واحد في سريره ، ويعم الصمت والظلمة الغرف ، كان يفتح الراديو ، ويستمع اليه حتى ساعة متأخرة من الليل ، مما ضايق أمي لدرجة أنها فكرت أن تطلب منه دفع نصف فاتورةالكهرباء. رغم معرفتي لخجله ولارتباكه سألته سؤالي الذي اصبح وكأنه محط كلام عندي . كنت متأكدة انه لا يعرف من يلعب البيانو ، لكني عدت أساله مرة اخرة ، واكتفى خليل برفع عينيه . لاول مرة انتبه لجمال رموشه السوداء الطويلة ، وأفكر لماذا هو بدرجة الخجل هذه رغم جمال عينيه . في المرة الثالثة ولدهشتي اجابني ، بل سألني بدوره : « ليش بتفكري بعرف حدا بيعلم بيانو ؟ » احرجني جوابه ـ سؤاله . ووجدتني اجيبه : « هيك » .

لكن هذا الاحراج كان مؤقتاً ، اذ عدت في المرة القادمة وانا افرد امامه صحون الصعتر بالزيت واللبنة والزيتون ليتناول فطوره . أسأله السؤال نفسه . حاد بنظره عني . اخذ يحدق ملياً في قطعة الخبز الذي تناولها واخذ يفتتها باصابعه . قبل ان اكرر السؤال ، نادتني امي بصوت خرق جدار الصوت ، ولم تتوقف ، رغم وقوفي قبالتها بلمحة

بصر . وصاحت « الله يقصف عمرك انت والبيانو . عم تبهدلينا . حاج تسألي الشاب المعتر، انشاء الله بكره بحطلك بيانو على قبرك حتى تدقدقي عليه لتشبعي » .

نادراً ما كنت أتضايق عندما تصرخ بي أمي . لكن تضايقت هذه المرة ، حتما سمعها خليل ، بخرت بصياحها جواربي الهولاهوبيه الملونة . واسورتي التي تخشخش ، ونطقي للكلمات الانكليزية ، وقفت خلف الباب مسمّرة لا اجرؤ على دخول غرفة الجلوس وفي يدي صينية فارغة . امي دفشتني صائحة بان اسرع والم الصحون عن الطاولة والا . . . » وجدتني اقف وسط الغرفة ، وكلي تمنّ ان لا يكون قد سمعها . لكنه سمعها لانه تنحنح . لم ارفع عيني امامه . حتى اني لم استطع التنفس . اقتربت من الطاولة بهدوء . ولدهشتي سمعته يقول مواسياً : « عندي صاحب بيتعلم موسيقى بالكونسرفتوار الوطني ، انشاء الله بجيبو يزوركم المرة الجايه » .

استدرت أواجهه . ورأيته كالعادة مطأطىء الرأس . وكأن هذه الجملة تفوه بها سواه أو هبطت وحياً من السماء ، ووجدتني أداري خجلي وارتباكي هذه المرة بتصنعي الابتسام والقول : « ياي ما أحسنك أوعى تنسى » .

مر شهر ، وخليل لم يبت عندنا كما كانت عادته . ظنت امي انها اغضبته لما طلبت منه عشر ليرات بعد ان تعثر ذات ليلة بالراديو واوقعه أرضاً . بينما ايقنت انه يتحاشاني لعدم معرفته بمن يعلمني البيانو .

ولم اعد احسب الايام واترقب اخر الشهر . بل عدت أسأل كل من يزورنا السؤال التقليدي الى ان علمت ان خليل وجد ذات صباح متدلياً من سقف المدرسة التي كان يدرّس فيها .

جارنا الذي يصفر

صفير جارنا يضعني كل يوم في جو آخر . يحط بطائرته على درج بيتنا ، يمد يده المطاطة ، يتناولني كتفاحة . يأخذني الى دنيا احلم بها ، بعيداً عن زاروب بيتنا ، الدرج ، وبوابة الحديد الثقيلة الواقفة في آخره وكأنها باب جهنم .

ارتفع بطائرته عن رائحة الباذنجان المقلي ، وعن طاولة المطبخ . وعليها الكنزة السوداء متكومة . عن صيحات امي لأبتعد عنها والا افسدت تحول الحليب الى لبن . يحط بطائرته على أرض دنيا أخرى ، فيها بنات وصبيان يلعبون على البيانو . يرتدون ملابس جميلة يشربون البيسي كولا من قنينتها ويلعبون في جنائن كبيرة .

منذ أن رأيت جارنا يضع يديه في جيبه ، يصفر لحناً أجنبياً ، يسير نافخاً صدره . الهواء لا يفرق شعره المصفف ، والذي يبرق من شدة اللمعان . ونظارة سوداء تخفي معظم وجهه . بنطلونه الذي ما رأيت قط مثل لونه الازرق . حذاؤه الذي لا يحدث جلبة المياله الحديدية ، والذي يلمع أيضاً ، حتى ايقنت انه لا ينتمي الى حينا . فمعظم رجال حينا أباء لا يظهرون في العصر ، بل أراهم عند المغرب . وكل منهم يحمل شنطة جلدية فيها الخضر والفاكهة . وجوههم متعبة . ظهورهم

منحنية . أما شباب حينا فيسرعون بعد الخروج من مدارسهم الى النادي القريب يحملون الاثقال ويتصارعون . بينما يمتلىء الزاروب بمن في مثل سني من الاولاد . نلعب الاكس . واللاقوط . نحف حامض الليمون على الجدار قبل ان نقطعه بأسناننا ونغمسه بالملح .

ولا اترك الزاروب الا عندما تضيء البلدية مصابيحها ويتفرق الاولاد . كنت لا العب معهم بقلبي . فانا لا اكف عن التمني لو استطيع اللعب مع لمياء . ابنة الدكتور شهاب التي تسكن بيتاً مؤلفاً من طبقة واحدة وله جنينة فيها بركة . لما رأيتها خلف زجاج النافذة وأنا أنتظر دوري في عيادة والدها ، نسيت ارتجاف الشريان الذي من اجله اصطحبتني امي للعيادة ، وانا أراها تركب دراجة ، وتعتلي أرجوحة حديدية ، وتنحني تقطف تم السمكة وشقائق النعمان الحمراء . ثم تختفي لتعود ومعها لوح من الشكولاته تأكله بلحظة . تمنيت لو أكون لمياء . ثم تمنيت لو ألعب معها .

والاولاد أيضاً كانوا يلعبون معي بحرص كنت اعرف انهم يتهامسون سراً على انتفاخ فستاني . وعلى اسورتي التي تخشخش . ويضحكون علنا كلما أقول ان هناك بلداً يدعى « فنزويلا » ومحيط يدعى « الباسفيك » ، ويتغامزون كلما سألوني واجبتهم باني ساتعلم البيانو ، ولما اصبح في الثامنة عشر ، سأسافر الى اوروبا وانهي علومي هناك .

في اليوم التالي ، وانا ألعب في الزاروب التفت وانا متأكدة انها صفارة الرجل الغريب ، ولأعرف من الاولاد انه جار جديد ، يسكن في العمارة الجديدة التي شيدت منذ أشهر في آخر الزاروب والتي لا تنسجم بهندستها وببلاطها اللامع بالابنية العتيقة التي نسكنها .

دق قلبي وقلت في نفسي ، ها قد أتاني ، الشخص الذي سأتعلم بواسطته البيانو ، ولا اعرف لماذا كنت أفكر وأنا صغيرة أن البيانو هو المفتاح لدنيا اعرفها بالفطرة وبالخيال . كانت معلمة الموسيقى في المدرسة تختلف عن كل المعلمات . فهي تسكن قرب المنارة ، كانت جميلة ، ترتدي ملابس تختلف عن ملابس جميع المدرسات . تسرح شعرها عند المزين ، وتربط ايشارباً ملوناً عند رقبتها وتنتعل صندالاً ذهبياً .

تلعب البيانو واسوارة يدها الفضية تخشخش ، وفستانها الواسع يجعلها تبدو كأنها ممثلة . كنت لا أسمع الالحان التي تعزفها . ولا احفظ الكلمات . بل اتوه اتخيل نفسي اجلس مكانها . لما يدق الجرس ، اسرع الى البيت ، آتي بخيط ادخله في النقود المعدنية المثقوبة فيصبح سواراً احيطه بمعصمي . وآتي بسلك حديدي ادخله في تنورة فستاني القديم فينتفخ . واجلس أمام طاولة الدرس وابتدىء بتحريك اصابعي . اسورتي تخشخش . فستاني يتدلى من الجانبين . انظر الى السماء اعقد حاجبي منسجمة ، اعزف حتى اسمع التصفيق يدوي . التفت عن جانبي احيي الجموع وانهض أمام الحضور . ثم اقترب من الخزانة عندما اسمع صوت امي . ادنو من المرآة ، أقبل شفتي وأسرع الى أمي .

هذا العصر . وجاري يمر كأنه قائد كتيبة لا ينظر من حوله ، يسير وكأنه في مهمة . افكر بان عليه ان يلحظني . ليعرف اني مثله لا انتمي الى هذا الزاروب . مع اني اسكنه . واني اقرأ لجبران خليل جبران ومي زيادة ، واني اعرف خطوات الرقصات الافرنجية ، وان ابنة خالي تزوجت من مسيحي وهي تسكن في منطقة رأس بيروت ، وعندما نزورها نذهب الى الجامعة الامريكية ونتمشى في جنائنها . ونشتري

بوظة لاكي كريم ، وان ابن خالي كتب مرة شعراً سياسياً ، وجعلني احفظه غيباً والقيه في احد الاحتفالات امام رئيس الحزب .

لما اختفى جاري ، ايقنت ان احساسي سيصدق هذه المرة . انه ينتمي الى عالم البيانو والحياة الاخرى . انه يضع نظارات شمسية ، ياقة قميصه مرفوعة ، انه يضع يديه في جيبه ، ويدندن بلحن اجنبي شائع . حتما انه يعرف العزف على البيانو ، واذا كان يعزف على آلة اخرى فانه بالتأكيد يعرف من يلعب البيانو وسوف يدلني عليه واتعلم .

عصر اليوم التالي ، ابتعدت حتى اخر الزاروب ووقفت انتظر جاري حتى يمر . لما سمعت الصفير ، التفت ، رأيته يطل حاملا في صفارته العالم الذي اتوق اليه . ركضت خلفه اقول له كاذبة : « في واحد سأل عنك » . ابتسم وهو يسألني : « قال لك عن اسمه ؟ » ارتبكت وانا اقول « لا » ولما هم بمتابعة سيره اوقفته قائلة : « بس انت بتعرف حدا بيعلم بيانو ؟ » وسألني « مين بدو يتعلم ؟ » واجيبه بسرعة « أنا » ولدهشتي اجاب : « أنا ، لما بدك تعي وأنا بعلمك ، انا بالطابق الثاني ، عالشمال » ، بسرعة سألته : « ايمتى ، هلق ؟ » نظر الى ساعته وقال : « بعد ربع ساعة » . اسرعت الى الشارع العام حيث دكانة ابو جميل ، سعيدة غير مصدقة انه في احد غرف حينا البعيد عن كل ما يحدث في العالم ، وبالتالي في بيروت ، بيانو ، وان هناك من يلعبه ، استدرت أسأل ابو جميل عن الساعة ، وعن الدقائق التي عليها ان تمر ليسير الزمن ربع ساعة ، ووقفت اتلهى برؤ يتي لتلال الاحذية القديمة المعروضة للبيع ، وعدت أسأل ابو جميل ، وما ان قال « هلق » حتى ركضت الى العمارة الجديدة ادخلها . خفت من التزحلق وأنا أسير فوق

بلاطها اللامع . كبست زر المصعد ، هذه المرة الثانية ارى نفسي في مصعد . دققت الباب الشمالي في الطبقة الثانية ، وقبل أن أعود افكر بما سأقوله ، فتح جارنا الباب وقد رفع نظارتيه . بدا اكبر سنا ، شعرت بالرهبة وبقلق خفي ، انه يشبه رجال حيّنا . وخيبة الامل اخذت تزحف علي عندما قال : « تفضلي » . دخلت ، تلفت حولي ، لم ار أي اثاث سوى كرسي عليها قميصان وعدة بناطلين ، وجوارب مرمية على الارض . لا بيانو ، بل وضوح النهار انسكب كله في بياض الغرفة . وقفت انظر في الارض ، قال وهو يمد يده الى وجهي ، ويرفع اليه ذقني : « بتعرفي ، انت اجمل بنت في الحي ، قديش عمرك ؟ » ، واجبته وانا ابعد وجهي عن يده وصوتي يختنق : « احدى عشرة سنة » حاولت النظر اليه ولم أستطع . اخذ القلق يربكني ويجعلني أمسك يدي باليد الاخرى وهما خلف ظهري حتى امنع خشخشة اسورتي التي كرهتها هذه اللحظة . وأيقنت انه يتحرك ، وقلت وصوتي يختفي : « عندك بيانو ؟ » ، اجبرت نفسي على رفع رأسي لاتلقى جوابه . ووجدته منشغلاً يعبث بحزام بنطلونه . ابعدت عيني وقد مسهما تيار . قلبي يدق بعنف . ارتجف شاعرة أن شيئاً مخيفاً ، خطراً ، عظيماً سوف يحدث لي . ولم اعرف كيف استجمعت حواسي ، كيف اعطيت دماغي الاستغاثة أو اعطاني الاشارة لاخطو خطوتين نحو الباب . أسرع جاري خلفي قائلاً : « عمهلك شوي بكرة باخذك معي لعند اختي عندها بيانو » . قلبي يضرب بشدة ، صوتي اختفى ومع ذلك استطعت القول ووجهي مسمر على الباب « معليش » ، لحظات مضت وانا اشعر بأن الوقت جمد من ثقل حمولته . اردت ان اخطو وما استطعت . جف حلقي ، تسمرت قدماي . اسمع حركة الرجل وعيناي تقززتا . اسمع

صوت فدوى ربما تعرف انني هنا ، اعود اسمع صوتها ، اخطو خطوة وانا انظر الى الباب . لكن جاري سده . اشحت بوجهي وأنا اكاد اقفز هلعاً عندما رأيت ما يشبه عرف الديك عند اعلى فخذيه ووجدتني اصرخ : « يا ماما » لما اقترب مني اردت الصراخ . لكن اخذت اسناني تصطك . شفتاي التصقتا . اقترب مني ، ولما قال : « ليش خايفة » . أشحت بوجهي حتى النافذة واذني وقفت وكانها تنهدت .

سمعت صوت بائع الكمك الذي يأتي الى زاروبنا كل عصر وينادي . « كمك عصرية » ، صوته طمأنني فجأة « كمك عصرية ، طازة وشهية » . صوت بائع الكمك يطمأنني اكثر يمد اوصالي بالشجاعة ، يجعلني اسرع الى النافذة واصرخ : « بياع الكعك ، بياع الكعك » . واستدرت راكضة لارى جاري قد اختفى ، اسرعت افتح الباب ، انزل السلالم بجنون وانا اشهق باكية . كلما اسرعت وانا التفت ورائي خشخشت اسورتي . وجدتني اقطع خيطها بأسناني ، وما ان اصبحت في الزاروب ، ورأيت الاولاد يلعبون حتى تنفست ، وبائع الكعك لا يزال ينتظر اطلالة صاحبة الصوت التي نادته . لكني لم اتوقف ، ولم اتوقف عن الارتجاف والبكاء ، صعدت درج بيتنا بسرعة ولم اتنفس الا عندما دخلت المطبخ ، حيث كانت امي تصب الماء على الترمس اليابس الذي بدا كأنه اقمار صفراء صغيرة ، رميت نفسي فوق امي ابكي ولم اتوقف رغم اسئلتها المتابعة . لم ارتح الا عندما شممت رائحة المطبخ تنبعث من ثيابها .

السجادة العجمية

لما انتهت مريم من تضفير شعري الى ضفيرتين ، مدت أصبعها الى فمها تلحسها ثم مرت بها على حاجبي وهي تزفر « آه من حواجبك ، شي طالع ، شي نازل » . التفتت بعجلة الى اختي وهي تقول : « شوفي اذا أبوك بعده عم يصلي » . لم أنتبه الا وأختي تعود وتهمس : « بعده » ، ومدت يديها ترفعهما الى السماء تقلده . ولم أضحك كالعادة ، ولم تضحك مريم بل تناولت الايشارب من على الكرسي تغطي شعرها وتعقده بسرعة عند رقبتها . فتحت الخزانة على مهل وتناولت شنطة يدها ، ادخلتها حتى وصلت ابطها ومدت لنا يديها ، فامسكت أنا بواحدة واختي بالاخرى . وفهمنا أن علينا السير على رؤوس أصابعنا مثلها . ونحبس أنفاسنا ونحن نخرج من باب الدار المفتوح . ننزل الدرج ورؤوسنا تلتفت صوب الباب . ثم صوب الشباك . لما وصلنا آخر درجة ، ابتدأنا بالركض ولم نتوقف الا عندما اختفى الزاروب وقطعنا الشارع وأوقفت مريم سيارة أجرة .

كان تصرفنا واحد ، يدفعه خوفنا ، فاليوم سنرى أمي لاول مرة منذ انفصالها بالطلاق عن والدي الذي أقسم بأنه لن يدعها ترانا . فالخبر بأنها سوف تتزوج من رجل كانت تحبه قبل أن يزوجها أهلها بالقوة من والدي انتشر بعد ساعات من طلاقها .

قلبي يدق . فهمت أن ضرباته ليست اثار الخوف والركض ، بل من رهبة هذا اللقاء . من ارتباكي المنتظر . فأنا قد حفظت نفسي وخجلي . مهما حاولت فأنا لا أستطيع إظهار عاطفتي حتى لامي . لن أقدر على الارتماء بين ذراعيها ، وطمرها بالقبلات وامساك وجهها كما تفعل اختي ، أو كما هي طبيعتها . فكرت بهذا طويلاً منذ ان أسرّت مريم في أذني وأذن شقيقتي بأن أمي اتت من الجنوب . وبأننا سنزورها خلسة في الغد . اخذت أفكر بأني سوف أجبر نفسي على أن أتصرف كما تتصرف أختي تماماً ، سأقف خلفها وأقلدها عن لا وعي . التقليد الاعمى ، كما يقول المثل . لكن ، أنا أعرف نفسي . لقد حفظتها غيباً . مهما أحاول إجبارها ومهما أفكر مسبقاً بأنه يجب ولا يجب أجدني انسى ، ما صممت عليه وأنا في الحدث نفسه ووقفت ونظري الى الارض . وجبيني قد زاد تقطيبه حتى وأنا في هذا الوضع لا أيأس ، بل أتوسل لفمي حتى تنفرج شفتاه عن ابتسامة لكن بلا فائدة .

لما توقفت سيارة الاجرة عند مدخل بيت يقف على كل من عاموديه أسدان من حجر رملي أحمر ، فرحت ، نسيت للحظة قلقي وتوجسي . وعمتني السعادة لأن أمي تسكن في بيت يقف عند مدخله أسدان ، وسمعت أختي تقلد زئير الاسد ، التفت اليها أحسدها . ورأيتها تمد يديها عالياً تحاول هبش أحد الاسدين . فكرت : هي دائماً بسيطة ، مرحة ، مرحها لا يفارقها حتى في أحرج اللحظات . وها هي ليست متوهمة من هذا اللقاء .

لكن ، لما فتحت أمي الباب ورأيتها . وجدتني لا أنتظر احداً ، بل أسرع وأرتمي بين ذراعيها ، قبل اختي . وأغمض عيني . وكأن كل

مفاصل جسمي قد نامت بعد أن تعذر عليها النوم مدة طويلة . وشممت رائحة شعرها التي لم تتغير . واكتشفت لاول مرة كم افتقدتها ، وتمنيت لو تعود تعيش معنا ، رغم حنان واهتمام والدي ومريم بنا ، وتهت أتذكر ابتسامتها عندما رضي والدي بطلاقها بعد أن تدخل شيخ الدين عقب تهديدها له برمي وحرق نفسها بالكاز اذ لم يتم طلاقها . اتخدر من رائحتها التي حفظتها كل حواسي . أفكر كم أفتقدها رغم أنها عندما أسرعت وراء خالي تصعد السيارة بعد أن قبلتنا وأخذت تبكي . استأنفنا لعبنا في زاروب بيتنا . ولما أتى الليل ، ولم نسمع لاول مرة ، منذ زمن ، خلافها ومشاحنتها مع والدي ، خيم الهدوء على البيت الا من بكاء مريم ، التي تربط والدي بصلة القرابة والتي وعيت عليها وهي في البيت تقيم معنا .

تبعدني أمي عنها مبتسمة لتضم شقيقتي وتقبلها ، وتعود تضم مريم التي اخذت تبكي وسمعت امي تقول لها باكية : « كتّر خيرك » مسحت دموعها بكمها ، وعادت تتأملني وتتأمل شقيقتي وتقول : « يخزي العين ، عم تطولو » ثم احاطتني بذراعيها بينما غمرت اختي خصر أمي وأخذنا نضحك عندما تعذر علينا الخطو بسهولة . لما وصلنا الغرفة الداخلية أيقنت أن زوجها الجديد في الداخل لان أمي قالت وهي تبتسم : « محمود بيحبكم كثير ، وبيتمنى لو أبوك بيعطيني اياكم ، حتى تعيشوا معنا وتصيروا كمان أولاده » . وردت اختي ضاحكة : « يعني بصير عندنا ابوان ؟ » وأنا لا زلت مخدرة أضع يدي فوق ذراع أمي فخورة من تصرفي . من افلاتي من نفسي ومن يدي المكبلتين ومن سجن خجلي بلا جهد . وأنا أستعيد صورة لقائي مع أمي والارتماء تلقائياً عليها ، والذي كنت أحسبه أمراً مستحيلاً ، وتقبيلها لدرجة أني

اغمضت عيني . زوجها لم يكن هنـاك . أفتـح عينـي ، وأبحلـق في الارض ثم أجمد . اضطرب ، أنظر الى السجادة العجمية المطروحة على الارض ، أنظر الى أمي نظرة طويلـة . لـم تفهـم معنـى نظرتـي . بل اتجهت الى خزانة تفتحها وترمي لي ببلـوزة مطـرزة . وتتجـه الى درج تواليت زينتها وتتناول منه مشطاً عاجياً رسم عليه قلوب حمراء تعـطيه لاختي . احدق في السجادة العجمية وأنتفض حنقاً ، وغلاً . عدت أنظر الى أمي ، وفسرت نظرتي اشتياقاً وحناناً ، لانها أحاطتني بذراعيهـا وهـي تقول : « لازم تجو كل يومين ، ولازم يوم الجمعـة تقضـوه عنـدي » . لبثت جامـدة . وددت لو أبعـد ذراعهـا . لو أعض زندهـا الابيض . وددت لو تتجدد لحظة اللقاء وتفتح الباب وأقف كما كان يجب ، نظري الى الارض ، مقطبة الجبين . عيناي الان تنظران في السجادة العجمية ذات الخطوط والالوان المطبوعة في ذاكرتي . كنت أستلقي عليهـا وأنـا ادرس ، أجد نفسي قريبة منها لدرجة ، فأتأمل نقشهـا واشبهـه بحـز بطيخ أحمر ، الواحد تلو الاخر . وعندما أجلس على الكنبة ، ارى الحز قد تحول الى مشط له أسنان رفيعة . كان لون باقات الـورود المحيطـة جوانبها الاربعة أرجوانية اللون ، شبيهة بلون نبتة عرف الديك . ككل مطلع فصل صيف كانت أمي تطرح حبوب النفتالين عليها وعلى باقي السجادات ، تلفها وتضعها فوق الخزانة . كانت الغرفة تبدو شاحبة ، حزينة الى أن يطل الخريف ، وتصعد بها أمي حتى السطح تفرشها ، تلتقط حبيبات النفتالين التي تكون قد ذاب معظمها من حر ورطوبة الصيف ، تكنسها بمكنسـة صغيرة وتتركها فوق السطـح . في المسـاء تنزلها أمي وتفرشها مكانها وتعمني السـعادة ، الحياة تعـود الى الغرفـة والوانها أكثر ابتهاجاً . لكن ، هذه السـجادة اختفت قبل طلاق أمـي

باشهر وهي تتشمس ، متمددة على أرض السطح ، عندما صعدت أمي عند العصر لتاتي بها ، ولم تجدها . بل نادت والدي الذي رأيت الحمرة تعتلي وجهه للمرة الأولى ، نزلا من السطح والغضب والحيرة تطير منها وتصل الجيران الذي أقسم كل منهم أنهم لم يروها . صاحت أمي فجأة : « ايليا » وانعقد لسان الجميع . لسان أبي ولساني ولسان أختي ولسان جارتنا وجارنا . ووجدتني أصيح : « ايليا ؟ حرام ، مش معقول » .

ايليا ، كان رجلاً شبه ضرير يتردد على بيوت كل الحي ، يعيد تقشيش كراسيهم الخيزرانية . ولما كان يأتي دورنا وأراه بعد أن آتي من المدرسة يجلس على المصطبة ، وأمامه أكوام القش وشعره الاحمر يبرق تحت الشمس . يمد أصابعه يتناول خيط القش بسهولة وكأنه سمكة تمر من بين الشباك المنصوبة دون أن تمس بأي أذى . وأراه بخفة ومهارة يدخلها من ثقب ويلفها ويعود يخرجها حتى تتكون شكل دائرة من القش في قعدة الكرسي كالدائرة التي قبلها والتي تليها . كلها متساوية ، متشابهة وكأن يديه آلة . كنت أتعجب لسرعته ومرونة أصابعه ولانه كان يجلس منحني الرأس كأن عينيه تبصران . شككت مرة بأنه لا يرى الا العتمة ووجدتني اقرفص وأنظر الى وجهه المتورد الاحمر ، فأرى عينيه مغمضتين تحت النظارات وكان فيهما خطاً أبيض حز في قلبي وجعلني أسرع الى المطبخ فأرى كيس تمر على الطاولة أمد يدي أضع كومه في صحن أقدمه لايليا .

وأنا لا أزال أحدق في السجادة . طافت صورة ايليا الاحمر الشعر والوجه ، فطنت اليد وهو يصعد الدرج وحده ، وهو يجلس على

كرسيه ، وهو يساوم ، وهو يأكل ويعرف أنه أكل كل ما في الصحن . وهو يشرب من الابريق ، والماء ينصب في حلقه بسهولة . لما جاء ذات ظهر وقد تعلم من والدي أن يقول « الله » قبل أن يقرع ويدخل ، لربما أمي كانت بلا حجاب ، هجمت أمي عليه تسأله عن السجادة ، ولم يقل شيئاً ، بل أصدر صوتاً يشبه البكاء . ولما مشى تعثر لاول مرة ، وقارب على الاصطدام بالطاولة . اقتربت امسك بيده ، فأمسكها وقد عرفني من لمسه ليدي . لانه قال لي بصوت يشبه الهمس : « معليش عمو » واستدار يخرج . انحنى ينتعل حذاءه ، وكأني رأيت دموعاً خفيفة على خديه . ولم يتركه والدي بل سأله : « الله يسامحك يا ايليا ، اذا قلت الحقيقة » . لكن ايليا مشى يستند على درابزين الدرج . ينزل الدرجات ، آخذاً وقتاً على غير عادته في تحسس طريقه ، حتى اختفى ولم نعد نراه .

هواء بعلبك

توقف رمزي عند البناية التي تسكن فيها جمانة . مدّت يدها تفتح السيارة بتمهل . لربما دعاها للبقاء معه . لا بأس اذا اقترح الروشة ، حيث اعتادا شرب عصير البرتقال وهما في السيارة . انها تفضل ان يأخذها الى مكان اكثر خصوصية حتى يقبلها . لا تريد ان تنتهي سهرتها الان . تعرف انها تبدو ساحرة هذه الليلة بشكل خاص . هواء بعلبك الجاف ابقى على لمعان وانسدال شعرها حتى الكتفين . غلّف وجهها بغشاء رقيق ، ابقى على المسكارا السوداء وعلى الكحل المحيط بعينيها ، والبودرة البنفسجية على جفنيها ، والحمرة الخفيفة على الوجنتين ، التي استعملتها كلها لاول مرة في حياتها .

هو ، هواء بعلبك . الغى متاهة الاذن وجعلها مجرى هواء مفتوح حتى القلب . موسيقى بحيرة البجع دخلت قلبها ، وسيطرت على ضرباته ، على ضخ الدم داخله وخارجه . ضبطت نفسها وهي تغمض عينيها والبجعة البيضاء تتلوى من الحب ومن الحزن . لكن اليوم بحيرة البجع حقيقية . سماء بعلبك كانت كالبحيرة . القمر فوق الكراسي ، نوره على المسرح الحجري ، حمام ابيض ، طيور اخرى ، ربخت على علو الاثار مستأنسة لما يجري حولها . تمنت جمانة تحت تأثير مخدر الموسيقى

لو يمسك رمزي يدها الان . لو تحيط ذراعه كتفها ، لا تستطيع تحمّل انغام الكمان ووقع خطوات البجعات البيضاء وهي بعيدة عنه . لو يمد يده ويضعهـا على كفهـا . لو تلمس اصابعـه فستانهـا . حذاؤه بوز حذائها . ظل رمزي ببروفيله الجذاب كلـه الى البـاليه والان الى قيادة السيارة . ولم يلتفـت الا عندمـا قالـت له : « شـوف رمـزي ، ميال الشمس دار وجهه » ، فعلاً كانت استدارة مئات الغرسـات مواجهـة للشمس عند اول بعلبك بعد الظهر . ابتسم رمزي ومـد يده يلامس خدها ، ثم عاد الى قيادة السيارة . تضايقت جمانة عندما رأت بيروت من الجبل ورطوبة متشابكة فوقها . ولدهشتها اوقف رمزي السيارة عند مفرق البرزة . أمسك اولا بيديها ثم قرب وجهه منها يقبل شفتيها . كان هواء بعلبك قد علق بشفتيه . شعرت بحرارة منعشة . تمنت ان لا يكف عن تقبيلها حتى الصباح . لكن رمزي عاد الى القيادة وما توقف الا امام البناية التي تسكنها وكانت على طريق فرعي في قلب بيروت . صمته جعلها تمد يدها الى الباب وتسأله : عجبتك الباليه ؟ أجاب : « بعلبك اللي عجبتني ، نعمة من السما ، كل شيء فيها غير شكل » .

وأنا غير شكل الليلة ، مش نعسانة ابـداً ، مبسوطـة . الموسيقـى خدّرتني . مبسوطة . بديوأنا مبينة حلوة كتير ضلّ معـك . بدي كل العالم تشوفني معـك . ما بدي نام . بدي الصـق فيك . وبـدي ياك تكون بس لجمانة . ما بدي شوفك كل يوم بعد يوم لكم ساعة . بدي ضلّ معك . لكنها قالت : « انـا حبيت الموسيقـى كتـير . معـك حق بعلبك بالليل بتخللي كل شي بجنّن . فتـح زجـاج النافـذة . فرحـت جمانة : إذاً لا يريد الذهاب هو أيضاً . فتحت هي زجـاج نافذتهـا . شعرت بهواء بيروت الدبق قالت : ملاحظ الفرق بين هواء بعلبك وهواء

بيروت ؟ » ندمت لجملتها هذه ، ونسيت الندم عند اجابته : « ملاحظ انو جمانة الذ واحلى بنت شفتها بحياتي » .

طيب ، اذا كنت انا اجمل والذ بنت شفتها بحياتك ليش عم ترجعني على البيت ؟ وليش كل يوم بترجعني بكير ، بتقول عني صغيرة واليوم لَمحت لك انو قلت لأهلي بدي اتأخر ويمكن نام عند صاحبتي في بعلبك « لكنها سألته : بكره رايح عالبحر ؟ » ولم تسمع جوابه ، سمعت صوتاً آخر يقول : « جمانة . ولي جمانة حاج بقى ، عيب » ، تصنعت عدم سماع الصوت الاخر . كذلك وجد رمزي نفسه يزيد من التفاصيل في اجابته محاولاً عدم الارتباك . « اى رايح بكره ولح جيب سبيد بوت تبع ناهي ، فينا نروح بكره عجونية » وسألته جمانة تتصنع الاهتمام بينما الصوت الحشوري خطف عقلها منذ لحظات . « قديش بتأخذ وقت من السان جورج لجونية ؟ » لكنهما عادا يسمعا الصوت الاخر يقول : « ولي جمانة . استحي ، حاج بقى ، عيب بنصاص الليالي بالسيارات . روحي نامي » .

التفت رمزي حوله ، وعاد الى وجه جمانة الذي غطته الحمرة والتي قالت متصنعة الضحك : هيدا جارنا ابو عادل ، حشور . بنام على سطح الدكان ، ما تهتم . حاول رمزي ان يتجاهل الصوت الذي عاد يقول : « جمانة . ولي جمانة ، بعدك صغيرة ، لح تطلع الشمس . . اطلعي نامي » .

حاولت جمانة ان لا تدع صوت ابو عادل يتسلل الى موسيقى بحيرة البجع ، الى الحمام الابيض . ولا الى بروفيل رمزي ودفء قبلاته . لكن وجدت افكارها تبتعد من السيارة رغماً عنها وتحط عند ابو عادل ،

وهـو ينـام على سطـح دكانـه في بنطلـون بيجامتـه ، واذا اشتـد الحـر بالكلسون بعد ان يقرقع نرجيلته حتى ينعس ويقول لمن حوله : « يللا يا شباب بعد عندي مشوار عالجبل سطيحـون . يمـد فراشـه وينـام ، تنكات الحبق من حوله ، تاركاً زوجته واولاده يعاركون حرّ شهر آب في البيت .

صوت ابو عادل ذكّرها بجبانة الصغيرة التي كانـت تمسـك خمسـة قروش وتحار بين شراء البزر والمعلل . تفكر انها ربما لا زالت صغيرة . لا غنى لها عن هذا الحي وعن بيتها رغم تحليقتها كبجعة . وهواء بعلبك الذي ضخ الموسيقى في قلبها بدل الدم منذ ساعات .

إسكندرية ذات مساء

رأيت هتلر في ناد ليلي في الاسكندرية اسمه سنتالوشيا ، كان بشاربيه الهتلرين وعينيه المجنونتين وشعره الاملس ، يحمل صينية ، يضع الكؤوس على الطاولات ، ياخذ قلماً اثبته خلف اذنه . يسجل طلبات جديده ، يلقي التحية ويختفي .

قلت لمن يصحبني انه هتلر ، مع اني لاحظت نحافته وقصر قامته ولكنته اليونانيه المصرية . رأيت فرو ارانب مصبوغاً بلون زهري فاقع وبلون فستقي على عارضتين . تذكرت اني شاهدت احداهما في مطعم الغريون في شارع قصر النيل ، في القاهره ، تبحث عن رموشها الاصطناعية في كوب حساء ساخن . وجدتني اقول بعناد عندما لم اجد ما اعلقه على هاتين العارضتين . « طبعاً إنه هتلر » .

لم أتناول طعامي لان صحن اللحمة المشوية اتاني بلا بازلا ، والبطاطا المقلية كانت بارده . ولانني سمعت لحن قصة الشارع الغربي ورأيت شباباً وبنات في مثل سني يرقصون . التفت نحو من يصحبني وكان يكبرني عشرين سنة اسأله : « هل ترقص ؟ » . لما انبعثت موسيقى التانغو والفالس ووقف يمد لي يده قلت : « موسيقى جنائزيه ، لا احب الرقص » . لم انظر في وجهه بعد جملتي هذه ، كنت أشعر انه يرشف كاسه برشفتين ويطلب اخرى . ويدخن سيكارتين معاً . التفت

أبحث بعيني اراقب هتلر واقول : « انا متأكدة انه هتلر » . واسد انفي ، وانا اتصنع ان رائحة فرو الارانب لا تطاق واقول : « يمكن انتو في مصر ، ما بتدبغو فرو الارانب بتجففوه بس وبتلبسوه» . ثم وقفت فجأة ، أسير حتى الباب . التفت ولم اره ورائي . فتحت الباب ، خرجت ، يلسعني هواء البحر وانا اقف طويلاً بجانب السيارة قبل ان يتقدم ويفتح بابه ويدخل ثم يفتح لي الباب . هذه اول مره يدخل قبلي . لم أنظر في وجهه ، مددت وجهي حتى الصقته بالزجاج البارد ، أخذت أتمعن في الطرق . دخلنا الفندق الصغير من حديقته لأنهم يقفلون الباب الرئيسي المواجه للبحر بعد منتصف الليل . كانت الحديقة كحديقة بيت لا فندق . بالطريقة التي غرست أزهارها ، حتى كراسيها وطاولاتها ، حدت عن الممر ، الباطوني المشكوك بالحصى البارزة ، بلا سبب أخذت أجرف التراب في قدمي ، لما فتح لي الباب ، ظللت واقفة في الحديقة . لم يكلمني . ظل واقفاً ، فاتحاً لي الباب . أخذت دموعي تهطل وتغطي وجهي . تنزل نقطة ، نقطة حتى رقبتي ظل واقفاً يفتح الباب بيده . شهقت متصنعة ، عندها ترك الباب ، اقترب مني ، أحاطني بذراعه وسار بي حتى غرفتنا .

ـ مالك ؟

ـ ما بعرف ؟

لكن صورة الرجل الذي يلتصق الارض ، ينتقل متعكزاً على يديه . جسمه ينتهي عند وسطه . اتصوره يدنو منا زاحفاً ونحن نترجل من السيارة قاصدين النادي ، واختي في بيروت تعيش حياة تختلف عن حياتي . لا ترى الليل ، لا ترقص ، لا تاكل لحمه مشوية ، لا تشتري

فستاناً جديداً لا تقلب شفتيها ، لا ترفض شيئاً ، لا تذهب الى المزين ، محفظتها ليست معبئة بالجنيهات ، بل ربما ليس عندها محفظه ، لا تجد فطورها حاضراً . وسريرها مرتباً . وامي لم اسمعها قط تدندن بلحن ام باغنية . لم ارها يوماً ترتاح في السرير. والرجل الذي يلتصق بالارض . تأملني بعينين جميلتين ، كان يزحف ، يمد يدا واحدة يستعطي ، بينما يستند بالاخرى على الارض ، رأيت ياقة قميصه وازرار كنزته مبكلة وذقنه حليقة وشعره مقصوصاً .

ـ مالك ؟

ـ ما بعرف ؟

ـ دائماً في الاسكندرية تأتيك الحالة ده .

ارتميت على السرير ابكي واقول اني اريد السفر الى بيروت الان .

ـ لازم ترسلي برقية ، لازم عيلتك تستقبلك ، أي بنت لها عيلة ما تسافرش كده ، بلا حس ، وبلا خبر .

برقية ؟ اذا استلمها والدي سيظن انها ليست مني وانها ليست له . واذا تأكد من انها له وهي مني ظن ان الجنون قد مسني . اذا استلمتها امي تظن انها فاتورة كهرباء او ماء . اختي تظن اني اتباهى .

لما وصلت بيتنا ودققت الباب الخشبي بلهفة فتح والدي الباب ، لم انتبه من قبل انه في هذا القصر والنحافة . صاح : « اهلا ، اهلا ، كيف صحتك يا بابا ؟ » مد يده فقبلتها ، وشممت رائحة عطر كاد الغثيان يصيبني من حدتها . « كيف المدرسة ؟ كيف الاحوال ؟ امك

واختك عندن نصف اليل». كان في بيجامته المخططة اياها لاحظت انه يعرج . ثم رأيت عمي نجيب وقد ازداد وزنه يسرع من غرفة الجلوس يصافحني . قال له والدي : « روح يا شيخ كفي اكلك هلق البيض بيبرد ، وكاس العرق بيسخن » .

كان اشتياقي بالون اخذ يتنفس من ثقب لا يرى بالعين المجردة . دخلت غرفة امي على مهل ولدهشتي كانت تخلع قميص نومها . رغم اني قبلتها وقبلتني الا انها ظلت منهمكة بارتداء ملابسها . سالتها لماذا هي خلعت قميص نومها ، اجابتني وهي تضع الايشارب على رأسها : « مشان عمك نجيب » .

جلست على حافة السرير ادير عيني في الغرفة والاحظ تغيراً فيها . بينما هي لاحظت بصمت ملابسي الثمينة ، وحذائي الاسود اللامع . قلت . « شو غيرتو بالاوده ». وقبل أن تجيبني حذرت أرى سريراً واحداً بدل سريرين . واختفاء المشجب الذي لم اره يوماً بلا ملابس والدي . سالتها فجأة عن عرج والدي ولم تجبني ، بل سالتني ، اذا كانت الحكومة لا تزال تدفع لنا وكم سنة سيبقوني هناك ، كانت تتكلم كأني مخطوفة ، ومكرهة على العيش في القاهرة . ابتسمت ولم اجبها . عادت تسالني اذا كانت الحكومة تشتري لنا حاجاتنا وهي تلمس بيدها لمعان شنطة يدي الجلدية السوداء ابتسمت ، ولم اجبها أيضاً . جرثومة حطت على ارتياحي وفرحتي الذي احسست به ليلة أمس في الاسكندرية حالما وافق على سفري. هل اسئلتها الساذجة ؟ استقبال والدي بلا لهفة ؟ عمي الذي رأيته كخنزير ؟ صرير سريرها النحاسي ؟ الايشارب المغطي شعرها ؟ ستائرها الباهتة ، الغير متساوية الطول ؟

خزانتها الخشبية المكسورة المرآة ؟ أم السجادة الصغيرة بلا حاشية والتي خيطانها منسولة ، الوسائد المرقعة ؟ أم صف الصور المعلق على الجدار والذي بعلوه يكاد يصل حافة السقف ؟ صورة لامي تقف مع جدتي الحاجة في المطبخ . شهادتي في تجويد القرآن ، شهادة اختي . ابن اخي وهو عار . صورة لاخي بين شباب لا اعرفهم . ابعدت كل هذا . عانقت امي من جديد .

قطعت صمتي سائلة : « جوعانة ؟ هل يطعمونكم مثل ما بدكم ؟ هل اذا لم تحبوا الاكل ، فيكم تضهروا وتشتروا شي علبة بسكوت ، شي كيلو تفاح » .

- أنا مهى ، جئتك برسالة من بيروت .

- تتغذى معايا اليوم ؟

- الجامعة لم تقبل اوراقي ؟

- معليش ، ادبرها .

- لازم ارجع بيروت ، فكرت اني سادفع تسع جنيهات في الشهر لبيت الطالبات .

- ما تفكريش بالفلوس . المهم الجامعة .

- هل تدعوني الى العشاء ؟

- طبعاً

- هل تريني النيل ، والاهرامات ، وبحيرة الفيوم والاسكندرية ؟

ـ طبعاً من عينـي الاثنـين ، ده ، قبـل ده ، بس قوليلي ، ايه اللي خلاك تجي القاهرة ؟

ـ اغنية يا نخلتين في العلالي يا بلح .

اعود اسأل امي ، عن عرج والدي ، اسمعه يضحـك ، واسمـع قرقعة كأسه وكاس عمي نجيب تقول : « مش حكموا ابن عمك جواد 18 سنة » . هببت واقفة ، اسرع الى عمي نجيب واقول له وانا اتخيل جواد يشـد ضفيرتـي : « لازم تعملـوا واسطـة مش معقـول ، كيف قبلانين » .

أبعدني عنه، اهتز كاس العرق في يده ، اندلق معظمـه فوق رقع السجاد وصاح بي: «ولو يا عمو.مين قال انا زعلان، أو حدا بالعايله بيسترجي يزعل ، لما شفت امه بدها تبكي قلتلها ابلعي دمعتك ، الحبس للرجال ، وجواد كان عم يدافع عن كرامته وكرامة العايلة كلها . كان لازم يشك ابن الكلب بالسكينة . الازعر قال عن جواد لص ، تهمـه بالزعبـرة والغش . هيدا درس لازم يتعلمـــه كل صغـير وكبـير في العايله » . سرت والعنف يأكلني. سرت والخجـل من ملابسي ينبـت فجأة . انـه لا يتناسـب وشحـوب المرآة ، وصـوت عمـي ، وابنـه في القاووش والجريدة الملصقة تسد زجاج النافذة المكسورة ومثـل ابـريق الفخار هذا وقع من يدي وانا صغيرة ورأيت مع بقعـة المياه صراصير صغيرة ميتة . مقلاة البيض موضوعة على الجريدة ، فوق طاولة اسندت احدى جوانبها بحجرة .

اراقب الجرثومة تكبر ، وانا ادخل غرفتي ، وارى اختي قد خبأت

رأسها تحت الوسادة . كأنها كانت تنتظر زكزكتي في قدميها ، لانها سرعان ما نهضت وهجمت تقبلني وتبكي . وانا ابكي في داخلي . لانها تنام في هذه الغرفة الباردة ولان الجفاف يبدو على شعرها . ولاني سأنام في سريري بجانب سريرها ، بعد ان ارفع عنه كوم الملابس . رأيت الطاولة التي كنت ادرس خلفها قد اختفى سطحها بحرام الصوف المثقوب بحروق مكواة حفر شكلها ، وشريطها في الذاكرة . ورأيت رقع السجاد على الارض ، ولم استطع الا ان اقول : « ولو اذا اهلك عم يجنوا انت كمان ، شوها الرقع ، كل شيء مرقع ، والكراسي المكسّرة ، كل شي للرمي . حتى الراديو اللي ما بيشتغل عملتو له غطاء ومصمود بالدار مثل التحف » .

ضحكت كاني لم اقل شيئاً . وقالت : « يا لله شو مشتاقة ، البيت بلاك ما بيسوى قشرة بصلة » . تنهدت وتابعت . « مش كاظم ابن خالتي ، قوص البابا . لانو البابا شافه راكب عالطزطيزة وقال راح قول لامك اذا شفتك بعد عليها . وكاظم رد عالبابا اذا بتدعس بيتنا بدي قوصك » . البابا نسي الموضوع وراح بعد يومين يستعير شريط تسجيل ، شاف كاظم بيوقف بوجهه ويقول : « ما قلتلك ما تدعس بيتنا فكر البابا انو كاظم عم يمزح ، بس كاظم سد الباب . قاله البابا زيح يا خالي زيح ودخل . ركض كاظم وجاب الفرد وقوص عالبابا ، والحمد لله الرصاصه اجت بفخذه .

ماذا يحدث لو احمل شنطة سفري ، واخرج اللحظة ، أعود الى القاهرة ، ورأيت وجه اختي سعيداً بي ، عيناها على ملابسي ، ولم تستطع الا ان تقول : « يا الله شو صايرة حلوة » .

ـ من فين واخده جمالك من مامتك او من باباك ؟
ـ من الاثنين ، « بينما قلت في قلبي من الله » .
ـ تروحي معايا السينما ، وبعدين ستريو الهرم ؟
ـ اى . اى .

تكمل اختي : « البابا والماما راح يموتوني ، البابا عم يجهل عن جديد اول مبارح جاب صورة مرا بالزلط ، مثل ما خلقها ربنا ، وقف عالتخت وصار يشيل كل صف الصور اللي بعلمك منها ، وحط صورة المرا المزلطة . وعينك تشوف امك ، صارت تبكي وتنتف بشعرها ، غارت من المرا وصارت تقول له عم تجهل ، وعم تحب علي ، وكرمال اولادك شيل هالوساخة . زعل ابوك ، ومثل العادة ضربها وسحب تخته من عندها ، وحطه باودة الدار. البابا عم يجهل عن صحيح . اشترى كولونيا ، وبروح كل خمس دقائق بيفرك اديه . وبيحلق مرتين ، ووصى ابو سليمان حتى يجيب له قمصان من الكويت خمس الاف وخمسمية حرير ، وصار يدخن لكي ستريك ، واشترى مسجل ، وصار كل ما سمع حدا عنده شريط يروح يستعيره ، ولو بتشوفي المقص والمشط اللي اشتراهم مشان شواربه وسوالفه .

ـ بتحبيني صحيح وأنا بعمر باباك ؟
ـ ما بعرف ؟
ـ هو صحيح من عمري ؟
ما بعرف ؟

لو انتظر ذهاب عمي نجيب ، واخلع حذائي امسكه بيدي ، وشنطة يدي في كتفي ، واترك حقيبة سفري ، هل فرح اختي بكل ما فيها من ملابس يسامح هروبي ؟

« حرام جواد عمره ثمانتعش ، وبعد ثمانتعشر سنة في الحبس بيصير

عمره ست وثلاثين سنة . وبعدين قال بدهم يسفروه احسن ما عايلـة نديم تاخذ بالتار وتقتله ، يعني ما لح نشوفه كل حياتنا » .

يا مهى ، كلك حلى ، انا بشدّك من جدولتك لاني بحب العب معك .

ـ روح من وشي يا جواد ، واحد وحش ، ازعر .

ـ بالاسم يا مهى اولاد عم بتشوفيني حد المدرسة ، بتعملي حالك ما بتعرفيني ، ولو ؟

ـ فلّ عني . معك صبيان زعران وعم تدخنوا سيكارة كمان .

تدنو اختي مني وتقول : « لـو بتشـوفي ، من اسبـوع كان عرس ابتهاج . وكل العايله عم تمزح وتغني وتفقش الا الماما . زعلت من البابا مثل العادة على الايشارب . قال لهـا : « بحـرق دينـك ، ودين اللي جابك ، في حدا غريب ؟؟ اخوتي وصـاروا اخوتـك ، واولادهـم . أولادك » . بي شو ضحكنا ، والكل قال انو البابا سكران لانو صار بده يشيل الايشارب عن رأسها بالقوة وهي تشد عليه ، بعدين لما عضـت اصبعه ، جن جنونه وصار يصرخ وقال لها : « لو مالعالم بس ، لكان سمع صريخك نبينا محمد » . تدخل علي عيسى وقال له : « اترك النبي محمد ، انت سكران » ، وكانـو لح يتضاربـوا بعـد شوي . اوف على هالعايله ، علي عيسى حطنا مرة وصار يوصف شكل الشيطـان . قال عيونه صفر طوال ، ووجهه طويل واذناه طوال وبيمشي مثل المحردب . وهو عم يوصينا نسمي باسم الله لما نشوف واحد مثلو ، سمّت زينات وهي تضحك ، ودلت عليه « تطلعنا عليه وكان معها حق ، علي عيسى وجهه أصفر ، وجهه طويل ، وعنده حردبة» .

ـ بدي سافر هلق . هلق

ـ لازم اشتقت لباباك ومامتك ، يا ترى بحبوك زيي أو أكثر ؟

ـ لح اكتبلك .

ـ مش باين . العيلة حتتلف عليكي باه . الكل حيفرمك حتت ، انا عارف مش لح تفتكريني ومش حتكتبي كلمة واحدة . لازم اولاد العايلة يتجننو عليك ، اولاد بالمصري يعني شباب ، يعني رجاله .

أطفأت النور . تمددت في سريري البارد ، بعد ان رفعت عنه كوم الملابس ووضعتها على الكرسي ، لبثت صامتة مع أن أختي قالت ان النوم فارقها . ماذا يفعل الان . هل يتأمل النيل ، والجامع الابيض ، هل دعى امرأة من اللواتي يلاحقنه الى شقته ، هل قلب كل صوري . هل هو في ناد ليلي ، قبته منشاة ، طقمه مكوي ، شعره مسرح ، كولونيا كارون للرجال تعبق منه . يمسك السكين والشوكة يقطع ستيك اللحمة بهدوء وثقة كأنه امير يأكل ، كأنه لا يمضغ ، يبقى فمه مشدوداً . عندما تأملته يأكل للمره الاولى لم اصدق . الرجال في عائلتي يأكلون بالايدي والاسنان والالسنة . كلما احدثوا اصواتاً وهم يأكلون ظنوا انهم اشد قوة حتى اني سمعتهم مرة يتباهون ويتنافسون بعدد وبارتفاع صوت ضراطهم .

هو السبب . دائماً يسألني اذا كتبت لاهلي . اذا هم كتبوا لي . لا اعرف ، كيف زاح هو صورة والدي الاصلية ووضع مكانها صوره الوالد المتعلم ، المشتاق ، الذي يفهم باقل شاردة وواردة حتى صدقت الصورة الجديدة . لما قلت له مرة اني احب لون قميصه ، اجاب :

« يمكن باباك عنده زي قميصي بالضبط » . لما اطرى ذوقي على ملابسي ، وتسريحة شعري ورائحتي المنعشة قال : « لازم مامتك علمتك الحاجات ده » . ولما اعجبته بلوزة صينية مطرزة ، اشتريتها من مريم الدلالة ، التي تبيع بضاعة مستعملة في البيوت قال متأكدا : « لازم مامتك ، اختارت البلوزة الحلوة ده » . وصدقته واشتقت فجأة لامي .

قالت اختي بلهفة تكمل حديثها : « نسيت قللك ، بكره البابا بدو يعمل عيد رأس السنة بالبيت ، بدو يعزم العايلة كلها . حتى ابن عمه مصطفى الشمّة ، قال انو تاب وبطل يشم كوكايين ، قال اخذه ابوه لعند حكيم عربي ، قصو لو شريانو وخللوا الدم المخلوط بالكوكايين ينزف لحتى مصطفى الشمة غاب عن الوعي ، وبعدين كوى الحكيم الجرح ، ورمى على وجهه مي ، ومن وقتها مصطفى الشمة ما عاد يشم ، قال البابا « بدو يغيرلو اسمه بحفلة بكرة . بدنا نزين البيت بالبالونات وبالورق . امك رح تعمل تبولة وفخاذ غنم . والباقي كل واحد بيطبخ طبخة ويجيبها مثل الاجانب » : لو اسافر صباح الغد ، اقطع تذكرة لاختي واخذها معي . حالما نصل القاهرة آخذها الى صالون الحلاقة ، اعيرها ملابسي ،نسهر في الباخرة اوزيس ، اضع يدها على قلبي لتسمعه يضرب بعنف وانا ارى انوار الباخرة فوق النيل ، فوق خشب الباركيه . اعرّفها عليه . ربما ستشهق في اللحظة الاولى من كبر سنه . لكن لما تسمعه يتكلم ستحبه .

صباح الغد ، انا واختي نقص الورق الملون ، اصعد على السلم الخشبي بينما اختي تمسكه جيداً . اعلق البالونات الملونة . الصق القطن

على زجاج النوافذ . ارى والدي في بيجامته المخططة يعرج ويستقبل بعض اهالي الحي . يبيعهم الملابس القطنية وخيطان د . م . س . الملونة . ارى امي والايشارب يغطي شعرها حتى في المطبخ تفرم البقدونس .

ـ « ليه عايزة تروحي عيد رأس السنة بيروت لازم في حد حتسهري واياه . لاول مرة من ثماني عشر سنة كنت حسهر من غير مراتي وانت عايزة تروحي بيروت . معليش عقبال السنة الجاية تكوني في حضني » .

لما ارتديت فستاني الابيض ، واخذت اسرح شعري . اسرعت امي تدخل الغرفة وتهز كتفي بخوف : « الحقي ، يا مهى ، طلع حليب النَوَرْ على راس أبوك ، عمك زهير جاب روزيت ، وقال ابوك بدو يطرده ويطردها . » اسرعت خلفها ، ووجدت والدي يقف وينظر شزرا لاخيه زهير وروزيت بينما عمي زهير فهم الحكاية وتشاغل بتوليع سيكارة . لما رآني فرح وانتهز الفرصة لترطيب الجو وقال بصوت عال : « الحمد لله عالسلامة يا عمو ، بقولو انك الاولى بكل جامعات مصر مظبوط ؟ » التفت ابحث عن روزيت اسلم عليها ، فاجأني جمالها هذه المرة . اصبحت افهم بالجمال . كانت كالعادة تخفي شعرها وجزء كبير من استدارة وجهها الابيض بالغطاء الاسود التي وضعته ما ان تزوجت عمي بعد ان التقاها في بيت الدعارة . كان عمي متزوجاً من عفيفة ولا يزال ، صار يقضي ليلة ونصف عندها والليلة والنصف التي تليها عند روزيت . سمعت عمي زهير يقول لوالدي بلا مبالاة : « الليلة صادفت ليلتها ، وانا انسان حقاوي ، وهي ام اولادي كمان وصارت منكم وفيكم ، اعمل مثل ما بدك ، بلط البحر » . قال والدي في شبه

اقتناع : « كلامك على الرأس والعين ، بس ما يجوز بحق عفيفة ، بكره بتقول عزمنا روزيت وما عزمناها » .

لمحت مصطفى الشمة ، لم يعد يشم ، يجلس وحركات وجهه العصبية تحرك حاجبيه ، انفه وفمه . فكرت بالاسم الجديد الذي سوف يلقبه به ابي ولم استطع التكهن بواحد . ينتفض فوزي ابن سرحان ما ان يراني ويقول لي بسرعة : « دخيلك يا مهى ، بدنا عروس مصرية ، اللي بدها ياه ، موافق ، صار عندي مزرعة دجاج ، بسكنها باحسن بناية . بدي واحدة بتشبه الممثلة ماجدة » . لم أساله ما حلّ بزوجته مريم ، اختي اخبرتني البارحة ان مريم سراقة تسرق من الجيران ، اي شيء حتى البيض الذي يبيعه لهم زوجها .

وضعت الفرشاة جانباً ، وتركت شعري كما هو فوق ظهري . وسألت نفسي لماذا انا في كامل زينتي بين مصطفى الشمة ، وروزيت الملثمة . وفوزي ورائحة الدجاج تعبق منه ، وبين اعمامي .

درت بصحون الفستق وبالبزر على الجالسين ، والذي يضع شريط « السح الدح امبوه » ، « وما اشربش الشاي اشرب قازوزة أنا » . كل كاس عرق يصبه ، يجرع كاساً قبالته . والساعة لا تزال التاسعة وهو يتلوى يضحك ويرقص . يجلس عمي زهير بجانبه يحدثني عن اولاده من عفيفة وروزيت واحداً ، واحداً . يسأل رايي عن الذي يجب ارساله الى الخارج حتى يتعلم هندسة طيران . لاحظت انه كلما مد يده الى الطاولة ليتناول الفستق نظر نظرة جانبية كأنه ينظر الى صدري . وعدت استبعد الفكرة ، هذا عمي زهير . لما تكررت نظراته . حانت مني التفاتة الى صدري ورأيت الزر مفكوكاً وقد بان معظمه . ارتجفت لم اعد

اسيطر على الدماء التي تفجرت في راسي ووجهي . واسرعت أغمز اختي . وما ان تبعتني الى غرفتنا حتى سألتها عن رأيها في تصرف عمي ، قالت بحذر : « يمكن هو خجلان يلفت نظرك » . صحت بها : « ولو يخجل يقول يا عمو زر فستانك مفكوك ، وما بيخجل يعمل حاله عم ياكل فستق ، صار يمد ايده على الطاولة كل تكة حتى يتطلع بصدري . هلق بدي روح عمصر هلق » .

عدت الى الدار . والدي يمسك الطرابيش الملونة . يلبس كل واحد طربوشاً . لما وصل الى روزيت اكتفى برميه لها . وصل الى امي . لما تشبثت في الايشارب صرخ : « يلعن ابو اللي جابك . هالسنة رايحة ، وانت ممسكة بالايشارب ، والله بدك تلبسي طربوش ان قلت اي وان قلت لا » . قالت امي تداري خجلها : « اى راح البس الطربوش » ، ووضعته فوق الايشارب . « لا لا اجابها وهو يريح قدمه فوق كرسيها . لازم تشيلي الايشارب . ايشارب وطربوش ما بجوز . كمان الطربوش بخبي شعرك ولا يهمك بعدك بتفوتي الجنة » ، واخذ يشد الايشارب . وهو يصيح : « بدك تقبريني وتكبريني وانا بعز شبابي » . كأني لمحت امي ودمعة توشك ان تهبط على خدها . اقتربت منها ، عدت ابتعد من حدة صرخته : « بتعضي يا كلبة ، والله ما بكون اسمي عزت اذا ما بسّمِع الناس صوتك » . هجم اخوه زهير يمسكه ويبعده ، حتى يتسنى لامي الهرب الى غرفتها . ادخل عليها واراها تبكي ، والطربوش لا يزال فوق رأسها .

لا اعرف كيف وصلت الى جانب عمي نجيب . كنت قبل برهة في غرفة امي ، اراقبها تبكي ، انظر الى الجدار ، حيث فكر والدي ان

يعلق صورة المرأة العارية ولم ترضى . ظبطت لساني وهو يحاول سؤالها عن الصورة . اسمعها تبكي ، هل اسحبها معي الى مصر . وتخيلتها تدير وجهها عن رجلي . لا تصافح يده الممدودة . تصاب بالغثيان كعادتها اذا ركبت السيارة . اذا اخذتها لترى الهرم لن ترى الا الحجارة واقدام الجمال . لن تأكل امامه . ولا امام احد . لن ترضى ان تذهب الى مطعم .

اسمعها تبكي . لما استدرت أقول لها : «تعي تعي على مصر» سألتني والدموع على عينيها : « ليش طالبين اهلكم معكم ؟ » لم اجبها . اقتربت اقبل طربوشها .

عندما خلع عمي نجيب جاكيته ، رأيت مسدساً عند وسطه ، كلما تنفس اوضحك ، اهتز المسدس .

رجال عائلتي لا يتبدلون ، وعيت عليهم وهم يصرخون اذا تكلموا ، يتشردقون اذا هم ضحكوا . يدقون رؤوسهم بالجدران اذا بكوا ، يخرطشون مسدساتهم على اولادهم ، على زوجاتهم وعلى الناس . يتحدثون بعنفوان . عن العائلة وكيف يجب ان يكون رجالها . لم تمضِ سنة ولم نسمع ان احد افرادها دخل السجن ، او كان على وشك ان يدخله . لم يمضِ عيد الا وكان مناسبة للصلحة بين واحد وآخر .

فكرت ان أسأل امي كيف تطيقهم وتطيق هذا العنف . رغم عنف والدي الكاذب ، كان نوعاً ما يختلف عنهم ربما كان يضايقها . هذا . مع انه لم يكن يشبههم بالشكل . اجسامهم ضخمة . وجوههم متوردة ، تكاد الشرايين تنفر من الجلد . كل منهم جعل ظفر اصبعه

الصغير طويلاً . حتى اذا فكروا بشيء حكوا سوالفهم واذانهم بهذا الظفر . اختلاف والدي عنهم بدرجات لم يغير شيئاً . فهم دائماً في بيتنا . يتدخلون في كل صغيرة وكبيرة . تداولوا في امر سفري الى القاهرة طيلة عام ، ولم يوافقوا رغم ان والدي اخرجهم من بيتنا بالقوة وقال لهم : « خلص ، البنت رايحة ، على مصر . لانها اخذت منحة من الحكومة وانتم غيرانين » . اعترض عمي زهير قائلاً : « انه يستطيع ان يوقف الطائرة » . لكن ، بعد ايامجاؤ وا كلهم وباركوا ذهابي.علمت ان عمي نجيب استشار رئيسه في الأمن العام ، واكتفى الآخر بهز رأسه قائلاً برافو . يقول لي عمي نجيب : « ان ابنه كالزعيم في حبس الرمل ، يسيطر على الجميع ، وهو لا بد أصغرهم سناً . قال ان عنده امتيازات : يشتري سكائر يستحم مرتين ، عنده بطانية زيادة ، ويستطيع أن يأكل من أكل البيت كل يوم ، بس المواصلات صعبة » . حاولت أن أقول له لازم تعملولو واسطة . تصغرولو عمره. حرام مستقبله يروح. وكنت أعرف الجواب : « الحبس للرجال » . فجأة أسر عمي نجيب في أذني قائلاً : « روحي يا عمو ، غيري فستانك ، أنا عمك وهيجتيني » . وغصت في الكرسي .

في القاهرة . في الاسكندرية ، في الفيوم . عندما ابحلق في السقف . قبل ان انام وعندما استيقظ كل صباح . افكر كيف من السقوف تختلف بالوانها وطبيعة ملمسها . فتعكس نفسيتي . وكيف أن احاسيسي تختلف من بحلقتي في سقف واخر . افكر اني سعيدة في علاقتي معه . سعيدة في المطعم والنادي وفي الجنائن . لكن ، ووجهي يكاد يلامس صفحة مياه النيل ، ارى اختي وامي ووالدي في البيجامة المخططة . لا اعود اشم الا رائحة بيتنا ، ولا اسمع الا صراخ اعمامي ،

ووالدي يصب لهم العرق وهو يرقص ، ولا ارى الا اختي وامي في تلك البئر التي تعج بالغيلان، تحاولان الطوفان على سطح هذه البئر . لما لا اكل ولا ابتسم ، ولا ارقص ، ولا اتكلم ، لما اسمعه يقول بحنان : « عايزة تروحي بيروت ؟ » اغوص في الكرسي وابكي .

عبد الحليم حافظ

الهواء القارس يلسع الوجه والرقبة والكفين . أشعر بصعوبة في التنفس من كثرة ما التففت بملابس صوفية ، وغلفّت نفسي بمعطف سماكته تفوق وزني . وقفت أنتظر الاوتوبيس ، مع أن النقود النائمة في محفظتي تجعلني أستقل طائرة .

لا اتحرك ، لا أتنفس ، تماماً كصف الواقفين أمامي . أفكر اذا كان انتظاري للاوتوبيس عدوى نقلها الانكليز باللاوعي الى كل من يعيش في بلادهم خاصة النساء . اولانه من الاهداف القليلة التي اخترعتها في بحر الفراغ . لما درست أرقام الاوتوبيس الاحمر والى أي جهة من لندن يوصلني كل رقم . كأني اكتشف الاسرار الدفينة . لما ركبته وأوصلني بسهولة الى الجهة التي أريدها شعرت بالسعادة . حتى أصبح الاكتفاء الذاتي لا يصلني كل صباح الا اذا رأيت الاوتوبيس الاحمر ، ومن بعيد ، تبينت الرقم الذي أريده . يدق قلبي في اللحظة التي تدق قلوب كل من ينتظر . نصعده ، كل منا يتنفس بامتنان شاعراً للحظة بأنه يملك الدنيا ، وبأنه حقق نصف هدفه لهذا اليوم .

لكن انتظار الاوتوبيس يتحول الى معاندة والى تحدي وحزن وضياع أيضاً . كلما تأخر ، ومرت الاوتوبيسات تحمل أرقاماً لا يريدها أحد من

الواقفين ، تمر نصف فارغة تستعطي الراكبين ولا يركبها أحـد . وأنـا أقف ، يهطل المطر ، وأظل واقفة ، لا أتزحزح كصف الانتظار . ولما يطل أخيراً ونرى قاطع التذاكر يسد عتبته ، يشير بيديه بمـا معنـاه أن الاوتوبيس مزدحم ، ويستأنف الاوتوبيس سيره دون أن يتوقف ، ومعه تمارقنا قلوبنا للحظة ، وعيوننا تتشبث بالرقم الاليف ، وأقسم لنفسي منرفرة أني سأنتظر التالي مهما تأخر ، مهما تأخرت ، رغم ان زوجـي حاول اقلاعي عن عادة انتظار الاوتوبيس بقوله أنني يجب أن أشتـري الوقت . هذا صحيح لأن زوجـي في سبـاق مع الوقـت والزمـن . بينما وصول الاوتوبيس المطلوب عند المحطـة وركوبـه غبطـة عظيمـة لي . بالاضافة الى انه هدف أصل اليه بفرح حقيقي رغم ضآلته، يشبه فرحي عندما اكتشفت اضلاع السلـق ، وجبنـة الحلـوم المكبوسـة ، وأكياس البرغل ومرطبان الدبس في دكان البائع اليوناني . عدا أني كنت أحب ان يكون مصيري والواقفين من الانكليز واحـد . تفكيرنـا واحـد ، ترقبنا واحد. الاوتوبيس الأحمر . ربما كان هذا الشيء الوحيد الـذي يجمعني بهم ولا أشعر بالغربة للحظات معدودة .

تأخر الاوتوبيس اليوم . لذلك فكرت بكل ما قلته الان ، لم يطل أي واحد . ولا حتى من يحمل أرقاماً اخرى . نسمع طلقات مدافع ، نتذكر كلنا فجأة أن الرئيس الفرنسي يزور المملكة اليوم . احد المنتظرين يقول انه ربما لن يمر الاوتوبيس قبل ساعات .

لما ضغطـت على نفسي وقـررت استقـلال سيارة اجـرة ، لم تمـر واحدة . ظللت واقفة والبرد القارس يلسع وجهي ورقبتـي وكفـي من جديد . اسمع حواراً بين رجلين من مصر .

ـ أرجوك ، ليلة واحدة !

ـ مش ممكن !

- ياه ليلة واحدة يا راجل أتهنّى فيها بس ! وحياتي عندك !

ـ الله ! بقولك مش ممكن . مستحيل .

التفت اليهما . كان البرد قد حول شفاههما الى لون الكوبيا ، وشعرهم المجعد وقف يحارب زخات المطر حتى لا تصل رأسيهما ، احدهما ينفخ كفيه بينما الاخر يشد على شنطة رفيعة تحت ابطه .

يقطع احدهما الصمت :

- انت زعلت واللا ايه ؟

ـ لا ، ما فيش ، بس أنا والنبي ما شفتش حد زيّك ، بقولك ليله واحدة بس ؟

- قلتلك قبل كده . مش ممكن ، ازاي تبقى وياك ، وأنا . . ؟

ـ وحياتي عندك ، ليلة واحدة ، أتمتع بيها . بوعدك ، مش حلمسها ؟ بس حبصّلها .

شعرت بالخجل فجأة . لم اعد التفت اليهما ، لما تقدم الاوتوبيس يحمل الرقم 73 ، تنفس الفرح كل من يقف في الصف ، عدا واحد من المصريين الذي تنفس الضيق . صعدت وجلست ملاصقة للشباك ، بينما جلس المصريان أمامي .

ـ خلاص ، والنبي وأنا مش سائلك عن أي حاجة بعد النهارده .

ـ بس طلبك غير معقول يا راجل ، انا وانت في لندن يا راجل مش بمصر . صعب الاقي زيّها .

ـ بس دانا حلفتلك بالنبي ، بأمي ، هي حتنام عندي ليلة واحدة ، ومن بكرة الصبح حتكون عندك !

حدت الى النافذة . لاراها تمطر أكثر ، والضباب يصل الارض . لما سمعت الرجل يقول وهو يمد يده الى الشنطة : « خلاص خدها يا أخي » . دهشت وحشرت وجهي بفضول شديد ، رأيته يخرج من ظرف صورة كبيرة بالالوان لعبد الحليم حافظ الذي توفى البارحة .

جون برونز

خذني بين ذراعيك

التفت الى البنت الجميلة قبل دخولي البار وقلت لها : « دقيقة واحدة » . دخان السكائر غلف المكان والوجوه الغامقة بشاش رمادي ، وترك العيون السوداء ثاقبة تتحرك كلها في تجاهي . حاولت العدول عن الفكرة لما تخيلتها تدخل بين الطاولات والأجسام هذه ، لكن الساقي العجوز عبده تقدم مني قائلاً : « اهلا ، اهلا باستاذ منعم ، من زمان » . مددت يدي اصافحه واهمس باذنه : معاي قريبتي ، وعايزين نشرب كاس ممكن ؟ نظر الي عبده بمكر مردداً : « يعني ؟ » فهمت من حركة رأسه ما يقصد واجبته ضاحكاً : « لا والنبي ، ابداً » رافقني الى الباب وهو يقول : وماله ، اهلا وسهلا من زمان يا راجل ، دانا اعرفك وانت في البنطلون القصير بتفتش على جوز الحمام الابيض والاسود فاكر ؟ » طبعا . طبعا . فتحت الباب ولما رأيت البنت الجميلة قد استندت على عامود كهرباء فرحت . دخلنا البار وعرفت ان بياض العيون السوداء تنقض عليها ، وفكرت بان معظم الرجال راودتهم حالة هياج هذه اللحظة . ووجدتني اختار طاولة في ركن ، وانا اقرب لها الكرسي لامست يدى شعرها المالس الكستنائي . جلست كانها مخدرة . عيناها الخضراوتان الكبيرتان نعستان . مدت يدها تسند ذقنها ووجنتها . قبل ان نأتي هذا البار كنا في مطعم السمك اليوناني في شارع

عدلي باشا . وهي ما اكلت ولا شربت ، مع انها وقفت امام حوض الاسماك الصغير تختار سمكة ، وتنقر الزجاج ولا تبتسم عندما يدور السمك حول نفسه خائفاً . ثم جلست تتأمل المطعم ، تنظر الى نفسها في المرآة قبالتها ، وترمي شعرها الى الوراء وتعود تتأمل نفسها وتعود بنظرها الى الطاولة وتضع يدها على خدها . ما اكلت ، لكنها قصت السمكة وكأنها طبيب تشريح . اخذت تضع القطع في صحني وتراقبني وانا آكل ، تفتح شنطة يدها وكانت من بلاستيك ابيض جامد ، تظهر كل ما في داخلها ، نقود ، قلم كحل . واوراق وبطاقات واحمر شفاه . اعادت الشنطة تضعها على الطاولة دون ان تأخذ منها شيئاً . التفتت الي مبتسمة سائلة اين الساقي الذي حدثتها عنه . هذا المساء ونحن في بيت سمر ، كانت في حالة كآبة وحزن شديدين ، وما اقتنعت بمرافقتي الا عندما حدثتها عن طرافة الساقي حسنين في المطعم اليوناني وعن خمارة العمال والبوابين والطباخين في شارع شريف . ناديت « يا حسنين » جاءني احدهم يقول لي ان حسنين يتناول العشاء . لاحت على وجهها خيبة امل سرعان ما انقشعت عندما أضاف الرجل « ثانية ويجي عندكم ، حاضر » . وجلست تنتظره كالنمرة الرابضة ، لما جاء حسنين ونهضت اصافحه ورد تحيتي ووضع يده على صدره احتراماً . نظرت الي وكأنها تلومني ، توبخني ، بدا حسنين ساقياً عادياً لا يمت الى الذي تحدثت عنه بصلة ، أخذت اسأله عن العمل ، عن الزبائن ، حتى عن الأسماك وهو يرد باجابات موزونة ،طبيعية . نظرت اليها كأني احاول الدفاع عن نفسي . لما قال حسنين « عايز اي خدمة يا بيه » . وجدتني اجيبه في حرج : « لا ، سلامتك » . وما تكلمت ، بل عادت الى وضعها السابق . يدها على خدها . شعرها الطويل مبعد عن وجهها .

عيناها مخدرتان . قلت في نفسي يجب ان أبدأ الحديث معها . انما حديث خاص . لانها يبدو انها خاصة كما عرفت عنها من سمر وفكرت وانا اسمع ان في الحديث مبالغة . نزقة لدرجة ما تصورتها موجودة عند احد . منذ أن جاءت القاهرة وشلة سمر في العمل وفي البيت تتحدث عنها . ماذا قالت وماذا ارتدت وماذا تريد ، وماذا يعجبها ، لدرجة اني لما قابلتها حرت ولزمت الصمت . طبعاً اعرف انها كانت تحب شخصية ، سياسية مهمة اثناء دراستها واقامتها في القاهرة ، وأنه كان يحبها لدرجة انه اراد الطلاق من زوجته بعد عشرين سنة . قصة حبها هذه عرفتها القاهرة . تسمع اسمه كلما سارت مع صديقتها . ترى من يشير عليها . مديرة الكلية نادتها اكثر من مرة ، تحدق في وجهها علها ترى دلائل على الكلام الذي تسمعه حتى تطردها من المدرسة وما كانت ترى الا وجهاً ملائكياً ، والبنات يتصنعن المزاح معها يرفعن فستانها . . يرين كلسونها القطني الابيض كالبنات الصغيرات بدلاً من الدنتيل الاسود . وكانت تبتسم لهن ببراءة وهن يلمن انفسهن على الظنّ بها . وكانت تحبه .

عندما انتهيت من الاكل غير عابيء ولاول مرة بتأففها خاصة ان السمكة الشهية لا تزال رائحة البحر فيها والنار قد اضافت عليها نكهة خاصة لا يتقنها الا هذا المطعم اليوناني الذي ما بقي من يونانيته الا الكتابة اليونانية عن الصور الملونة المعلقة على الجدران وعلى زجاجات الكونياك . جاء الساقي حسنين بثوبه الابيض وعمامته يلم الصحون ويحملها ثم يعود ويضع على الطاولة منديلين معطرين موضوعين في علبتين من الالمنيوم ، على كل واحدة صورة لفتاة عارية . نظرت اليه قائلاً : « ده صورة مين ؟ تعرفها ؟ هزّ حسنين رأسه في هلع وقال : « لا

والنبي يا باشا ، دول نشتريهم ، والست ده دايما قاعدة كدة » . ارتحت . ده حسنين صحيح . قلت وانا اتصنع الجدّية : « لازم انت تعرفها . هي فين جوّه ؟ » غضب حسنين ، كأن الشرر سكن وجهه وصاح : « الله يا استاذ ، معندناش من الحاجات ده . نحنا ناس طيبين . دول ورق ، عشان ريحة السمك » . كنت اعرف ان الفتاة الجميلة سعيدة بما يجري . اسمع ضحكتها ، لذلك اخذت ازيد من مزاحي وقلت : « ضروري انت عارفها ، هي باين صاحبتك ومش عايز تقول : معك حق » . وضع حسنين يده على جبهته ثم نظر الى السقف مادا يديه قائلاً : « اعمل ايه يا رب » . ثم نظر الي والى الفتاة الجميلة يوجه لها الحديث : « والنبي تفهّميه ده انا متجوز ، وعندي عيال ، وبعدين ازاي اتكلم مع ست زيّ ده ، وانا ما اعرفش اتكلم زي الخواجات . » . ثم نظر الى المرأة العارية وقال وهو يخفي وجهه بين يديه « العوذ بالله » . كانت تجلس على وسادة وتضع يدها على شعرها واليد الاخرى على خصرها وقد بان صدرها وبطنها وجزء من مؤخرتها . قلت وانا اتصنع الرضى : « معلش يا حسنين الله كريم » .

انظر حولي ، العيون السوداء في البار ، او في الخمّارة اسمها الحقيقي ، على الوجه الجميل . عيناها تدوران تتأملان المكان الذي كأنه ممر مسقوف . على ارضه رش التبن ليبعد الذباب . الطاولات من بلاط وركيزتها من حديد . بائعو الكعك بسمسم ، والبيض المسلوق والبطاطا الحلوة يتوافدون ويتوقفون عند طاولتنا كلهم يريدون النظر والتأكد من ان الجالسة هي انس لا جن . في تاريخ هذا البار ما دخلت اليه سوى امرأتين ومعي . الاولى كانت صائدة رجال التقيتها قرب الاميركين وفكرت بان نسكر قبل ان تأخذني الى غرفتها . بعد الكأس

الثالثة . رأيت امامي البوليس يسألها عن رخصتها ولا يرضى البقشيش بل يأخذ كأس الشاي من يد الساقي عبده ويقول لنا : « يللا معاي . ويشير الي بيـده: « وانـت تقعد هنا » . كنت في حالة سكر شديدة ، ما عرفت من نادي البوليس . لكن الساقي عبده حلف بالعظيم وبالطلاق انه لا يعرف من نادى البوليس وأنه كان في الداخل يحضّر الطلبات عندما سمع صخـب وهمهمة عالية ولما خرج رأى معظـم الرجـال قد وقفـوا ينظرون الى المرأة » وكانت سكرانه موت ، لازم الكينا يا باشا . كانت بتلحس ودانك ، وايدها على . . » .

اشتريت بيض وكعك بسمسم اضعها امام البنت الجميلة ولدهشتي طلبت ان تشرب ما اشربه . خفت عليها ، همست لها بعد قليل نذهب حتة ثانية . لكنها أصرّت . وطلبت لها كينا بالبيرة . واخـذت تشرب الكأس الاولى والثانية وتضحك . تشير الي عن الذي يغمزها بحاجبيه . والذي يشير اليها بتحريك خدّه . والذي يفرك صدره . والذي يغمزها بعين واحدة والذي يرسل لها قبلة في الهواء والذي . . . وانا انظـر الى الوجوه ذاتها التي رأيتها وأراها . الوجوه السمراء الغامقـة ، الخطـوط التي تشطب كل من الوجوه النحيلة والممتلئة . الشفاه غليظـة وعـادية زرقاء غامقة وخشنة . العمامات البيضاء تغطي الرؤ وس ، والذي بلا عمامـة وقف شعـره المجعـد . اصـوات عالية ، تتكلـم السـودانية والصعيدية . بدا على اجسامهـم التعـب . يتجمعـون هنـا كل مسـاء لساعات ، يلتقون للسكر ام للسؤ ال عن بعضهم كأن الخمارة سفارة . من يطلب عملاً ، من يريد ارسال جوابـات ، من يريد ان يبـكي أو يضحك يأتي هنا .

وأنا أفكر بسعادة ان مشروب الكينا والبيرة امتدا في عروق نزقهـا

وجعلها تسترخي وجعل شعرها الطويل يصبح اكثر طولاً ويلامس كتفي ، وقدمها تلامس قدمي . عيناها تصافحانني كأنهما التقيا بي اللحظة . شفتاها تتحولان الى شفتين تبتسمان . حاولت أن أسألها ، عندما سمعت اسمي ، والتفت وصحت : « جون برونز » اقترب جون برونز يعانقني ويسألني عن الغيبة واذا أصبحت أروح الميريديان بدل الخمارات . وقبل ان ادعوه لمشاركتنا تناول كرسي وجلس ملتفتا الى البنت الجميلة معرفا نفسه بأدب مصطنع : « زكي عبد الرزاق » ابتسمت له ، احتل جون برونز الكلام والطاولة والكؤوس واخذ يتلو قصصاً سمعتها مئات المرات وكل مرة اجد نفسي اصغي باهتمام لكل كلمة ، اشارة ، الا هذه المرة . كنت أتأملها واتمنى لو اقبلها بحماوة بعد ان شعرت برغبة لاضمها الى صدري واربت كتفها عندما رفست باب سمر هذا المساء ودخلت محمّرة العينين تمسح انفها في يدها وتجلس منتظرة من سمر كلمة « مالكِ » حتى تنفجر في البكاء . وكانت سمر دعتني للتعرف بالبنت الجميلة لاريها القاهرة الاخرى في الليل . التي لا يعرفها زوج سمر . بل ابتدأ الحديث عن البنت الجميلة عندما كنت اخبر سمر قصص الساقي حسنين والخمارات وهي تقاطعني بلهفة . « لازم ، لازم لينا تسمعك ، لازم لما تجي القاهرة تأخذها وتفرجها » .

انظر الى وجهها لارى اذا آثار البكاء لا تزال حول العينين ، لكنها اعطتني نصفه . تصغي باهتمام تام الى جون برونز الذي وصل في قصصه عندما احب سعاد واخذها الى فللا الهرم ليبقيا هناك ثلاثة أشهر دون أن يغادراها . عند المغرب فرشت سعاد على أرض الجنينة بساط وعمّرت له الشيشة ، وكانت الياسمينة قد خدّرت كل شيء في الحديقة حتى الطيور ، وسعاد تقطف ياسمين وتفركه باصابعها ، رأيا خطا كخط

النمل الاسود يقترب منها . الخط كان رجال ونساء واطفال بلدة سعاد . جاؤا من الصعيد واخذوها . قاطعته البنت الجميلة بتأثر « لكن هي زوجتك ؟ » وما أجابها بل قال : ومن بعديها رهنت الفلا ، ما كنتش قادر أبص فيها ، كانت سعاد في كل حتة . في المرايا والسرير والدولاب حتى الجاكتة البيضا ما عدتش البسها ، لما تعرفت بسعاد كنت البس جاكتة بيضا واعمل شعري زي كازانوفا بالضبط وادهن جزمتي بيضا ولما خش باب البار اخبط على صدري وأصيح : « جون برونز » وكل الهوانم والارتيستات القاعدين على كراسي البار ، وعلى شعر كل واحدة الريش والغاردينيا يزعقولي : « كاي ، كاي » واسأل ازيكن ؟ ويقولو : « فاين لاين » . صرت اشتغل بالبار ولما خسرت اموالي كلها ، وقاطعته البنت الجميلة لكنه اكمل مستطرداً : « كنت اجلس في المكتب والطاولة واسعة وامسك الجورنال واقرأ فيه صفحة التسلية حتى اعرف مين بيرقص في كل كازينو . مين بيغني ، مين الفرق الاجنبية ، والمحلية ، حتى كون عارف بيجري أيه في كل حتة ، لما يجي الليل ، غمّض عيني وقول ، دلوقت في الاوبرج الفرق الاجنبية بتعمل كده ودلوقت في شارع محمد علي الرقاصة بترقص ، وكنت اضحك على المنظرين . مرة خش المدير وقال لي : «بتقرأ جورنال؟» قلت : «طبعاً . امال الواحد يعمل ايه ؟ » وطردني ، بس هو ندم وجالي الفللا ومارضيتش ارجع . وصرت اشتغل بالبار والبس الجاكتة البيضا ، وحط على شعري البلكريم وادهن جزمتي وخش من الباب وخبّط على صدري وصيح : « جون برونز » والهوانم القاعدين عالبار يزعقوا : كاي كاي : ازيكم : « فاين ، لاين » . سألني جون برونز كأنه رآني الليلة وانت ما حدش يشوفك ليه؟ طلب كأس أخرى وهم بالدفع وانا

اعرف انه يتعمد وضع يده في جيب بنطلونه وان جيبه كالعادة فارغة . حلفت ان يقبل دعوتي للكأس الثانية . وقف جون برونز قائلاً : «انا كبست زيتون وليمون ، دقيقة ، انا بيتي قريب خالص » . سألتني البنت الجميلة وما اردت الايجاب . كنت مأخوذاً بفكرة شدها الي وتقبيلها . لا بد انها الكينا بالبيرة . عادت تسألني عن جون برونز ، اجبتها انه لا بد انه يتحدث بصدق والا لماذا يكرر القصص نفسها . شعرت وانا احدثها انها انس ، وانها قريبة مني وبأنه لا حواجز بيننا ، لا نزق ، ولا مزاج . سألتها لماذا كانت متضايقة ، تبكي . اجابتني ان فضولها اخذها لترى الرجل الذي احبته مدة طويلة قبل عشر سنوات . هناك واخذ الماضي يسترجع نفسه لحظة بلحظة ، تذكرت تصرفاته وكلامه وافكاره وما استطاعت ان تصدق انها قبلت بهذا كله . تضايقت من نفسها ثم منه لدرجة الكره ، ورأت نفسها تنظر الى سكين الفاكهة وتتمنى لو تغرزها فيه . وقبل ان ابلع ريقي غير مصدقاً ان هكذا وجه يحقد وهكذا فم يقول هكذا كلمات ، اطل جون برونز يحمل شيئاً ملفوفاً في جريدة . فتح الجريدة وضع على الطاولة صحن زيتون اخضر وليمون صغير ، ورغيف خبز اسمر . ورأيتها تمد اصابعها الى الزيتون تأكل الواحدة تلو الاخرى في شهية الجائع .

انظر الى جون برونز كأني اتعرف عليه اللحظة ، ارى شعره وقد ردّه الى الخلف ، شعر اسود يلمع ، لا بد انه يصبغه . حاجباه سودا وان لا فراغ في الوسط . عيناه واسعتان بؤبؤ كل منها المستدير يرقص في كل الاتجاهات . رموشه طويلة . يدبّل اجفانه حسب الكلمة . شارباه يتوقفا قبل ان يكملا خط الشفتين . هل هو في الخمسين ؟ ولا ارى تجاعيد على جبهته الواسعة العالية ، يضحك اسنانه بيضاء . نزلت الى

رقبته أيضاً ، لا ارى تجاعيد ، لكنها ليست رقبة شاب . لاحظت الكنزة البنية القديمة ، لكنه يجلس بفخر من يرتدي سترة ملك . لاحظت أيضاً أصابعه الطويلة النحيلة السمراء وهي تشد وتقطع ورقة لفة التواليت ، يشد بها على انفه وهو يقول : « والنبي دانا عيّان . كنت طالـع البيت بس قلبي قللي خش ومشي على الغلابة ، وبلاقي ايه ؟ ليلة القدر » . ونظر الى البنت الجميلة نظـرة طويلـة . ضحـكت وقلـت في نفسي : « اتسلى واضحك الليلة » . واخذت امسك دفة الحديث واخبرها عن جون برونز الدونجوان الخطير اخبار ربما قرأتها عن فتى الشاشة الاول انور وجدي وجون برونز تشجع عندما سألته البنـت الجميلـة اذا عاد ورأى سعاد . ما اجابها بل غنى : «أنا قلبي لك ميال، وما فيش غيرك عالبال » . مد يده الى قميصه تحت الكنزة وتناول من محفظته الجلـدية صورة فوتوغرافية لامرأة في العشرين من عمرها ، وضعها على الطاولة امسكتها البنت الجميلـة ومدتهـا لي ، قلبتهـا وقرأت «الى حبي الأول والاخـير زكي ، الامضــاء عواطف » . ضحــكت عالياً وسألتــه : « بشرفك يا برونز ، مش انت اللي كاتب السطور . ده صورة أختك او قريبتك » . قال وهو يضحك :«ده عواطف مجنناني عايزة تتجوز» . ثم دعانا في الغد الى فللا الهرم وما نسي انه قال لنا انه رهنها وباعها ، لكن هكذا هو جون برونز كلام اللحظة تمحوه اللحظة الأخرى . وأضاف : « انتو بتيجو بكرة وانا ادبحلكم ارانب من العزبة واعملـكم ملـوخية أرانب » .

نظرت اليها . كان عنقها طويلاً . كنزتها السـوداء مفتوحـة حتـى الكتفين يحيطها فرو رفيع . اكمامها طويلة تصل حتى رسغهـا وتظهـر اصابعها البيضاء . بنطلونها مزموم وواسع عند الخصر كسراويل حريم

هارون الرشيد . حلقها الطويل الكريستال يلمع كأنها بطلة من افلام العشرينات . سألتها وانا اغمز لها اذا كانت تستطيع تأجيل السفر من اجل زيارة جون برونز في الفللا ، ضحكت ورمت بشعرها الى الخلف وسألتني متى تعرفت بجون برونز ، منذ ان بدأت اعرف ايه السبيرتو الاحمر والكينا بالبيرة . ضحكت والتفتت الى جون برونز كأنها تعرفه من زمان وسألته ان يكمل لها حكاية سعاد . فرح جون برونز لاهتمامها . تنحنح وتكلم بلهجة من يكمل .

« كانت الشمس بتوقع وراء الهرم ، كانت حمراء زي الوردة اللي تفتحت كثير وعرفت نفسها حلوه قوي وحتموت وقالت كفاية كده . وريحة الياسمين والفل ملّت الجنينة وخشت المطبخ وسراير النوم . وزي العادة ، كانت سعاد بتستحم بمي باردة . لبست ملايتها بلاهدوم تحتانية عشان تغيظني ، وهي بتحط صينية الشاي أمامي وطبعاً انا بشوف وبنفخ الشيشة وبتّفضح ، تفس ما يريحش النفس الثاني . وبيقولها : « يا سعاد مانخش جوة يا حبيبتي ،وهي بترد بدلع : « لسة بدري يا زكريا» ، تجيب علبة السجائر الثانية اللي فيها الجنّة . والتفت جون برونز الي قائلاً : هي الست لينا تعرف ايه يعني سجائر الجنة ؟ وما سمع جوابي بل اكمل . « اصل سعاد كانت مزاج خالص ، واللي خلاها تصير مزاج هو طبعاً زكي . لما عرفتها كانت توقف عباب البار، مصعلكة ، رفيّعة ، زي الفكفوك . كنت بقولها : بت فوتي البار وقولي جون برونز جه ، عشان اللي نايمة تصحى ، واللي تصحى تمرّن صوتها . عشان لما بقول « جون برونز » ما حدش يكسفني وما يقولش كاي كاي . مرة ما شفتهاش عالباب . صار قلبي يدق . خفت انها تكون راحت مع حد . حسيت وقتها اني بحبها ، خشيت جوه وقالولي البنات

انها مستخبية ، خايفة عشان واحد من البلد شافها واقفة عالباب . مسكتها بذراعها وقلت لاستفان مدير الصالة ده البت بتاعتي» . سألته البنت الجميلة : « من كام سنة » اجابها جون برونز دون اي يفاجئه السؤال : عشر سنين زي كده « وقالت البنت الجميلة » : من عشر سنين كان في واحد يجبني بس كنت بشوفه ثلاث مرات في الاسبوع ، لازم اكلمه في التلفون من اي مكان انا فيه ، عشان يعرف انا وين وبتكلم مع مين ، كنت أنا وصاحبتي ، واقفين عند بوابة قصر البارون مثل دايما وصار موعد تلفوني . خفت ، وصرنا نركض ، وما لقينا تلفون ، لما لقينا تاكسي ارتحت ، صاحبتي قالتلي لازم يكون عندك تلفون نقال مثل عمال التلفون . كنت ممنوعة من الخروج بعد الساعة ستة ، الا اذا هو قدر يخرج من البيت ويأخذني شقته . لما قلت له عايزة شوف الهرم ، اخذني في السيارة ووقف بعيد . لما شفت ناس بيركبو خيل قلت له انا عايزة اركب خيل ، قال « لا بخاف توقعي » . ولما عرف انو بروح قصر البارون اتفرج عليه سألني ليه ؟ ما فش داعي . ولما قلت له عايزة شوف الحسين وخان الخليلي والغورية . اخذني خان الخليلي واشترى لي مصحف ذهبي فيه خرزة زرقاء واعادني الى السيارة . لما شفت مراكب في النيل وتنهدت قال : « جرائم كثيرة بتحصل . وانت اذا طلعت المركب لازم حيذبحك حد . . » بدت الفتاة الجميلة كانها تخبر جون برونز ، اذ عدد المرات التي نظرت اليه كثيرة . وهو ما جلس متردداً ، ماذا يقول مثلي . بل صاح : « راجل سافل صحيح . واحده زيك من عشر سنين بتكون ملاك ودلوقت انت رسوله . كان لازم ما يفارقيش ثانية واحدة ، ما يسبكيش لا في النهار ولا في الليل . لازم ما يرضاش يقلك في التلفون احسن ما يضيع الوقت عليه . وكان لازم يخلع بوابة

قصر البارون ويسكنك فيه عشان باين كنت بحبي القصر ده . هو فعلاً قصر غريب يسحر اللي يشوفوه ويخلليه يتساءل عن الزمن ، ومين كان ساكن فيه وكان بيعملوا ايه جوه ، معك حق ، كان لازم يفسحك في الليل هي مصر حلاوتها في الليل . يأخذك بمركب في النيل ، ويمشي بك على الكورنيش تقزقزو لب ، ويأخذك بلكون سميراميس وشبرد ويقول للعالم النعسانين بصّوا الفجر معاي . كان لازم يجيبلك حصان عربي اصيل شعر ذيله طول شعرك بالضبط ويخلليكي تسبقي الشمس قبل ما توقع وبعدين ترتاحو في ميناهوس ، تشوفي العصافير ازاي تاكل من ايدك . وكان لازم ، آه حاجات كثيرة » كان جون برونز يتكلم بانفعال كمحامي يدافع عن موكله ثم بدّل لهجته واخفض صوته وقال جملة ، وهو يدبّل عينيه . اضحك بصوت عال مما جعله يلتفت ناحيتي ويكتفي مؤكداً . دانا كنت ارقصها تانغو زي فالنتيو بالضبط . افرشلها منديلي عشان تنام على حجر الهرم وتبص عالقمر وتشوف النجوم قريبة ازاي . كنت احرس ايديك عشان النسيم ما يكنش قاسي ويجرح بياضهم . كنت سرقت لك مجوهرات الانتكخانة كلها ولبستك الخواتم اصبع اصبع . كنت خدتك مرسي مطروح وغنتلك : « الميه والهواء » وجبتلك فستان تفتا بمبي ، وشريطة لشعرك تفتا لونها احمر زي القلب . وكنت خذتك اسكندرية بالقطر ، وكلتلك مارون جلاسيه من عند جروبي . كنت فسحتك بالقناطر الخيرية ثم سكت يقرب كرسته منها والبنت الجميلة لا تزال تضع يدها على خدها وتلتفت اليه ولا تنظر الا في وجهه مبتسمة . ثم قال بصوت منخفض اشبه الى الهمس : كنت قبل ما تنامي اديتك بوسة من ظفر اصبعك لظفر رجلك . . »

كأني ما عدت موجوداً معهما على الطاولة . وكأن الاصوات السودانية

والصعيدية ما عادت تتصايح في الجو ، والعيون ارتفعت عن بياض عنقها والتصقت بالسقف . شعرت بالخجل وركزت نظري على لفافة ورق التواليت . وجون برونز لا يزال يهمس لها وقد قرب كرسيه من كرسيها اكثر ، وسمعتها تقول : « جون برونز ، خذني بين ذراعيك » .

طاووس
هولند بارك الابيض

وقفت ياسمين مدهوشة أمام طاووس أبيض . لم تكن تعرف أن الطبيعة ولدته أيضاً . كل ريشة من ذيله الطويل لها عين مزخرفة ، يحيط بها قلب . ثم قلب أكبر ينتهي بأهداب طويلة . كانت الريشة منمنمة ، تماماً كريشة الطاووس الزرقاء الخضراء . انما باللون الابيض . كيف لم يفكر في ريشة الطاووس البيضاء من اراد أن يصف غشاء الصباح ؟ . اقتربت منه تفكر بطريقة تجعله يفلش ذيله حتى يصبح مروحة . صاحت به . رمت عليه حجراً ، صغيراً ، قلدت صوت كلب . بقي الطاووس وعلى رأسه تاجه الابيض كثلج سقط لتوه . يتنقل مختالاً ببطء وذيله وراءه كشاش أبيض ، مخرم : ارادت أن يقترب منها ويظل واقفاً أمام عينيها . لكنه ابتعد عنها بمشيته المتعجرفة الهادئة . فاسرعت ياسمين تخرج قطعة الخبز التي اعدتها لابنها ، تفتتها امام الطاووس الذي اقترب ببياض ريشه المزخرف والملون بالابيض . ينقد فتات الخبز . ولما بطّل أن يرى شيئاً فوق الارض . ترك ياسمين وسار . لم ينسَ الله نمنمة واحدة . تفكر وهي تلحقه بانها ستكتب الى صديقتها في بيروت عن الطاووس الابيض . عادت تبعد الفكرة بوخز ضمير . غير معقول ان تصف لها الطاووس وصديقتها ، وكل من تركتهم في بيروت يحتمون من ممر الى ملجأ .

ابنها زياد يركض وهو يلحس قرن البوظة ، فرحت لانها اخرجته من بيروت ، ولأنها تراه لأول مرة منذ أشهر يركض كطفل ،كان محبوساً لشهرين بين ممرات البيت وغرفته والمطبخ . نظرت الى قدميها كأنها تكتشفهما من جديد . اخذت تعدو فرحة وهي تنظر اليهما سعيدة . لم تنتبه انها اصبحت وحيدة في البارك ، وان الشمس اختفت . الا لما هبط الظلام فجأة . أسرعت تمسك بيد زياد وتسرع من حيث دخلت لكن الباب كان موصداً . استغربت بخوف ، لم يخطر ببالها قط ان للباركات وللجنائن أبواباً . خوفها انتقل الى زياد ، وسألها بقلق : « راح ننام هون ؟ » أجابته « لحظة حبيبي ومنروح » .

لا بد من باب اخر . كل الباركات لها عدة مخارج . سارت ولم تجد مخرجاً آخر . بل كأن هولند بارك تحول الى غابة وارفة الاشجار وعالية . اوراق الخريف تراكمت واصبحت اقدامها تغوص في تلالها الصغيرة . مع خوفها ، لم تستطع الا ان ترى رغم العتمة جمال هذا البارك الساكن . تقف تحاول ان تأخذ طريقاً آخر . خطوات قليلة واخذت تغوص في قلب العتمة . العرق ينز من يدها ومن تحت ابطيها . يجف لسانها . ولم تستطع الا ان تقول مقهورة : « يا الله » .

سمعت زياد يقلدها قائلاً « يا الله » صوته بث فيها الخوف من جديد . لا بد من هاتف . عليها ان تعود الى الباب الاول . ووقفت تبحث عن اتجاه الباب . كأن الطبيعة عرفت بخوفها وبارتباكها عند المآزق ، فولدت لتوها امرأة ورجلاً يتعانقان تحت شجرة على بعد خطوات منها . لما شعرا بوجودها سارا . وجدت نفسها تلحقهما تطلب المساعدة ، ثم وجدت نفسها تلحق بالرجل ، والمرأة تسير بجانبها .

ترى نفسها في طريق جديدة ، ترى مستنقعات واوزة بيضاء تسبح . توقف الرجل عند سور . قفز منه الى الشارع وتناول زياد . ثم تبعته المرأة ، ووجدت ياسمين نفسها تقفز غير آبهة بعلو السور .

تمددت في السرير ، تسترجع مغمضة العينين تيهانها في هولند بارك ، عناق الرجل والمرأة تحت الشجرة . اوراق الخريف اليابسة ، والطاووس الابيض . تسترجع خوفها ، ولدهشتها تحبه ، تتمنى ان تتيه مرة اخرى وبصحبتها رجل . اخذت تتخيل أنها تائهة . قلبها يدق ، يدها تعرق ، يده تمسك يدها ، يتيهان ، وهما يقصدان كل المخارج الموصدة . هي وهو في البارك ، والطواويس كلها طارت رغم تعجبها واعتلت شجرة ، بدت اذيالها الطويلة المتدلية في شفافيتها كبخار يتصاعد من عروق الاشجار . تتوق الى هذا التوتر والى اللحظات الحاسمة في علاقتها مع رجل . مع زوجها لن ينسيا الوقت ، زوجها لن يجعل العتمة تهبطوهما في البارك . بل لن يسيرا في البارك معاً .

اطفأت النور ، تغمض عينيها وتسأل نفسها ضاحكة اذا لم يكن توترها في بيروت بالدرجة التي تريدها ، لكن ، حتى في الحرب كان توترها هي وزوجها عائلياً . كانا يفكران في الأكل ، في الماء . لم يفجرا خوفهما بالالتصاق . وبالقبل التي تبدو محرمة تحت صوت الانفجارات ، رغم انها اكثر حقيقة مما هي في حالات السلم . هما في حاجة اليها ، لتخدرهما ، لتطمئنهما ان هناك حباً رغم الحرب والعنف لكن ، اخذا يضعان النفتالين في السجاد . يسدان مداخل الممرات بابواب خشبية سميكة لها مفاتيح قلعة . يلفان طقم الفضة بالمناشف بدلاً من ان يلتفا بالشراشف ويصبحا داخل محاره لا يسمعان غير صوت الموج .

يجب ان اجد رجلاً أتيه معه في هولند بارك حتى عندما تهبط العتمة وتوصد ابواب المخارج ونحن نتمشى ندوس الاوراق المصفرّة . نقف بهدوء أمام كل مخرج مسدود. نتوقف تحت شجرة ، نتعانق ونحن نبحث عن حل . ثم ندخل الغابة ثم المنعطف الضيق حيث الظلام الكالح .

لا تزال ياسمين في هولند بارك تدور ، تتيه في حرج خلف آخر . تتنهد وتقول « يا الله » ولا تصل الى سور . تظل في الوسط . تخرج من متاهة الى اخرى . رغم الظلام تتبين وجه شاعر سمعته يقرأ كل كتابه في ناد ثقافي قبل اندلاع الحرب . يقترب منها مدهوشاً لهذه الصدفة وهو يقول انه تائه أيضاً . ياسمين تقوده الى كل المخارج الموصدة . تسلك به المنعطف المظلم . تدخله الغابة ، يمسك بيدها تسمع انفاسها . يسمع انفاسها ثم تقف تحت شجرة ، تغمض عينيها ، تشعر بجمرتين فوق شفتيها . تنتفض . لم يقبلها احد هكذا . يسيران . ويريان الطاووس الابيض نائماً . ولدهشتها يمد الشاعر يده يتحسس ريشه ، يظل الطاووس نائماً . أمسك الشاعر يدها ، يمران على ريش الطاووس ثم وقفا ، اخذ الشاعر وجهها بين يديه ، وقال لها انه لاحظها في الامسية الشعرية وكانت ترتدي فستاناً ازرقاً كالبحر وبشرتها برونزية ، لم يسيرا ، بل وجدا انفسهما يقفزان عن الحائط ويقفان على الرصيف ويتعانقان .

في الصباح لم تصدق ان لقاءها مع الشاعر كان حلماً . انها تحلم وبرجال أيضاً ، لكن ليس كهذا الحلم ، ليس بصدقه ، وبحقيقته . في النهار ، رغم طوافها في لندن ، مع ابنها للبحث له عن مدرسة ، واعجابها كل لحظة بهذه المدينة ، والارتياح لانها بعيدة عن الخوف والحرب ، لم تفارقها يد الشاعر الدافئة ، ولا صدره الذي القت نفسها

عليه وهي تقفز عن حائط البارك ، ظلت قلقة حتى بعد الظهـر، رأت نفسها تقصد البارك تأخذ الطرق التي اخذتها معه . تلتفت حولها ، كل التفاصيل الصغيرة في جذوع الاشجار ، في اغصانها ، رأتها معه ، حتى خطوها فوق كوم ورق اليابسة واحد . وشريط السياج موجود ، وهذا المستنقع الصغير ، وصوت العصافير . حتى الريح ولسعة البرد هي . هذا هو البنك الذي جلسا عليه قبل ان تهبط العتمة . تسير ويديها تخبئان صدرها من البرد ، وابنها زياد يفتـت قطعـة خبـز واحـدة للطـاووس الابيض . يرى الديكة ودجاج الارض والعصافير كلهـا تتجمـع تمـد مناقيرها تنظر اليه حتى يحيد عنها ويأكل قطعة الخبز كلها .

تفكر! أعليها ان ترسل للشاعر برقية، رسالة، ليأتي الى لنـدن . وقبل ان تسأل نفسها هل يتعجب من سؤالها . أو يعرف ان عليه التيه معها في هولند بارك ، توقفت عن التفكير . الطـاووس الابيض فلش ذيله عالياً . وأصبح مروحة . تقترب بهدوء ، تسترجـع رقـة مرجـان البحار الاسود . كل مرجانه كأنها مروحة. تبحلـق في بياض مرجـان الطاووس الذي اخذ يختال ببطء كأنه يعلـم دهشـة النـاس وانحبـاس انفاسها أمام جماله . تذكرت ياسمين ما قاله الشاعـر ليلـة أمس ، ان الطاووس لا يوقف ريشه الا عندما يريد اغراء الانثى .

لا يمكن ان يكون حوارهما واحاديثهما وهمية . وان لـم يحدث أن أخذها الى ناد ليلي بعد ، وقفزا فوق سور هولند بارك . وان عصرها بين ذراعيه ، حين قالت له انها تحب زوجها ولن تخونه . هي تحفظ شكل كراسي النادي والطاولة ، والمرايا المقصوصة على شكل ثمرة الاناناس ، تستطيع استرجاع طعم البلـودي ماري وكيف لما تناولتهـا ليزيد عليهـا

البهار وجدته يتمتم ، سألته ما به أجاب ضاحكاً : اني اسحرها حتى تحبيني . اخبرته انها نادمة لعدم دعوته الى منزلها في بيروت ، حتى يرى الحمار الابيض الكلسي الذي تحبه . ليس حلماً ، الحلم يسكن الانسان يوماً . اسبوعاً . لا يسكنه شهر وهي تطوف في الدكاكين تنظر في المرآة . تحاول أن ترى بعينيه . انه غير الرجال . ينتبه للون ، للزي، لأدق التفاصيل. تجلس في صف زياد تحاول ان تتشاغل بكتابة الرسائل حتى ينسجم مع صفه وينساها . تجد نفسها تكتب اسمه . وتكتب له رسالة ثم تمزقها . تشتري المجلات اللبنانية علها تجد له صورة ، او قصيدة تقرأها ، ربما يلمّح اليها بين السطور . انه يستعمل كلمة ياسمين لاول مرة . انه يقصدها ، بعد قليل فكرت انه ربما لا يقصدها . خلف بار المسرح تتمنى لو يكون معها كهذين المرأة والرجل في الزاوية ، يتحدثان عن المسرحية . في البص عائدة تفكر لو أنه بجانبها بدل هذا الرجل السكران . انه حقيقة ، لذلك لما لحق بها زوجها الى لندن وكان في الولايات المتحدة يحضر مؤتمراً لم تقبله بلهفة ، لم تشعر بالشوق اليه كالماضي . لم تكن معه . استجمعت نفسها واخبرته حبها للشاعر . ضحك وقال والحنان على وجهه : « انت خلقت حالمة ، وستبقين حالمة » .

ردت عليه في نفسها . لا يمكن ان يكون حلماً فقط . الحدس ينشىء الحب الغيابي . تزهر فيه العلاقات الوهمية ويجعلها حقيقية . هو تمهيد للقاء .

لكن عندما تكون منهمكة في تحضير الطعام او في السوبر ماركت تشتري الخضر والمعلبات ، وهي في البيت تحف البانيو ، تجد انها تبعد الحقيقة عن حلمها ببساطة ، وتسمع وتصدق المنطق الذي يقول لها :

ان شاعرية هولند بارك ، الطاووس الابيض ، مدينة لندن . كل ما فيها اطار شاعري للحب . الشتاء ، الصحو ، البرد ، الحشيش ، البص ، المحلات ، السينما المسارح ، الصخب ، الهدوء ، الحمام الابيض والسلم . وهي وحيدة بلا رجل في معظم الاحيان .

في المساء تعود تثبت حقيقة الحلم في عقلها . تبحث عن وسيلة تلتقي بها الشاعر طيلة اقامتها في لندن . لكن لما توقف اطلاق النار في لبنان لمدة شهر ، رجعت ياسمين الى بيروت ، ما فكرت في الشاعر الا عندما رأته ذات يوم مقبلاً من بعيد وفي يده جريدة . لم تتوقف ، ابتسمت واكملت طريقها .

صورة ياسمين

وجد نفسه امام صورتها أيضاً . تأمل العينين الشبيهتين بعيني قطة ، ارتفاع الجبهة السمراء صغر الانف الرفيع ، اكتناز الشفتين . رأى الشعر الاسود اللامع وقد التفت خصلاته كشعر الاطفال ، استدار الى زوجته يسألها : « هل هي جميلة كالصورة ؟ » ردت عليه وهي ترفع غطاء السرير : « لمحتها مرة من بعيد مع نوال » . فكر.وقد انتقل بعينيه الى الشراشف ، حتى جمال شراشفها يختلف ، كانت اصداف بحار العالم كلها ، بالوان الصدف الطبيعية . لما اقترب يقفل باب الشرفة اهتزت ريش الطاووس المشكوكة في ابريق نحاسي. أحمر. تذكرانه راى من قبل زوجته تكسر كل ريشة مرتين حتى تستطيع ان تدخلها سلة النفايات ، بعد ان قدمها لهما عامل السنترال في مكتبه في الوزارة هدية زواجهما . لم يتضايق من زوجته لانها لم تحبها ، فهو لم ير احداً يزين بيته بريش الطاووس من قبل سوى في القرى . لم يتصورها ان تكون بهذا الجمال وهي مفرودة الآن ، تضفي جوا شاعرياً على غرفة النوم .

خلع ملابسه ببطء ، لما فك ازرار بنطلونه وجد نفسه ينظر فجأة الى الصورة الموضوعة على تواليت الزينة . تمدد في السرير ، زوجته خلف المرآة تمسح وجهها بالقطن والكريمات . تصور ياسمين ، صاحبة الصورة ، تجلس مكانها . فكر في جسمها اذا كان كالوجه دقيق

العظام ، اغمض عينيه وهو يتفرس بالمشجب المرجاني الذي لم ير مثله الا عند بيت جده وكان اسود اللون أما الان فقد علقت عليه قبعات من القش ومن القماش ، عقود من اصداف البحر أيضاً . لما شعر بزوجته تدخل السرير سألها : « كم عمرها ؟ » وظنت انه يحلم .

استيقظا على صوت انفجارات تقلق سكون الفجر . وجد نفسه يجلس في السرير يفكر في حزن وضيق ، كيف تم خرق وقف النار بعد خمس ايام فقط . بلع ريقه وهو يتصور اليوم والغد وبعده . وهو سجين هذه الشقة . تمنى لو لم يعمل بنصيحة زوجة اخيه نوال ، ويغادرا شقتهما في الشياح ، تمنى لو اسمتع الى زوجته وبقيا في بيتهما بالرغم من خطورة موقعه وكون زوجته حاملاً في الشهر ما قبل الاخير . لكان الآن يزور الجيران مستأنساً يلعب معهم الورق أو الطاولة واذا لزم الأمر يختبئا في الملجأ مع الجميع . بينما في هذه البناية الهادئة لم يلمح عند مدخلها انساناً ، ولا حتى ولداً يلعب ، حاول التظاهر أكثر من مرة بأنه ينتظر المصعد دون أن تكبس يده الزر ، عله يصدف أحداً من سكان البناية فيعرفه على نفسه ، ويتبادلا الحديث في الأوضاع والحرب ، لربما بث الآخر فيه روح الأمل أو التشاؤم ، لا فرق ، يريد أن يسمع صوتاً غير صوت المذياع وصوت زوجته . فالهاتف مقطوع . والسكينة تخيم على الشقة ، عدا زقزقة الكنار البرتقالي التي أخذت تضايقه لأنه كان يزيد من زقزقته كلما سمع زخات رصاص . لا يسمع اية خطوات في مدخل البناية النظيف ، رغم أصوات الانفجارات يرى لوحة البحر والمرايا وشجرة البلح الافرنجي ساكنة ، يصعد الشقة وهو يتذكر أن المرة الأخيرة التي تكلم فيها مع أحد في البناية كان مع حارسها الذي كان يحمل ابنه ويستعجل زوجته بشتمها ، وهما يستعدان

للذهاب الى عكار . لما وجـد نفسه يسأله بارتبـاك : « والبنـاية من يحرسهـا بغيابـك ؟ » أجـاب الحـارس : « الكولـونيل في البنـاية ، وخيفان ؟ ولك حظك من السما » : « حظنا من السما » قالت زوجتي وهي تفتح خزائن المطبخ وترى أكياس المؤ ن والمعلبات وصناديق المياه وأرغفة الخبز بالمئات في الثلاجة وعدة قناني غاز تنتظر على جهـة من البلكون .

« اذا كانت وزوجها مستعدين حتى هذه الدرجة ، وشقتهما امينـة لماذا سافرا ؟» . بعد لحظة لام نفسه لتفكيره بأن الطعام والشراب هو ما يحتاج اليه الانسان فقط .

يتمشى في البيت ، يدخـل كل الغـرف . يكتفـي بالنظـر ، يفتـح الخزائـن ، الادراج ، وزوجتـه تقـول له وهـي تبتسـم : ولـو ، شو صايرلك ؟ . رد كاذباً : « بفتش على كتاب ، على طاولة دامـا ، على شيء اتسلى فيه . » قالت : « لما نوال شافت ياسمين في اوروبا واخبرتها اني حامل ، حلفتها ياسمين حتى فتش على ثياب صغار وعلى فساتينها الحبل واستعمل كل شيء » . سكتت واضافت : « طبعاً مبسوطين انو الشقة بعدها صاغ سليم ، وناس مثلنا عم يحرسوها » . ووجد نفسه يجيبها متضايقاً : « ولو ، مش كمان من مصلحتنا نكون هون بعاد عن الخطر ، قراب لمستشفى الجامعة اذا صار ما صار ؟ » وجدت نفسهـا تتراجع مبتسمة : « أي معك حق ، معك حق . دخل غرفة ولدها ، وقف امام حائط مشكوك بصور ولدها منذ ان كان عمره يومـاً حتـى الثلاث سنوات . وهو يلحس قالب كعكة عيد ميلاده ويبكي والوحل غطى جبهته . ثم صورة تحتضنه وعمره اسابيع أمام قفص لعصفور ،

تونسي ابيض ، شعرها في الصورة وصل خصرها . وهبط كشعر الهنود الحمر .

ثم وجد نفسه يشهق لما استوقفته طويلاً صورة لها وقد بدت بشرتها السمراء برونزية ، بفستان يكشف عن ذراعيها واعلى صدرها . طول الفستان وصل حتى كاحلها . تأمل وجهها الحزين ، رغم وردة الاركيديا الصفراء والنبيذية خلف اذنها. كانت تبدو شاردة . رغم ان ابنها امسك شالها وظهر وهو يركض ، وهي تحاول اللحاق به .

اجمل امرأة شاهدتها في حياتي ، جسمها ليس ناحلاً كما تصورت ، انه كممثلات السينما . لم يعد يوقف نفسه عن البحث في اشياءها .

اصبح رجلاً عطشان يعدو وراء نقطة ماء . بعد أيام لاحظ أن فضوله امام صورها ، ووجودها الغائب كان يرطب من جو الحرب في الخارج ، نبش خفاياها هو الحدث الوحيد يسجله في رتابة الايام الصاخبة الطويلة . وكانت زوجته منهمكة أيضاً في البحث عن ثياب الطفل في كل الشنط ، وفي اكياس النايلون ، لتغسلها وتحضرها . لما ترى زوجها مشدوها ، شارداً أمام الالبومات والظروف الورقية السميكة وكانت تكتفي بالقول : « اوعى تنسى ، حط كل شغله محلها . رأى صور ياسمين وهي طفلة ، تجلس في كلسون ابيض على كرسي من خشب ، بجانب اشجار تين . وصورة لها تلبس ملابس روب التخرج الجامعي الاسود ، وقد كحلت عينيها لأول مرة في الصور ، وقصت شعرها حتى رقبتها . ورأى صورة لها وقد بدت من الهبيز ، الورود على شعرها . رسمات القلوب على وجهها ، تقفز عالياً في الهواء . يفلش رسائلها ، رسالة من صديقتها نهى تقول لها .

« عزيزتي ياسمين ، قرأت جملتك التي تقول : « اكتبي لزينة ان تدرس لكي انجح ، ولم اتوقف عن الضحك ، فعلاً انك نمرة » .

ورأى مفكرة ، دق قلبه . لخيبته كانت فارغة ، مفكرة اخرى ، واخيرة كتبت فيها جملة واحدة : « هل تعدد المفكرات وشعوري باني اريد الكتابة على كلها يجعلني لا اكتب ؟ »

اغلق المفكرة ، تنهد بارتياح وهو يفكر : « انها جميلة من الداخل أيضاً : انها ذكية ، ونفسيتها تختلف : لماذا لم يقابلها ام يقابل من هي في مثل شخصيتها ، بل جعل زوجته تختاره وتتزوجه . كان يجب ان يعرف من يعلق كهذه اللوحات على الجدران ، لوحات مائية ، لون وشفافية الماء والسماء فيها تسرع من ضربات القلب . من يحب الحمير ، ويضع تمثالاً لحمار صغير من الكلس الابيض . من يحتفظ بصورة قط فارسي ويكتب : « هذا سيلفر ، الجميل الشعر ، والقلب » من يقدم اليها كتابه ويكتب لها هذا الأهداء : الى الياسمينة الوحيدة . « ووصل الى مجموعتها الموسيقية ، أخذ يقلب الاسطوانات ويجد من سيد درويش ، الى البينك فلويد ، من عبد المطلب الى فيفالدى . يهز رأسه : «انها غريبة المزاج » . فجأة ، يوقف نفسه : لماذا يفترض ان هذه مجموعتها ؟ . ماذا عن زوجها . لا . من اوراق وكتب زوجها الهندسية هنا وهناك لا تدل ان لديه الوقت ليسمع وبالتالي الموسيقى العربية . عدا ان زهرة الياسمين بدل الكلمة مرسومة على كل كتاب . كتاب عن المطربة اسمهان ، اقاصيص جرائد عنها . وكتب شعريه من الاجنبي والعربي . هي في كل شيء في هذا البيت . حتى زجاجات الرمل الملون من البتراء . صور لحمير ، دائماً في أشهرهم الاولى . مجموعة عيدان

نحاسية علقتها في سقف الشرفة تحدث اصواتاً ناعمة كلما حركتها نسمة هواء . وجد نفسه فجأة يغفو على الكرسي الهزاز من كثرة ما حدق في اشيائها .

كأنه شعر بوجود شخص في الغرفة . سمع ياسمين تحدثه ، لا بد ان هذه رنة صوتها الهادىء . نهض عن الكرسي يبحث في الغرف . لما وجد زوجته نائمة ، تضايق . طال بحثه ، وجد نفسه يفيق من نومه تماماً ويبتسم لان ظن حلمه بياسمين حقيقة .

تفكيره بياسمين المتواصل زاد من توتره ، وانبت فيه الاحاسيس بالكبت . لا تعرفه ، لكنه يعرفها . فتح اسرارها ، قرا رسائلها لزوجها قبل زواجها . لمس اشياءها . رأى زجاجات عطرها حتى الفارغة مناشفها ، ملابسها ، القطن الملون المكبوس في مرطبان زجاجي . رأى دواء يوقف الام حيضها انه يعرفها في ادق تفاصيلها . رأى نفسه في المرأة يحتضن روب حمامها الأبيض المطرز عليه فطر بري . انه يعرفها ، انه يحبها .

في الليل ينام قربها . في سريرها . يشعر بتقلباتها ، بخوفها من الانفجارات كما وضعتها في رسالة كتبتها لصديقة اميركية قبل سفرها ولم ترسلها . هل يأخذ عنوانها من نوال ويكتب لها ؟ ينتظرها ؟ ام يسافر الى لندن حالما تضع زوجته ؟ هو يحتسي القهوة في كوبها ، وكنارها الاصفر يزقزق ، ينهض ، يمد له اصبعه يسأله اذا كانت ياسمين تداعبه هكذا . يسقي زريعتها ، في الخفاء رغم ان كل بيروت توقفت عن السقي . كان ينظر في صورها طويلاً ، لدرجة انه شعر ذات ليلة بانها تنظر اليه ايضاً . لذلك عندما توقف اطلاق النار منذ اسبوع وشكر الله لان زوجته احست

بالام الوضع فجر هذا الصباح . وعاد منهوكاً من المستشفى وقد تركها في غرفة العمليات وأدار المفتاح في ثقب الباب. رآها أمامه. رأى حقائب سفر ، ومعطف ، وقبل أن يستفسر ، رآها أمامه ، عيناها عسليتان كبيرتان مرفوعتان كعيني قطة جبهتها عالية ، أنفها دقيق . شفتاها مكتنزتان . مدّت يدها مصافحة مبتسمة : حضرتك ؟ . . »

لم يعانقها ، وجد نفسه يمد يده يصافحها ، ويكتشف انه لا يعرفها من قبل .

بيت البحر

هو بيت جميل الحجر والهندسة ، كان ولا يزال يطل على بحر بيروت ، كأنه يتلصص على ازرقاقه . لاحظته وصديقتي سهام نتمرن على قيادة السيارات ، على امتداد كورنيش رملة البيضاء وشاطىء خلدة حتى الشويفات . كنت من بعيد ارى هذا البيت ملتصقاً بالبحر . لما اقترب منه افكر انه مهجور . لا المح على شرفته احداً ، ولا أرى له باباً مفتوحاً ، ولا نافذة مشرّعة صيفاً . او جنيناتي يسقي الحديقة ، فقط سيارة تلمع نظافة ، تقف عند ناحية المدخل ، تظللها خيمة زرقاء . كلما مررت بهذا البيت كنت افكر كيف باستطاعة من شيده ان يعيش بعيداً عنه ، ودعيته باسم بيت البحر .

وانا اعرف عن بيوت بيروت والجبل التي هدمت ، وبيوت الاغنياء الجميلة التي نهبت واحرقت . كان بيت البحر يدفش كل بيوت المخيلة ، وتبقى صورته ساكنة ، بحجره الصخري العريض . بلونه الطبيعي الذي يشبه لون الخشب ، كنت متأكدة انه لا يزال باشجار البلح الافرنجي عند مدخله ، كذلك باشجار الصبار الافرنجي ايضاً . وبأن شمس البحر لا تزال تضرب بخيالها واجهاته وتتركها تلمع . وكان البيت يبدو متمماً لمياه البحر يستأنس الى الامواج .

لما رجعت بعد الحرب الى بيروت ، لم اسأل عن احد ، ولم اسأل

عن شيء ، بل أخذت اتلقى حقن الالم في الصحو وفي النوم . لم اخطط لارى من كنت افكر بهم ، بتواصل ، بالاشخاص والاشياء ، وانا اشتري السمك ، افكر ببائع السمك الغشاش الذي كان يدهن غضروفة عين السمكة بالاحمر وكيف كان اللون يحل على اصبعه ، ويضحك ، واضحك . افكر ببعد الظهر عند مغيب الشمس كيف كنا نجلس على الشرفة نحتسي الشاي ، وعصام ما يتحرقص لانه لا يريد ان نسكب الشاي قبل ان يختمر .ويتحرقص لأني عدت اضيف الماء الساخن دون ان ازيد عليه عيدان الشاي ، وبيت البحر ، يقف في المخيلة كان يمثل الطمأنينة ، وأيام السعادة الخفية . والكورنيش يغص بالسيارات المسرعة ، احدهم يفتح زجاج النافذة ويشتم سهام لانها تقود السيارة وعيناها قد التصقتا بالزجاج . وقدماها ترتجفان وانفاسها خائفة من ان تصدم أحداً أو سيارة أو من ان تنسى لوهلة ماتعلمته.بيت البحر كان يذكر بالجمال . ولم اسأل عنه ، بل وجدتني ادخله ذات عصر ومع سهام بالذات التي اصطحبتني اليه حتى ترسم في حديقته ، فتحت نافذته ، جلست على شرفته احتسي القهوة المرة المذاق . قفزت في حديقته ، تحسست بيدي شجر البلح الافرنجي ، استمعت الى صخب عصافيره ، وقفت في مطبخه ، تمشيت في اروقته الطويلة ، ثم وقفت امام اللوحات المعلقة على الجدار ، مددت يدي المس التماثيل هنا وهناك ، وابكي .

لما توقفت سهام عند بابه وقالت : « سأرسم في حديقة بيت شهرزاد » . لم أصدق . فبيت البحر لا يسكنه احد . انه للبحر فقط . لكن ، وقبل ان اسأل واعرف التفاصيل رأيت شرفته تحتوي بشراً ، وعلى الدرجات التي لم اكن اعرف بوجودها اولاد يصعدون ويلعبون . وانا ابحث عن البلح الافرنجي ، والصبار ، رأيت حبلاً ، علق عليه

الغسيل من كل الالوان والاشكال . ثم اشرطة كهربائية كثيرة ، متشعبة اللون والمقاس تمتد من العامود الام في الحديقة الى الخارج . دخلت وراء صديقتي سهام . صافحت امرأة لاحظت عينيها المكحلتين بالاسود قد انهتهما بذنب سمكة . كانت ترتدي قفطانا ، فضفاضا . ورجلاً يرتدي بيجامة حمراء جرسيه . وامرأة مسنة لم تقف لمصافحتنا كالاخرين بل اومأت بوجهها التي مدته لتتأملنا وهي تسكب القهوة المرة من ركوة ، مخلخة المسكة . برمشة عين ، كان الاولاد قد غطوا كالحمام على صديقتي سهام يقبلونها ، يعانقونها ويقولون : « الله يخلليك ، ورقة . . » اعطتهم سهام اقلاماً ملونة واوراقاً بيضاء ، ثم دلتهم على البحر ، وسألتهم ان يلونوه على اوراقهم . جلست على كرسي خيزران ، في الشرفة المواجهة للبحر ، غير مصدقة اني اجلس في الشرفة ذاتها التي كنت افكر انها شرفة سحرية لا يدعس بلاطها احد . لاحظت اني لم اسمع امواج البحر بعد ، فذات عين السمكة لم تسكت ، رغم اني لم اسمعها ، استطاعت ان تشوش تركيزي لسماع الامواج . كنت اود ان يعرف فضولي ، الذي طالما فكر بالذي يسكن هذا البيت ، اذا كان سماعه للامواج بتواصل يفرحه ام يضجره . وزوج ذات عين السمكة لم يترك واجهة البحر هادئة . فهو ينهض كلما ارتفع صياح الاولاد ، يمر امامي نازلاً الدرجات محاولاً اسكاتهم . ويعود مارا امامي ويجلس للحظات ثم ينهض متأففاً . لما غمزتني سهام فهمت من طريقة مشيته انه فخور وسعيد ببيجامته الحمراء الجرسيه . التفت الى الامرأة العجوز لاراها تحاول بقبقابها الخشبي مسح بعض نقاط قهوة سقطت كمرض جلدي فوق البلاط الصخري الجميل . تقطع سهام الصمت بان تسأل عن شهرزاد . تجيبها ذات عين السمكة معتذرة وهي تقف بانها

ربما لا تزال نائمة ، ثم تنادي بصوت غنوج : « سعاد » التفتت بنتها هي اكبر البنات والصبيان ردت بضيق : « نعم ؟ » قالت لها أمها : « روحي فيقي خالتك شاهو . . . » عندها لكزت سهام وقمنا ندخل البيت ، كانت غرفة فضاء واسع لم يكترث للجدران وللسقف التي تحيطه . الاحجار الصخرية التي تكون البيت من الخارج هي ذاتها من الداخل ، احجار ضخمة ، ومصقولة تذكر بكلمة الرومان والاغريق ، من كبر حجمها . ثم واجهات النوافذ كأن البحر يسبح في هذا الفضاء . فكرت ان البيت داخله خارجه ، وخارجه داخله . غرفة بلا اثاث . عدا قطعتان ربما لم يستطع احد زحزحتها . القطعة الاولى برفان صيني يحكي الفصول الاربعة باحجار نصف كريمة من الامثيست البنفسجي والعقيق ، والعنبر ، والكارب الاصفر والاسود ، والاخضر . البارفان علق على الجدار فغطى معظمه . خزانة مرجانية اللون ، فيها بابان من فوق ثم مرآة وبابان من تحت ، كانت تشبه النملية ، والاسم يوافقها ، فخشبها قد حفر كبيوت النمل ، كثيرة ، متشعبة فيها متاهات وجسور ومخابىء كلها محفورة ، ثقوبها بوسع قرص شهد العسل . المطبخ طاولة ، طويلة عريضة بلا كراسي . خشبها الغامق اللون غير مصقول ، عليها كمدات حريق ، كأن احدهم نسي مكواة فحم ، ونسي سيجارة مشعلة في مكان آخر ، كان هذا كل ما في البيت ، رغم ان هناك عدة كراسي من القش وفرش نوم وملابس معلقة في النوافذ ، وجريدة تفترش طاولة ، عليها المصاصات ، وعلب الحليب وبعض الالعاب مطروحة على الارض الخشبية .

سرت في الفضاء الململوم ، افتح نافذة واطل منها على البحر وانا افكر بان هناك فعلاً مهجّرين ، يحتلون البيوت . ووجدتني افكر اذا

كانــت علاقــة سهــام بشهــرزاد حميمــة لدرجــة أن نفتــح لها موضوع بيت البحر هذا . سرت بين الفسحات وأذني تسجل صوتاً لا تفهمــه ، إنمــا من قوتــه طغــى على تفــكيري . كان صوتـاً مميزاً ومـع ذلك لم أستطــع تمييزه ، أخــذت أســير في اتجاه هذا الصوت ، كلما اقتربت من النور تأكدت من انـي اقتـرب منـه ، لأكتشف ان هذا صوت مئات العصافير لانه لم أسمع في سماء بيروت صوت عصفور طليق ايقنت انها عصافير مهاجرة . قبـل ان اصـل الى الحديقة استوقفني فضـاء فسيح الجوانـب والسـقف بالـواح زجـاجية بلاستيكية . ثم خيطان ثخينة تدلت تمسك القلـب ، وموجـات المزاج المتناقصـة ، وتمسـك اللحظـات ايضــاً . ولما رفعــت رأسي ، رأيت اللوحات تنزل من السقف بينما غطت الاشجار معظمه وبـدت وكأنهـا تمسك بطرف خيطان اللوحات . ووقفت حائرة . من أين أبدأ ، كأنها لوحة واحدة . او باقة ورود طبيعية موضوعة في اناء زجاجي . عيني على كلها في آن . وقلبي كذلك ، قررت ان ابدأ من اليمين ، لكن عيني على جهة الشمال . لما ابتدأت شمالاً . نادتنـي لوحـة لخليل زغيب اسمهـا عرس القرية . العروس صورة عن امه ، قال لي مرة ، انه يستوحي كل صور النساء من صورة لامه ، العروس محمرة ، مقمـرة ، والعـريس رغم شاربيه ولبادته وصدره المنفوخ كان حزيناً ، كحالة الفنان عندمـا تزوج من بنت لا تحبه .

اشعـر بحـريق في غضروفـة انفـي كلما تنفسـت ، وبانقبـاض في حلقي . تهت فجأة استجمع الخراب والدمار الذي رأيته ظهر البارحة مع نجاح في سيارتها التي ينقصها النطق فقط. أحسـت دواليبها بحزني الحمير ، بضآلتي أمام ما حدث وانا مكتفية بالتمتمة : « مش معقول ،

فظيع ، مش معقول » . ولم اتنهد الا عندما أبت السيارة ان تصعد كوم الحجارة وتدخل سوق الطويلة ، كنت خجلى من أن أصرخ لنجاح أني خائفة ، لان رؤ يتها لي في حالات الخوف تفوق رؤ يتها لي وأنا في الحالات العادية ، فهي رأتني اخاف اعتلاء صهوة حصان جميل الذيل في ليلة بعلبكية مقمرة . سمعتني أصيح مرتعبة من عواء الكلاب . رأت نبضي يفوق الألف في الثانية وكلب كبير يجلس مع أخيها في المقعد الأمامي من السيارة . ورأتني أخاف من الأمواج . ومن السباحة في بحر كانت صفحته ملساء ، ومياهه تغمرني حتى الوسط . صفقت هي كفاً على كف مستنكرة عندما تعلمت قيادة السيارة ، ورفضت تقديم الامتحان لأني خفت التدهور . أمسكت بيدي عندما صدر مني أنّه خوف لحظة انطفأ النور فجأة في بيروت وكنا في حديقة شاتيلا نستمتع برؤ ية البحر ، الذي تحول فجأة الى غول يتنفس الزبد ويشهق بالأمواج .

لم ابك البارحة ، ابكي الان كأن خيطان هذه اللوحات معقودة مع الدمار ، لان اشخاص بول غيراغوسيان رغم الوانهم الغامقة والنافرة ، لا ارى تعبيراً على وجوههم سوى الذهول . عصفور رفيق شرف المحلق سقط فجأة على شريط اسلاك . جدة فادي براج تتغاوى بفمها وقد رسمت شفتيها باحمر شفاه فاقع . تأليف شفيق عبّود كأنه صار منشار مسنن ، كأن احدهم سحب قلب امرأة جوليانا ساروفيم البنفسجية فانطرحت على وجهها كمدات ارق والم . عباءة عجوز طورسيان تحولت الى كاب دراكولا . ابكي ، والعصافير تزداد حدة ، زقزقتها او صياحها . الفنانون الذين كمشوا موجات المزاج المتناقضة كلهم التقوا في هذا الفضاء الملموم فكرت : هل كان صاحب بيت البحر او صاحبته

يدخل صالة العرض هذه كل يوم . . ويأمر او تأمر الخادم لينظف الزجاج ، البلاستيكي من اوساخ العصافير ، ومن اوراق الاشجار الخريفية ، ومن آثار نقاط الامطار عند اطلالة الشمس ، افكر ، بالمعارض التي كنا نزورها ولا نتأملها بل نتأمل أنفسنا فيها والفنان المزهو بنفسه ، والحائر بين أن يبتسم أو يأخذ موقفاً جدياً يتمنى لو ان جبهات الزائرين تنسلخ ليرى حقيقة تفكيرهم وهم امام كل لوحة .

امسح عيني وسهام وشهرزاد تقتربا مني . . . وامنع نفسي من التفكير لماذا نظف اهل البيت من اثاثه وتركوا اللوحات مع انها ليست ثقيلة . كأن شهرزاد تسمعني فتقول ان المرأة كان عندها « شيز لونغ » وكانت تتمدد بين هذه اللوحات معظم الوقت .

فكرت اذا كانت المرأة تعرف الفنانين شخصياً ، ربما بعضهم ، لكن ليس خليل زغيب ، محاولة معرفة بيته مهمة مستحيلة ، عندما زرته قال انه لم ير شخصاً منذ ستة أشهر . ثم استأذنني ليدلي بسلة معلقة بحبل طويل ، ليضع فيها صاحب الدكان بطحتين من عرق ابي سعدى ولبن ضومط . لما اقنعته بالنزول من بيته ، وكان لم يفارقه منذ سنين ، وقف الجيران في البنايات المجاورة على الشرفات وعلى السطوح . اطل بعضهم من النوافذ . واعود اتذكر صعودي درجه العالي انا وليلى بعلبكي . كان بابه مفتوحاً ، وكان هو مريضاً في السرير . دلنا على الحمام ، لما دخلناه رأينا ازهار برية تكاد تغطي الحمام كله . حلف ان نتقاسم الازهار . ونزلنا الدرج وليلى بعلبكي تحمل زيادة عن ضمة الازهار لوحة قلعة صيدا ، فيها الصيادون والسمك طائر في السماء .

اخرج من اللوحات الصامتة وانا فرحة . لانه لم يمسها احد بعد

ولان شهرزاد قالت أن أصحاب البيت عائدون وهي تراهم مرة كل اسبوع . لوحة لازادوريان « القمر والغيوم » تسير امامي . قمرها الاسود ضاحك ، من حوله الغيوم مكفهرة رغم لونيها الاصفر والمرجاني .

اسير حتى الحديقة ، العصافير تجن وهي تزقزق . تحوم وتحط قرب البركة الصغيرة . اجلس على حجر أتامل البركة التي جفت وتقددت فيها سمكة حمراء . أرى الاولاد وقد جلس جميعهم على الدرج ، ما عدا سعاد السمينة التي وقفت في الباحة وقالت : « هلق لح يبلش السيرك ، اسكتو » . اتت بدراجة ثلاث دواليب . تحاول ان تسند كفها على المقعد ، حتى تقف عليها مقلوبة ، لكن عدم توازنها اوقعها أرضاً . تصرخ ، تسرع اليها امها ، ذات عين السمكة ، الاطفال يضحكون من كل قلوبهم لما وقعت سعاد ، وانا كذلك ، كأننا امام سيرك أصلي ، اجلس وانا افكر بان هذا البيت حقيقي ، وبان اسمه ليس بيت البحر .

يا شمس أنا قمر

تسعل العنزة من ضيق صدرها . تخبط بقائمتها الارض ، يهتز الكيس المخبّىء ثدييها . يتعالى غبار الطين ، يصل الى أنفها ، فمها ، وتسعل أكثر . تسرع اليها قمر ، متشحة بالسواد . تضمها الى صدرها . تستسلم لها العنزة ، وكأنها عادت صغيرة ، في حاجة الى أم . شهيقها وزفيرها يعلوان ويهبطان فوق صدر قمر ، التي ما توقفت عن هزّ رأسها قائلة : « آسفة ، الله يعفو عنك » . تنظر الى الفضاء ، ولا ترى . فشعاع الشمس في كل مكان ، ممتد كالنار . كل شيء ساكن ، الاشجار القليلة بعضها ميت ، البلان يابس ، الهضاب جرداء . تضع قمر رأسها فوق ظهر العنزة وتقول : « الله يعذبك ويعذبني ، ليش ؟ ما أدري . . يمكن ضايقته العام اللي فات لما قطفت حبة تين حمراء ، وأكلتها وأنا صايمة وظنيت انو ما حد لح يعرف ، حتى هو فكرت انو مش ممكن يشوفني والغبار علوه شبر ، يفتل متل المجنون ، وأكملت صيامي ، لكن لازم الله عرف » تتنهد وهي لا تزال تلتصق بالعنزة وتسألها مواسية : « وانت شو عملت يا مسكينة ؟ » تنظر العنزة الى قمر ، بعينين متوسلتين ، تحرك رأسها ، تفتح فمها ، تتثاءب ، وتنظر الى قمر التي تنهض بقامتها الناحلة . تظهر أصابع قدميها الصغيرة ، ثم تشد الغطاء الكبير الأسود على رأسها ، يظهر خصرها وكأنه خصر بنت لا تتعدى العشر . تعود تضعه لتخفي رأسها وجسمها . تنحني الى

الأرض ، تلتقط أوراق الشجر الجافة ، تكومها في فستانها ، تلم طرفيه ثم تنتشل من عبّها علبةَ كبريت ، تولع الأوراق وتأتي بالعنزة قائلـة : « يللا يا ماما ، يللا يا حلوة ، تنشقي واسعلي ، خذي نفس واسعلي لما تروح السعلة بالمرّة » . وما تنشقت العنزة ، وما سعلت . وقمر واقفة تتلفت ، وتمسح حيناً وآخر قطرات العرق المتكوّم عند جبهتها الزاحف حتى رقبتها ، ثم ترفع رأسها الى الشمس وتقـول : « يا شمس ، أنـا قمر ، اخشي على دمك وغيبي » . تبتسم لجملتهـا هذه وتعـود تقـرب العنزة من الدخـان قائلـة : « يلـلا يا مامـا ، هذا يشـفيك ، تنشقـي واسعلي » .

تكثف الدخان . ابتدأت العنزة تسعل ، محدثة صوتاً غريباً ، اهتز له جسمها كله ، تحتضنها قمر وهي تربت على ظهرها وتهمس : « يا ريت تعطيني سعلتك ، يمكن تهرّب العجوز . . » ثم تستلقي لبرهة ، يداها تحت رأسها كوسادة ، فوق الحجارة الصغيرة ، ثم تقفز واقفة . تحبس أنفاسها . تقف جامدة ، فقط عيناها تدوران في محجريهما . في جميع الاتجاهات ، فجأة جمدت في اتجاه واحد ، رأت طرف أفعى صغيرة يدخل في كوة بين حجرين تحت شجرة التين .

صباح اليوم التالي تخرج قمر من بيت الطين ، يسبقها سعال العنزة الجاف ، المتقطع وتتبعها امرأة أربعينية . تسير قمر في دروب ضيقة ، تاركة وراءها بيوتاً متلاصقة ، وأولاداً حفاة يلعبون بكرة من القماش . من يسير في هذه الطرق الترابية ، لا يصدق أنه في قليل سوف يلتقـي هضاباً وأشجاراً وبعض الزرع . تنحني قمر تلم أوراق الأشجار وما كانت كثيرة ، ربما رياح الليل جرفتها معها . أخـذت تقـطف أوراقـاً

خضراء ، تضعها في فستانها ، ثم تناولت من عبها علبة الكبريت وأشعلت الأوراق بعد أن كومتها بعضها فوق بعض . جرّت العنزة وقالت : « يللا يا ماما ، تنشقي واسعلي » . كانت المرأة الأربعينية ملتفة بشرشف عليه مربعات زرقاء ، كأنه لسرير ، تسير خلف قمر ، وهي تتنحنح . قرفصت تستند الى ثقل قدميها . عادت تحاول أن تكسر الصمت بنحنحة أخرى تتبعها ببصقة قائلة : « متى لح تشلحي هالأسود ! كبّري عقلك يا قمر ، لبسك الأسود فال ، اي والعظيم فال ، أمك بعدها صغيرة ، وأبوك شاب ، واخوتك جهّال » . واكتفت قمر بالعض على شفتيها . نهضت تتلفت قبل أن تنحني لتتناول غصن شجرة يابساً ، تكسره بكفيها الناحلتين ، تحرك به كومة الأوراق التي أوشكت أن تنطفىء ، ثم تنفخ بها اولى وثانية ، حين تعود النار تتشعب في شروش الأوراق تنهض وقد احمر وجهها ، وبرزت شرايينا زرقاء خفيفة في منتصف جبهتها ! وظهر شاربان خفيفان فوق فمها رغم سمرة وجهها . وقفت جامدة تراقب الحجرين تحت شجرة التين ، وما تحركت الا عندما رأت رأساً صغيراً يطل من الكوة ويختفي . تقترب من المرأة التي لا تزال مقرفصة ، مستندة الى قدميها فقط . وباقتراب قمر منها شعرت كأنها تستطيع أن تفتح الموضوع مرة أخرى : « ايش قلت يا قمر ! » تتوقف قمر عن عض شفتيها وتتنهد : « الله كريم » . تستأنس المرأة بردّ قمر . وتمد يدها الى الارض ، تحرك كفها بين حبيبات التراب ، تاركة زرقة حجر خاتمها يلمع في اصبعها . وتخش اسوارة رسغها الفضية ، تعود لتلتقط عوداً ، تقشره في يديها ، تقضمه بأسنانها ثم تبصق القشر ، وما ان أضافت قمر الى جملتها « الله كريم » حتى قالت المرأة وعيناها الصغيرتان حدقتاهما المطموستان بالسواد : « والله مانا

فاهمتك ، انت زي بنتي ، اذا حد يضايقك قوليلي وأنا أموّته ، أنا عارفة فاطمة ملعونة ، وبنت حرام ، بس هي تخاف مني ، قوليلي اذا عملتلك أي حاجة وأنا اقنع قحطان حتى يطلقها . ما يكون اسمي زمزم اذا ما خليتو يطلقها » واهتز توازنها وهي تمد يديها مهددة ، وعادت تصلح من الغطاء ، تركزه فوق رأسها . وقد بدا وجهها حاد الملامح عيناها شيطانيتان ، وقمر لا تزال واقفة ، تعض شفتيها ، تاركة الدموع تهبط بغزارة . لكن ، كأن كلام المرأة بثها حماسة غير طبيعية . عادت تتمركز بعينيها فوق الحجرين تحت شجرة التين حيث الكوة بينها . ثم اقتربت من العنزة التي لا تزال تسعل ، تربت ظهرها ، ثم رفعتها قمر بكلتا يديها واحتضنتها وسارت .

ظهرت قمر في اليوم الثالث تتعثر في خطواتها المسرعة . العنزة تلحق بها . وما تنفست قمر الا عندما وصلت حتى الحجرين تحت شجرة التين ، ورأت الكوة. العنزة لا تزال تسعل. كرهت قمر سعال العنزة هذا الصباح وما شعرت تجاهها بأية عاطفة . سعالها يزيد من ارتباكها . وقفت برهة أمام الحجرين ، قلبها يدق بجنون . طال مكوثها أمام الحجرين والكوة بينهما ، وظلال شجرة التين ولما ظهرت الأفعى ، امسكت برقبة العنزة تجرها وتتعثر ، رفعت الغطاء الأسود وجعلته ينهدل على الارض المتربة غير مبالية . انفاسها تتلاحق ، وتزيد من ارتباكها ، تفك القماش الملتف حول خصرها حيث خبأت علبة من القش متوسطة الحجم . ترفع غطاء العلبة وتخرج منها بيضة وورقة فيها بعض السمن . وتضعها على الارض . تقترب العنزة تمد فمها من العلبة ، ومن البيضة . تأففت قمر وأزاحت العنزة بلطمة خفيفة على رأسها وجرتها بسرعة حتى جذع شجرة بلا أغصان . فكت الحبل الملتف أيضاً

حول خصرها مرتين ، وأسرعت تتعثر وهي تلحق بالعنزة تربط عنقها بالحبل ثم بالشجرة . ابتعدت خطوتين وعادت تتفقد ضيق الحبل حول عنق العنزة . تتلفت حولها قبل أن تمد يدها الى عبها وتخرج وعاء من التنك المسطح . تنحني أمام العنزة تفك كيس ثدييها ، تحلبها بأصابع مشدودة ، لما رأت الحليب يتساقط نصفه على الأرض ونصفه الآخر في الوعاء . تمتمت « بسم الله الرحمن الرحيم ، الله يلعن الشيطان » . تربط الكيس حول ثديي العنزة وتنهض وهي تمسك بالوعاء . تحاول أن تسير بهدوء، لكن خفقانها يزيد من ارتباكها. تتعثر وتلعن الشيطان مرة أخرى وعيناها تحرسان وعاء الحليب حتى وصلت الى الحجرين تحت شجرة التين . ترددت قبل أن تضعه وعيناها فوق الكوة . تنهض ، تجول بنظرها الزائغ ، تنحني فوق البلان اليابس تشده . البلان كان عنيداً ومتماسكاً بالأرض . شوكه أدمى يديها ومع ذلك بقي معانقاً التراب . لم تزح قمر العرق الذي أخذ يتساقط من أنفها وجبهتها ووجنتيها . أخذت يداها ترتجفان وهي تتناول علبة الكبريت ، وتحاول أن تشعل عود الثقاب الذي بلله العرق . تلتفت حولها . كل شيء ساكن . عدا سعال العنزة المتقطع . ثانية تحك عود الثقاب في طرف العلبة حيث لم يصلها البلل . تشهق عندما ترى النار،ترميه فوق البلان الذي سرعان ما اكلها . ثم اسرعت تنشل من عبها وعاء التنك الاخر وتجمع باصبعها بقايا السمن الذي ذاب في الورقة وتضعها في الوعاء . أحست بالسخونة تلسع اصبعها .رفعته الى فمها تلحسه . فقست البيضة في الوعاء وما زالت تكمشه بطرف فستانها . ولما رأت فقاقيع بياض البيضة تظهر وملأت الرائحة المكان انتشلت الصحن من البلان ، وسارت به ووضعته قرب وعاء حليب الماعز .

انسحبت بهدوء تقف قريبة ، بعيدة من الحجرين . وما استطاعت أن تميز بين التعب والخوف . هل قدماها تعبتان ، أم أنهما ترتجفان ، تقلص أسفل بطنها . عندما تتنفس تشعر بألم في صدرها بينما تصب الشمس حرارتها فوقها . وقفت طويلاً ، عيناها على الساحة الفارغة ما بين الوعاءين والحجرين . ولما بقي تلك الوعاءين يبرق تحت الشمس وحيداً مدة . فكرت قمر وهي تلهث : « ربما هكذا أفضل . فإذا ما عادت هذه الساحة فارغة ، بل إذا ظهرت الافعى وزحفت ماذا سأفعل ؟ سأهرب . لن أستطيع مدّ يدي الى جسمها الأشقر ، يبدو أن جلدها تغطيه مادة زئبقية . لن يستطيع جلدي أن يلمس جلدها . انها ماكرة . انها في الداخل غير آبهة برائحة الحليب والبيض . اذا رأت الوعاءين ، أتعرف أنه كمين . أو أنها لا تفكر مثل البشر ؟ ولن تلحظ شيئاً ؟» لكن جحظت عينا قمر ، وما صدقت ما ترى ، مدت الأفعى رأسها قبل أن تزحف الى الخارج . كلما زحفت ، زاد ارتجاف قمر مما خلفته الافعى من علامات جلدها فوق الطين الأبيض . « يجب أن أنقض عليها الآن » . فكرت قمر ويداها فوق قلبها . والعرق قد جمد في كل خلية منها . اقتربت الافعى من الوعاءين ، تمد لسانها تلحس الحليب ثم ترجع الى البيض ، الى الحليب ثم الى البيض . يجب أن أنقض عليها الآن . تحمّس نفسها . تذكرها بألم هذه الليلة الذي سوف يأتي ، وبألم كل ليلة اذا ما انقضت عليها اللحظة . واقتربت قمر من الخلف ، تماماً كما كانت ترى أخاها هلال . الآن . والعرق يزداد . الارتجاف يفوق الارتجاف وجسمها يهتز ، أصبحت في غيبوبة ، ومدت يدها تشد ذيلها من الخلف ، كما كانت تسمع أخاها :الشدة الأولى هي كل شيء ، لأنها الصدمة للأفعى وبعدها يصبح الامساك برقبتها

سهلا . ولصدمة قمر ، أصبحت رقبة الأفعى في يدها . وأخذ ذيلها يلطع قمر وهي تدنيها من علبة القش وتحكم الغطاء فوقها . وأسرعت تشد العلبة بيدها تفك حبل العنزة عن رقبتها بيد واحدة ثم تلفه حول العلبة والغطاء . ثم تضعها برفق على الأرض وتخر جالسة تمسك رأسها بيديها وتشهق باكية . كيف فعلت هذا . وأضخم الرجال هنا لا يجرؤ ون على رؤ ية الأفعى ، كيف الامساك بها . وقصص الرجال كانت تدور حول امساكهم بالضباع وهروبهم حتى من رؤ يتهم لبيض الافعى ! ألم تر بعينها حمد ، جثة على الأرض ، لما أراد أخوه ركان ازاحته عن غصن شجرة التين الوحيدة العالية ، وقال له : « حنش ، حنش » . وفجأة ، رفعت نظرها الى الفضاء : « انه هو الذي أمسك بها ، سامحها . ورفعت رأسها حتى السماء رغم غشاوة دموعها ، لم تر الا الشمس . هو أمسك بها . انه الله . وما استطاعت النهوض . كأن البكاء قد شلها . والخوف يضغط على أنفاسها ، يمسك بقلبها ويحتفظ به . كأن التي في العلبة تتلوى ليست حقيقة . نهضت والخوف الذي تركها بلا قلب يحاول أن يأخذها كلها . وهي تصطك وترتجف تناولت غطاءها الأسود تلتف به ، حتى غطاها وعلبة القش . وسارت تتعثر تتبعها العنزة . وسعالها .

جلست قمر ككل ليلة بين زوجة قحطان الأولى ، زمزم ، والثانية فاطمة ، تضع يدها على خدها واجمة ، رائحة البخور تعم الغرفة ، تسمع أولاد فاطمة يلعبون في الغرفة المجاورة ، تتمنى لو تكون بينهم تلعب . « تسمع فاطمة تقول وهي تتصنع الابتسام ، فالابتسامة تجعل وجهها المستدير يبدو كغرسة ميال الشمس » . « صحيح عمرك بس ستعشر سنة يا قمر ؟ والله باينة أكبر » . لا تجيبها قمر ، بل تنقل يدها

من على خدها ، وتسقطها فوق الحصيرة تخربش قشها ، عادت فاطمة تقول : « ستعشر سنة يا ملعونة ، وبتخللي الراجل ما يبغي الا أنت كل ليلة ، يمكن عندك حاجة نحنا ما عندنا اياها . . ام أمك علمتك كيف تعلقي الرجال بك » وتضحك ، الى درجة يهتز معها جسمها . تمد يدها تحرك البخور ، ويدها الأخرى تعبث بأصابع قدمها . تتدخل زمزم صارخة : « عيب عليك يا فاطمة . ايش دخل أم قمر بالحديث ؟ أنا وعدت قمر بأنك اذا فتحت فمك بأي كلمة حتشوفي . وقمر واجمة ، كأنها تنتظر آخر دفعة من عذاب الليل حتى يفارقها التعب والخوف لهذا النهار . تعود فاطمة تقول : « العنزة بعدها بتشهق » تلتفت زمزم صائحة : « ايش قصدك » تقول فاطمة متصنعة البراءة ، وهي ترفع حاجبيها وقد اكملتهما بقلم أسود : « لا شيء ، والله ، بس دخان الأعشاب ما فاد العنزة باين » . ترتجف قمر ، وتفكر أمن المعقول أن فاطمة رأت علبة القش . انها تدخل دائماً وتعبث بأشيائها . لا ، اذا هي رأت علبة القش لكانت تعالت الولولة . تنفست وجلست تهتز وهي تنتظر آخر شحنة من الخوف . تصرخ زمزم : « الله يلعن وجهك ، وفاطمة الزهراء بقبرها ، بتتمنى لو تبدل اسمها ، انت امرأة داهية ، بلا قلب ، أنا رحت مع قمر المسكينة وشفت بعيني . أنت خايفة ، قلت لك مئة مرة ، فحطان ما يطلق ، ما يرميك وبزورك ، يمكن يتزوج عشرة لكن ما بيطلق . هو راجل مؤمن يتقي الله ورسوله . اتركي قمر لحالها » . وقمر واجمة تستقبل دفعات متتالية من التوتر والخوف والارتجاف ، تضع يدها على وجهها تخبئه ، تلتفت اليها زمزم قائلة : « مالك يا بنتي يا قمر ، باين عليك تعبانة ، قومي نامي » . تضحك فاطمة قائلة بسخرية وهي تخبط كفاً على كف : « تقوم تنام ؟ وايه يعمل

الراجل ؟ ما بتسمعي صوتها ، كل ليلة تنادي : يا أمي تعالي . . . ينادي مئة مرة ، ألف مرة ، أنا تعبانة ، يا أمي تعالي ، واللي يجيها قحطان بالعصا مش امها . . »

لا تزال قمر تخبىء وجهها بيدها ، لا تريد أن تسمع كلام فاطمة ، لا تريد أن تتذكر ما سوف يجري الليلة ، ككل ليلة منذ أشهر لما زوجوها به ، أنها لا تزال تخبىء وجهها بيدها ، بل تشد عليه الآن . أنها تسمع خطوات قحطان البطيئة ، آتية من مجلس الرجال . صوته الأجش ، يناديها الآن : « يا بنية ، يا قمر ، ادخلي حتى ننام » . لا تنهض ، بل تزداد خربشة أصابعها بقش الحصيرة ، تتمنى لو تلتحم أصابعها بقش الحصيرة . صوته من جديد يكهربها : « يا بنية ، تعالي ننام » ولا تنهض تنظر الى زمزم مستغيثة ، وتنظر أيضاً الى فاطمة . تنهض زمزم تختفي ودموع قمر تودعها باستغاثة . تنهض فاطمة وهي تنظر الى قمر بعينين حاسدتين ، تسير بتثاقل من سمنتها وتدخل غرفة أولادها . تبقى قمر مسمّرة فوق الحصيرة ، وقلبها يخفق ، وحلقها قد جف من كثرة ما بلعت ريقها . عيناها عالقتان بقش الحصيرة الملوّن ، أدارت وجهها عندما رأت قدميه الخشنتين العاريتين والشعيرات البيضاء على الاصابع ، والتجاعيد الكثيرة فوق اللحم السميك وكأنها قوائم حيوان . شعرت بطرف العصا تخزها في رأسها . هبت واقفة تركض صائحة ، باكية . اسرع خلفها صائحاً : « يا بنية لا تصحي العيال في الغرفة » .

وككل ليلة تركض الى الغرفة الفارغة الا من خزانة وسرير تختبىء تحته ، تنتظر ، بوجع ، تنتظر . كل ليلة مرت كانت تفكر في زوغان عن الحل وهي ترى طرف العصا تبحث عنها تخزها ، تبتدىء بالبكاء بالصراخ ، تعض شفتيها ، تقرص صدرها . أما الليلة فوجعها يصحبه

خوف عظيم . العصا تخزها الآن بقوة ، وقمر تحت السرير تحـاول أن تتفادى الطرف المدبب الخشن . تحاول التقاطها ، لكنه يشدها بقوة لا تناسب سنواته الستين . عاد يخزها . وهي تهرب ، ثم مد رأسه ، دائماً يمده مرة واحدة ، لأنه لا يستطيع الانحناء هكذا يقول دائماً . وعندما رأت عينيه المقززتين ، ولحيته البيضاء ، بشرته الصفراء ، ولثتـه التـي تحوي القليل من الأسنان حتى استغفرت الله وهي تفكر مقتنعة أنه هو الشيطان بعينه . لم يمد رأسه سوى مرة واحدة . هذا ما يحدث كل ليلة وقد قال لها مراراً أنه لا يستطيع الانحناء تحت السرير من ألم ظهره . لذلك بعد أن تجبره على الانحناء لا يتوقف عن شتمها ، لا يعود يسيطر على غضبه من الألم الذي تحدثه الانحناءة . لذا يصبح وخزه بالعصا لا يحتمل . يخزها وكأنها الحائط . الآن يتوعد ، يخزها أكثر . تبتعد قمـر حتى الزاوية الاخرى . تمد يدها تود دفش علبة القش . لكن ، يدها تجمد . ويطير قلبها . يجب ان تقرب العلبة من العصا يجب . حتـى بزمجرتها تدفش العلبة ، وتقلبها . حتى تهـرب الافعـى وتلتف حول العصا ، حتى تصيح قمر : « خلاص يا قحطان يئست » ، حتى يرتاح قحطان ويلتقط انفاسه لاول مرة وحين يخرج العصا يصرخ من الخوف والالـم . لكن خوف قمر يرتعش يدفع قلبها ويطيّره . يدهـا الجامـدة تتحرك لكن تخبيء العلبة في الزاوية .

وتنهار خططها وأحلامها بأن تنام وحيدة منذ الليل ومن تحت السرير وهي تزحف خارجة تقول مختنقة : « خلاص يا قحطان ، يئسـت » .

ذات العين الواحدة

وقف عجوز في حيرة من امره ، يحدق في الرجل الجالس وراء الطاولة بعينين غائرتين . رفع كفه يمسح بها العرق عن جبهته ، وعن وجهه المليء بالتجاعيد . ما حرك كوفيته وعقاله رغم احساسه بالعرق النافر من صدغيه ورقبته ، وما اجاب الرجل الجالس وراء الطاولة الذي عاد يسأله مجدداً : « لماذا دخلت تفتح ابواب الغرف تبحث عن زوجتك . لماذا لم تأت رأساً الى الاستعلامات ؟ » صمت العجوز . لكن ، لما اخذ الرجل الجالس خلف الطاولة يفتح درجاً تلو آخر ، وانشغلت عيناه ، قال : « أريد المستشفى وام العيال جت هنا اول امس » .

تأفف الرجل الجالس وراء الطاولة ، ولام نفسه لانه لم يتعلم حتى الان كيف يستفهم ، يأخذ ويعطي في الحديث ، وكيف أن اسئلته المبطنة بالشرح واحياناً بالضيق لا تنفع ، نفث سيجارته وهو يسأل بضجر: « ما اسم حرمتك؟ » أجاب العجوز بسرعة: « زينب محمد » أخذ الرجل الجالس وراء الطاولة يفلش صفحات دفتره الغليظ ، محدثاً جلبة كلما قلب صفحة سمعها كل من يجلس على مقاعد الانتظار . اخذ يفلش صفحات دفتره مقلباً شفتيه بملل ثم بعصبية ، وعاد يقدم الدفتر من وجهه حتى قال اخيراً : « هي حرمتك دخلت هنا اول امس ؟ »

« اجاب العجوز بسرعة وبانفراج : « ايوه ، طال عمرك ، لما قلبها وقف » . تضايق الرجل الجالس خلف الطاولة مجدداً وهمس لنفسه « لو قلبها وقف ، ما كانت هي هنا ولا انت » . قال وعيناه لا تز الان فوق الدفتر « هي في غرفة 4 ، لكن ممنوع تدخل غرفتها في حريم غيرها » . وبتثاؤ ب نادى الممرضة المستندة على جدار . تقدمت وفي يدها كوب من ورق تشرب منه . قال وهو يشير برأسه الى الرجل الواقف : « غرفة رقم 4 ، زينب محمد » . سارت الممرضة ، وما رفعت فمها عن الكوب . تساءل العجوز ، كيف تعمل هذه المرأة في مستشفى يغص بالرجال ! رغم انها تتكلم العربية . وصلت الممرضة الغرفة . وتركته في الخارج بعد ان اكدت عليه الانتظار ثم خرجت بعد برهة لتقول له : بالداخل حرمتان بأسم زينب محمد ، لكن احداهما بعين واحدة ، من هي زوجتك حتى اناديها .

ارتبك العجوز ، عين واحدة ؟ كيف لي ان اعرف . وحاول ان يسترجع شكلها ، في خياله زوجته زينب ، بالفستان الطويل والملاءة السوداء ، والبرقع ، والغطاء الاسود احياناً يغطي وجهها . واحياناً مطروح على رقبتها . رآها تسير وتجلس ، تمضغ لقمة في فمها وتعود تنتشلها لتضعها في فم طفلها الاول . اطفالها . عين واحدة . كيف لي أن أعرف . ورآها متمددة في سريرها مغمضة العينين . ورآها تصلي وتركع ، عينها ؟ لكنه يحفظ صوتها من مئات الاصوات . وارتبك العجوز ووجد نفسه يقول : «لما بناديها هي بتعرف صوتي . . » شكت الممرضة بانه يزور زوجته لكن ، وهي تلقي نظرة اخرى عليه ضحكت من ظنونها . وعادت تسأله : منذ متى وأنتما متزوجان ؟ ارتبك مرة اخرى وهو يقول : « الله اعلم ثلاثين ، اربعين سنة . . »

الكنار ، الحسون وماريا

تسمع ماريًا صرخات لا تفهمها . مع ذلك تهجم على النافذة تزيح ستارة القش الناعمة بيدها . تلصق وجهها بالزجاج . وفوقه صفحة غبار . ترى عمالاً من الهند أو من الباكستان . كأنهم خرجوا للتوّ من كتاب علاء الدين بسراويلهم الواسعة الملونة المزمومة عند الخصر ، وعند القدمين . وبقمصانهم الفضفاضة الطويلة . بقماش بهت لونه من الشمس ، يلف رؤوسهم وكأن كل منهم مهراجا احيل الى التقاعد .

تسمع هذه الصرخات ، رغم مكيف الهواء ، والنوافذ المحكمة الاغلاق . لأنها أصبحت حساسة لأي صوت يختلف عن صوت المكيف وغسالة الملابس وصوت العصفورين . أصوات العمال خرقت هدنة اذنها والروتين القاتل خرق ظهرها ، مساءها . انهم متجمعون وكأنهم بانتظار شيء ما ، لكن يبدو ان هذا الشيء لا يعنيهم . وجوههم خالية من الترقب . وأجسامهم قد اتكأت بعضها على بعضها ، استندت الى الجدار ، وجلست فوق الحجارة . وما لبث ان امتد فتور الرجال اليها . فقدت الحماسة والفضول لتعرف ماذا جاء بهم قبالة بيتها . تهالكت على الكنبة . فعل جلس لا يتطابق معها في هذا البلد الصحراوي . هي دائماً في وضع مسطح . ساعة وهي تقنع نفسها حتى تحضر فنجاناً من القهوة . ولا تنهض . ساعة اخرى وهي تقنع نفسها لتستحم . ساعة

ثالثة تمضي وتقنع نفسها بالنهوض لتأكل . لكنها تتذكر وتتساءل كيف سأدخل المطبخ ؟ لا مكان لي فيه . الاطباق وفضلات الطعام وقناني عصير التفاح والماء فارغة . قشور الجزر والبرتقال . ساعات تمر وهي لا تزال جالسة في وضع مسطح . وأكواب الشاي والعصير فوق الطاولات منذ ليلة أمس . مكيف الهواء يضج ويهز الغرسة ، النصف ميتة . بقايا السكائر في المنافض وفوق السجادة . كيف تواجه غرفتها ، السرير ، عليه كل ملابسها ، وملابس زوجها ، بينما الخزائن فارغة التعاليق . صمت ، الكنار الاصفر يبتدىء بالتغريد ، لكنه لا يكمل . تسمع ماريا زوجته الحسون تقفز من قضيب لاخر . حركتها تحدث جلبة . الكنار يبتدىء من جديد ، لكن الحسون تصيح ، تطير في القفص بضيق ، كأنها اكتشفت لاول مرة أن القفص لا يتحمل عصفورين .

نهضت ماريا تزيح الستارة . ربما الحسون تريد ان ترى النهار ووضوح الشمس . لما اقتربت من القفص ، لاحظت لا ماء ولا حبوب في الوعاءين . ابتسمت . انها حسون واعية . كان يجب التكهن سريعاً أنها لا تتصرف على هذا الشكل الا عند الضرورة . يعود الكنار يغرد ولا يتوقف الا عندما تداعبه الحسون بنقرة عند رأسه . هنا يتوقف ويميل بجسمه عليها . ينزلان درجات السلم الصغيرة وثبة ، وثبة . هو متكىء على جناحها حتى يصلا الى أرض القفص حيث يقضيان معظم النهار . كان يبدو ان النزول على السلم يتعب الكنار . وكانت الحسون تشعر بتعبه هذا . لذلك عندما كانت ماريا ترمي اليهما بالخس وبقطع التفاح . تتركه الحسون يتلذذ بنقر هذه ثم تقترب وتشاركه عندما يحيد خطوة فاسحاً لها في مكان بجواره . كانا يتلذذان أكثر وهما يأكلان

معاً . قاما بتوقيت خطة انكبابهما ثم رفع رأسهما معاً حتى أصبحت حركتهما آلية.

الحسون واعية ، مرهفة الحس ، عصبية ، أنثى حقيقية . هي انقذت حياة الكنار عندما انغرز طرف السلك المسنن الذي كان يكمش مبرد منقارهما في خاصرته . عندما رأت الحسون الدماء فقدت عقلها . صاحت بكل ما فيها من قوة . اقتلعت شروش صوتها من حلقها الصغير . تفكر ماريا : « كنت جالسة في وضعي المسطح ، فلاحظت أن صوتها تبدل . فيه استغاثة . نهضت لأرى الدماء غطت لون الكنار ، ولطخت حديد القفص . لبثت برهة لا اعرف ماذا أفعل . فأنا ما مددت يدي قط الى عصفور ، أو الى حيوان . ماذا أفعل ؟ وثبات الحسون جعلتني أشعر بأن صبرها تلاشى . وأنا كالمخدرة اكتشفت اني ما زلت في قميص نومي . مشعثه الشعر . اسرعت التف بروب الحمام . امسك بالقفص . افتح الباب ولا ارده خلفي . أقطع الطريق حافية . أقصد بيتاً قبالتي . أدقه . تفتح لي امرأة أجنبية مثلي . وما سألتني ما بي . رأت الدماء في القفص . اخذته من يدي . وضعته فوق الطاولة بهدوء . فتحت بابه أخرجت الكنار الذي قاومها رغم حالته . رأيتها تتفحصه بهدوء ، ورأسه قد بان من خلال قبضتها اصغر مما تصورت . الحسون ما توقف قفزها من قضيب لاخر . تريدنا المباشرة في انقاذه . جارتي تقترح أن آخذه الى المستوصف الانكليزي . هززت رأسي وسألتها هل في وسعي استعمال الهاتف . وما استطعت التحدث الى زوجي ، انه في الورشة . فكرت للحظة في الانتظار حتى المساء . كيف والكنار ينحني كالعجوز ، والحسون التي لا تزال تقفز من جهة لاخرى . عدت أدير الرقم وأتحدث مع الذي أجابني : « الحين ،

محمد ، سواق » . ضحك محدثي وصحح لي بما معناه أنه فهم علي ثم سألني : « أنت مدام طوم ؟ » اجبته : « أيوه . محمد ، الحين » سمعت ضحكته مجدداً وأنا أضع السماعة . شكرت جارتي وأنا أسحب القفص ، سمعتها تسألني لأزورها فانا لا بد أشعر بالوحدة مثلها وبالضجر . كذبت عليها قائلة بأني أساعد زوجي بالطبع على الالة الكاتبة .

القفص أمامي على الارض . انتظر محمد . الكنار نفس ريشه حتى بدا كمكب صوف اصفر . ضاع رأسه . أرى مكب الصوف يرتجف ، يهتز ، هل هو يموت ! الدماء تتوقف ، لا اثر للدماء في القفص . نظفته جارتي . لماذا استطاعت الامساك به ، واستطاعت أن تمد بالخرقة المبلولة وتمسح الدماء ؟ أنه لا يزال ينفش ريشه ويهزّ ويرتجف . اقتربت أريد أن أرى عينيه . لما فتحهما فرحت . لكن سرعان ما عاد فاغلقهما . لبث برهة وكأنه تمثال لا يتحرك فيه شيء . وعاد يغرق رأسه . انهض الى النافذة ازيح الستارة . أرى سيارة واقفة على بعد أمتار . أفكر ماذا يحدث لو اقودها وأطير كالسهم . أسدل الستارة . دقائق تمر ومحمد السواق لم يأت . تعود الفكرةتطل . لكن طاردها شبح ممنوع على النساء القيادة هنا . تعود الفكرة . واذا هم رأوا الكنار المتألم ؟ . . أنهض الى النافذة أزيح الستارة من جديد ، السيارة لا تزال تدعوني للطيران . وظهرت فجأة سيارة محمد . امسكتُ بالقفص وأنا أفتح الباب قلت لمحمد مشيرة الى الكنار : « دكتور » . ابتسم محمد ، وقد غرقت هذه المرة عينيه في وجهه الذي لا يزال يحمل آثار الجدري وقال : « دكتور ، العصفور ؟ » هززت رأسي وأنا أقفل الباب خلفي . وقال بالانكليزية : « نو دكتور . نو » . حاولت أن أشرح له أن في المستوصف

الانكليزي طبيباً بيطرياً . عدت فأخبرته بالانكليزية . وأنا أعرف تماماً أنه لن يفهم علي . قلت له بالعربية : « أنا وأنت بروح دكتور انكليزي » . فهم محمد بُعد مسافة المستوصف وقال هذه المرة عابساً : في الدكان كتير عصافير . في كنار ، ببغاء ، حسون » . وجدتني أقول منرفزة : « لا . لا أحب كنار » . وأنا أحمل القفص وأسير باتجاه السيارة . أدخلت القفص ثم دخلت . خبط محمد الباب وراءه خبطة قوية . وما ابتسم الا عندما دخلنا الغرفة المخصصة للحيوانات . ورأى الكلاب محضونة . القطط اما في علب كرتون مثقوبة . اما في صناديق بلاستيك بيضاء مشقوقة من الجانبين . أسنان محمد الذهبية بانت عندما سألتني الممرضة عند طاولة الاستقبال عن عمر الكنار ، واسمه ، وما به ، وعن عنواني . جلسنا ننتظر ، والقفص أمامي . الكنار فتح عينيه ، الحسون ما عادت تثب . جمدت في مكانها . دنا مني محمد وهو يشير بيده الى القطة التي تموء وقد الصقت وجهها بقضبان صندوقها ثم الى القفص وقال : القطة تبغي العصافير » .

سألت الطبيب قبل أن ينتهي من معاينة الكنار : « هل يعيش ؟ » أجابني بثقة : « أجل ، لكنه سيعرج ، وسيكون تنقله صعباً » . في السيارة رأيت وجه محمد في المرآة يضحك . وهو يحاول أن يفهمني أن هذا المستوصف أفضل من أهم عيادة في اليمن .

عندما وصلت البيت ، اكتشفت أني لست تعبة ، وأن الحر ما تسلل الي ، وأنا أطوي السلك الحديدي لاعمل منه درجات للكنار ولاحظت اني بكامل قوتي وصحتي . بعد أيام ، بعد أشهر . اكتشفت أنه اليوم الوحيد الذي أستطيع أن أسجل مروره في هذا البلد الصحراوي . كان

يوم أصابة الكنار ، واليوم الاخر الـذي ظننـت أنهـم قد يسمحـون لي بالعمل .

تسمع ماريا صرخات من جديد . هل تنهض ؟ ماذا سوف ترى غير العمال ، تعتقد أن هذه الصرخات تصدر عن آخرين. فهم جامدو الملامح ، الصرخات تزداد . تنهض ، تلصق وجهها فوق صفحة الزجاج ، وتراهم ، عشرات . اصطفوا صفاً طوليا هذه المرة ، فوق كتفهم اليمين شريط أسود غليظ . انهم يسيرون على مهل . وجوههم لا تزال فاترة . غير مبالية . لا تعتقد أن هذه الصرخات تصدر عن هذه الوجوه . لكن ، لماذا هم يسيرون وهذا الشريط التخين فوق كتفهم . وما عادت ترى وجوههم . ترى ظهورهم الآن . لا يزالوا يسيرون على مهل والشريط لا يزال فوق كتفهم . عددهم يفوق الخمسين . تنتبه ماريا بأن هذا الشريط له علاقة بالارض المحفورة منذ أشهر . انها أسلاك للهاتف أو للكهرباء . أخذ صف الرجال يتباعد . وظهر كأفعى صحراوية ملونة . والشريط الغليظ على كتفهم افعى أخرى سوداء . العشرات الاوائل ينحنون به حتى الارض المحفورة يساعدهم آخرون . والان ترى من النافذة الاخرى بكرة خشبية ضخمة كالتي رأت مثلها مرمية أينما كان . تراها الان مرفوعة ، في وسطها سيخ حديدي غليظ . ما ان يسير الرجال حتى تكر خيطانها . تنهض ماريا الى المطبخ تأتي بتفاحة ، تقضمها وهي تفكر : لو يمر كل صباح ، كهذا الصباح . ترى نفسها عادت الى نشاطها . وجود العمال حول بيتها حدث . مراقبتها لهم الهتها عن التفكير ، بالساعات ، بالايام التي تمضي هنا كقافلة لا تصل هدفها ، انما تتوه في الصحراء . يجب أن انهض . يجب أن أضغط احساسي وأنهض . أنا لست الامرأة المكبوتة

الوحيدة في هذا البلد . ولست الوحيدة التي يمر عليها الوقت دون أن يترك آثاراً في السماء أم على الارض . هي تعرف أنه في النهاية يبقى الانسان لنفسه . تعرف أن هناك أشخاصاً ضجرون حتى في مدينة نيويورك . لكن هم اختاروا الضجر ، انسلوا من الضجيج . لم يفرض عليهم اللاشيء . هي هنا في اللاشيء . كأنها في كبسولة فوق سطح القمر . لا تستطيع أن تفتح النافذة . والا دخلت الرمال والغبار ومعها البرغش والذباب والرطوبة ولهاث الرجال المارة .

تنهض الى النافذة . لو أنها في بلدها الان ، تطل على الاشجار والبنايات الجميلة والسيارات اللامعة . تستطلع الامر اذا كانت سوف تمطر ، واذا كانت الشمس ستسطع . كل ما تراه هنا غريب عنها ولا تحبه . من حولها . لا شوارع ، لا أرصفة ، لا طرق فرعية . إنما اسفلت وفوقه ركام تركه العمال بعد ان انهوا بناءهم لبيوت متشابهة . ورش البناء كثيرة العدد . لدرجة أن ماريا تشعر بأنها داخل ورشة بناء منذ ست سنوات لم تنته بعد . كانت أيامها ونشاطها يمضيان ، يجرفان معهما تفكيرها وهي تركض تسد الحاجات اليومية . والتي يجب أن تكون موجودة كوجود الأوكسجين في الهواء . والمفروض أن تشعر باكتفاء ذاتي ، وبفرحة عامرة لأنها استطاعت الحصول على لحم جيد . وايس كريم ماركة ولز كالتي تشتريها في بلدها . وبان السائق استطاع أن يمر عليها في الوقت المحدد ، يأخذها لتزور امرأة أخرى ، لكن ماريا قطعت هذه الزيارات بعد أن تكرر المنظر . اذا تكلمت المرأة كانت تقول كلام ماريا . واذا تكلمت ماريا كانت تقول كلام المرأة .

تعود ماريا الى وضعها المسطح . تعانق نفسها بذراعيها . وتفكر

بأنها اشتاقت للبرد في الطرقات . لا لبــرد مكيف الهواء الذي سمعت صوته طوال ست سنـوات عدا شهر اجازة في الصيف ، لترجع الى هذا البلد أكثر ضجراًوندماً ومرارة. وتسمع نفسهاتقول بصوت مرتفع : ماذا أفعل ؟ قلت لزوجي مئة مرة اني سأنسى كوني امرأة تحمـل شهـادة في الاقتصاد وتريد أن تعمل وتنتج ، أريد أن أكون امرأة عادية هنا ومـع ذلك علي أن أنتبه كل دقيقة الى طول فستاني . واذا كان هذا القماش يظهر لحمي تحت البلوزة. أريد أن أنس شعـري . لا أن أربطـه لان الشعـر الطـويل الاشقـر يهيج الرجـال هنـا . كل شيء غريب حولي ومصطنع . حتى الشمس لا أستطيع الاستمتاع بها . أريد أن أدخـل الدكاكين وأسمـع الموسيقـى، أريدأن أجلس وحيدة أو مع صديقـة في المقهى، أريد أن أتنفس. لا أريد أن أعيش هنا. مـاذا أفعل؟هـل أترك زوجي ؟ لأعيش في بلدي ولا أراه الا في الاجـازات ؟ ويلمـع هو في خيالها ، وهو ينحني يربط شريط حذائـه ، ظهـره الـرياضي الجميل ، رغوة الصابون تغطي وجهه وهو يحلق وتظهر عينـاه الحنونتـان . وهـو يمسح العرق عن وجهه ، لوحته الشمس . يلمع في خيالها وهو يضمها الى صدره كلما ناقشتـه بأمـر رحيلهما عن هذا البلـد ، وهـي تحـاوره يائسة ، يلامس وجهها شعيرات صدره وتختفي دموعها ، وهـي تشـم عرقه مختلط برائحة الصابون المحفورة في الذاكرة . وتأخذ بقبلاتها فوق صدره تردم ضيقها ، تطوي الايام الطويلة . تشعر وكأن هذه اللحظات التي تحفر قبلاتها في صدره تعادل أشهر اختناقها . رائحتـه تخدرهـا . صورته تلمع في ذاكرتها وهو يجلس في يديه كتاب . وهو يقـود سيارة اللاند لوفر ، وهو يمسح العرق عن وجهـه ، وهـو يمسـك بيد ابنتهما ويضـمها اليه قبل ايداعهـا المدرسـة الـداخلية . وهـو يقـول لي كلما

تشجنجت وفاتحته بالموضوع : « مستقبلنا هنا » . هذه فرصتنا الاخيرة . انني أتقاضى أربع مرات ما أتقاضاه في انكلترا . وأنا سعيد في عملي . وعندما أصيح به : « وماذا عني » . يرد بمواساة : « تحملي . . سنوات قليلة ونرجع » وعندما أصيح : « لكن هذه السنوات تمضي من عمري وكأنها فقاقيع صابون . . بعد أشهر أتخطى الاربعين . ما أنجزت شيئاً » . كان يربت يده فوق كتفي ويمسح شعري ويصمت .

شيء ما قد تبدل في البيت ، هدوء لم تعتد عليه ماريا من قبل . هدوء لدرجة أنها تسمع زقزقة الحسون وهي تطير في ارجاء البيت لدقائق كما عودتها . لقد سكت مكيف الهواء ، تخاف عندما تتذكر كم يأخذ من الوقت تصليحه ، تفكر كيف ان الانسان عليه ان يدخل لعبة التفاصيل اليومية أينما كان ، تدير زر المروحة المثبتة في السقف وما أن تصل المطبخ حتى تصرخ : « الحسون » تركض ، تراها على الأرض ، هل هذه دماء تغطيها ام انه لون جناحيها . تركع بقربها . انها دماء ـ لاول مرة تمسكها بيدها ، تضعها في راحة كفها ، تدنيها من فمها . تقبل رأسها الصغير . تبكي وهي تنظر الى المروحة التي لا تزال تدور وكأنها الة عذاب جهنم . تقرص باليد الاخرى وجهها : « هل لن أرى بعد الان رأسها الصغير فوق رأس الكنار ، وجناحيها فوقه تغطيه » . تعتريها موجة من عدم التصديق ومن الهستيريا : « أريد من يشاركني ألمي » . تمسك الحسون بيدها ، تدنيها من الكنار لربما استطاع أن يفعل لها ولي شيئاً . . انه يشرب الماء ويرفع رأسه يبلعها قطرة ، قطرة ، كأن الكنار لم يفهم ما حدث في بداية الأمر. يدها لا تزال تمسك بالحسون وتدنيها من القفص . تضعها في القفص يجب أن يلقي الكنار عليها النظرة الاخيرة . يجب ان يداعبها كما كان يفعل دائماً . ينهض الكنار بعد أن

صدر عنه صوت . كأنه أراد الطيران ، وارتطم وجهه ، ارتطم رأسه وخر على الارض . لكنه نهض وعاد يصعد درجات السلم ببطء ويعود يرمي نفسه من أعلى الدرج فوق الحسون . جنون مسّ الكنار . بجنون أخذ يصعد الدرجات متكىء على نفسه ، ثم بجنون اخذ يترك نفسه يرتطم بحديد القفص ، وما اكتفى بل اخذ يخبط رأسه وهو واقف بحديد القفص . وأخذت أبكي ومددت يدي اخرج الحسون غير مبالية بنقر الكنار ليدي . لكنه ما نسي ما حدث لها . بل فعلي هذا هاجه . آلمه . كأنه يتصور الايام التي سوف تأتي وهو يعيشها بدونها كهذه اللحظة وحيداً ، عاد يخبط رأسه خبطات متتالية حتى خر فارشاً ريشه بلا حراك .

بنت اسمها تفاحة

ما تزوجت تفاحة ، قاربت سن الاربعين ولم تتزوج بعد . لم يكن السبب في سمرتها الداكنة . كثيرات في مثل لونها تزوجن . ولا اسمها . هذا اخر ما يهم الزوج . عدا ان بنات الواحات يسمون احياناً باسماء الفاكهة وصديقتها موزة تزوجت في العام الماضي .

الحظ ؟ الصدف ؟ او عناد تفاحة الذي رفض ويرفض رفع علم الزواج على سطح البيت ؟ رغم ان رفعه لحظة ما تطل العادة الشهرية على الفتاة ـ لاول مرة ـ امر طبيعي في الواحة . لكن تفاحة رفضت ، توسلت ، وبكت وهي تخبىء وجهها وتقول لوالدها : « يابا انا ما ابغي » . ظنت والدتها ان تفاحة خجلة من ان يعرف كبار الواحة وصغارها انها لحقت النساء . فهزت رأسها مومئة لزوجها الذي فهم وترك تفاحة .

بعد شهر . لما صار الموضوع منسياً نوى والدها ان يغرس العلم الاحمر في صفيحة ملأها تراباً . لكن تفاحة ركضت تستجديه ودموعها تنهمر : « يابا ، ما ابغي » . ولم يفهم ، سألها والحيرة بدت على لهجته : « يعني ما تبغي تتزوجي ؟ » اجابته ولم يفهم ما تعني ، رغم انه سمعها تقول : « ابغي لكن ، ما ابغي العلم » . ولم يتوقف بكاء تفاحة بل ازداد ووالدها يصفق كفا على كف وهو يردد : « لا حول ولا

قوة الا بالله العلي العظيم » . كيف ؟؟ وجدتها ، وامها ، وخالاتها ، وعماتها ، وكل انثى رأت النور في هذه الواحة تزوجت بطريقة العلم . ولم يشرح لها اهمية رفع العلم . فهي تعرف ، بل حفظته كما حفظت وجهها ، ان العلم هو ربما الطريقة الوحيدة لتزوج . فهذه الواحة الوحيدة التي لم تعد تعتمد على الخاطبات منذ اجيال . منذ الخاطبة هنده ، التي فرقت اكثر مما وفّقت ، وكانت تصف عروستها دائماً بانها ست الحسن . وعريسها قمر الزمان ، يركب الخيل . كانت عروستها سمراء فاتنة ، وبيضاء كوجه اللبن ، وعريسها يملك عشرة جمال ، وكان الاهل يوافقون بسرعة على هذه الصفات وهنده تقسم اليمين تلو الاخر بانها حقيقة ، وبعد ليلة الدخلة كانت الصيحة تعلو . عدا ان الواحة يؤمها الكثير من الغرباء . يوقفون قوافلهم ، فترعى جمالهم لساعتين ، حتما لن يطرأ الزواج على بال احد في هذا الوقت ، لكن ، والاعلام الملونة ترفرف فوق السطوح فاذا برفرفتها تخدش قلوب الرجال . فتحن قلوبهم لزوجة من هذه الواحة .

رفضت تفاحة العلم الاحمر ، رغم ان والدها حاول ان يغرسه في صفيحة تنك قلّت رمالها مع مرور الوقت ، وغطى الصدأ لمعانها . حاول ان يشك العلم دون معرفتها ، لكن تفاحة لم تدع الليل يمضي وعلمها تحرسه النجوم . انزلته وهي تنحني تقبل قدمي والدها وهي تقول باكية . « ما ابغي » . ولم يفهم والدها سر رفضها بل ظن ان سوء الحظ قد اختار ابنته تفاحة لتكون عانس الواحة لهذا الجيل .

حاول الشك ان يوسوس لامها ، لكن كيف ، وتفاحة ككل بنات الواحة لا يفارقن منازلهن ليلاً نهاراً . واذ فارقنها كن ملتفات بالعباءات

ومغطيات الوجه ودائماً برفقة احد . الايام تمضي وتفاحة بقيت تساعد والدها في دبغ جلود الاغنام في البيت ، بعد ان تعبىء الماء من البئر ، وتكنس وتطبخ ، ثم تجلس خلف النول تغزل بخيوطها التخينة بساطاً من وبر الجمل ، تفكر بنفسها وفي سبب رفضها رغم انها تحب وتتمنى ان يكون لها زوج وبيت خاصتها . وهي تحب الاولاد . تود لو تنجب الكثير . لما عادت وسألت نفسها ، اكتشفت ان سبب رفضها بسيط ، انها تخجل من العلم ورفرفته فوق سطح بيتها . لما قالت هذا لوالدها انفرجت اساريره وتوسم خيرا وهو يجيبها بالحل الذي وجده بسرعة ، ونهض لتوه يود غرس العلم فوق سطح عمها الاعزب ، بعد ان قال لها مطمئناً : « ابشري من يتقدم ويطرق باب عمك ، يدله على بيتنا » . ولدهشتها وجدت نفسها ترفض بشدة ، واستغربت رفضها والعلم يكاد يفلت منها فهو احمر اللون اذا هي تحت سن العشرين ، أزرق : حتى الثلاثين واخيراً العلم الاصفر . فكرت تفاحة : « ان شاء الله اتزوج وانا تحت جناح العلم الازرق » .

لكنها لم تتزوج . الايام تمضي ولا تعود ، حتى العلم الازرق يكاد يفلت من سني عمرها ، ومع ذلك رفضت تفاحة رفرفته فوق السطح . بل كلما مرت ببيوت الواحة الترابية ورأت الاعلام الملونة تلاعب الهواء ، ضحكت في سرها وقالت : « مجنونات ، خفيفات العقل » ، ومع ذلك فتفاحة تحسد العروس وهي تحني يديها لتحضر العرس ، تغصّ عندما ترى العروس تجلس كالاميرة ، والكل يغني ويرقص ابتهاجاً لها . وعندما كانت تنطلق صرخة خضرة القابلة ، تجد تفاحة نفسها تركض الى بيت المولده تحمل المولود الجديد ، تكحل عينيه ، وتدهن جسمه بالزيت وتتمنى لو انه من لحمها ودمها .

طار العلم الاحمر . ثم العلم الازرق . قفز عمرها عن الثلاثين ، رغم ان تفاحة هزت كتفيها لا مبالية . الا ان الضيق ونفاذ الصبر اخذت تعرفهما . فهي لم تر نفسها تتذمر من قبل في العمل في البيت ، ومن مساعدة والدها . لم تجلس قط خلف نولها ، تسحب الخيوط الصوفية وتلفها بعصبية وبلؤم . تسأل نفسها ، كما سألت نفسها : « لماذا ارفض الزواج ؟ رغم انني احن لزوج يكون تاج راسي واولاد يقفزون حولي . اني اخبىء كل ما هو جميل من قطع قماش الى فص فيروز الى بساط متين ليوم زواجي ؟ . » ادارت وجهها ، واستطاعت ان ترى ظل سعف البلح على جدار غرفة المجلس . ورأت فستان امها معلقاً بجانب ثوب الصلاة ، شعرت فجأة بعاطفة لكل ما رأته وظنت انها قد توصلت الى الجواب هذه المرة . فقالت بصوت سمعته : « ما ابغي اترك هالواحة » . وهرعت الى والدها تقول : « ما ابغي اترككم . . واترك الواحة يابا » . انفرجت اسارير والدها . ووجد نفسه بنقه ويقول : « ما يخالف يا تفاحة عيني ، اللي يتزوجك غريب عن واحتنا ، راح اعطيه ثلاثة جمال وابني لكم بيت واسكنه بواحتنا » . نهض ينحني تحت السرير ، يسحب سلة كانت تفاحة قد اشتغلتها من سعف النخيل . لما بان طرف العلم الاصفر ، ركضت تفاحة تقبل يدي والدها تبكي وتصيح ورأسها يكاد يفارق جسمها ويضرب الجدران . وتركت نفسها تشهق وتبكي من نفسها وعلى نفسها لانها ترفض . لانها لا تستطيع السيطرة على عنادها . فجر اليوم التالي . وبعد ليلة مؤرقة ، اجبرت خلالها نفسها على القبول . وعجلت بالقول لابيها ، بعد ان اشفقت على وجوم وجهه والحزن الذي ارتسم على تجاعيده . لكن وهي ترى العلم الاصفر يلوح في يد والدها المرتجفة ، حتى خرت على قدميه

تستغفره ومن جديد ، رافضة ان يغرس العلم .

تبدلت تفاحة ، كأن داء السواد وصل اليها . اخذت تزداد عبوساً . نحالة وحزناً . تتضايق من امها اذا صبّحتها بالخير ، من والدها اذا مسّاها بالخير . لكنها لم تترك مضايقها تعبر جسر داخلها .

هذا المساء وهي تمسك بالخيطان تسأل نفسها السؤال الذي تفكر به وتسأله كل دقيقة من يومها ، حبست انفاسها ثم زفرت زفرة طويلة . امسكت هذه المرة بالجواب الصحيح وكان بسيطاً : ربما سيرفرف العلم لمدة شهور ولن يتقدم احد . واكون كالضأن وكسلة التمر معروضة للبيع . وجدت نفسها تفصح عن خوفها لاول مرة : « ربما لن يتقدم لي احد ، وكل من في الواحة سيرى العلم كيفما التفت ، وسوف تعمه الشفقة علي لأني بضاعة كاسدة» . تعود تلوم نفسها مقهورة : « لكن ، لماذا كان هذا السبب الواضح ، البسيط لغزاً ما استطعت حله الا عندما شارفت على الاربعين ؟ » وجدت تفاحة نفسها تهب تنحني تحت السرير ، تجر السلة بهدوء ، خوفاً من ان توقظ امها ، وتأتي بالعلم الاصفر الذي لم يحتاج اي بيت الى غرسه . تصعد سلالم السطح بينما تغط امها ووالدها والواحة في النوم . بعدما ايقن الجميع ان الزواج قد رحل عن تفاحة الى الابد . فايامها معدودة والعلم الاصفر كان سيفوتها . لذلك ما عاد فتح لها سيرة الزواج احد . بل اخذوا المسألة واقعاً .

تحت ضوء النجوم . رفعت تفاحة وجهها الى السماء واستشهدت بالله ، ثم ركعت تثبت العلم في التنكة وهي تفكر بان الواحة صغيرة ، وعدد رجالها قليل ، ولا وجود للخاطبة نزلت السلالم . وتنهدت وهي تجلس في البيت تنتظر دقاً على الباب .

الحمامة في الصحراء

دق قلبي واخي وائل يدخل حاملا الصندوق الخشبي. لا يزال كما تركته منذ اسبوع. عقد الخرز الازرق حول المسمار. كلمة ما شاء الله مكتوبة باللون الازرق . جملة ممنوع اللمس ، خطر الموت باللون الأحمر . فتحت بابه قبل ان ادع وائل يضع الصندوق ، لأراها كالعادة بيضاء ، واقفة . عيناها السوداوان تدوران . عندما حاولت امساكها طارت حتى الزاوية الأخرى من الصندوق وقد ازدادت حركة تنفسها . مسحت عرق يدي في ثوبي وامسكتها . ما قاومت ، وما تحركت . لقد عرفتني ، ظل رأسها الصغير ساكنا . عيناها توقفتا عن الدوران . تحسست ريشها وعدت أقربها من فمي واقبلها . كانت ساخنة لدرجة استدرت اسأل وائل عن السبب . لكنه كان قد اختفى بين الغرف . قبلتها مرة ثانية ، وتركت خدي ينام برهه على بطنها الذي اخذ يرفع خدي بريشه ثم ينزله بحركة خفيفة . عدت امسكها بين يدي ، ولدهشتي رفعت قائمها كالعادة . عندئذ غمرني حب وحنان لها ولزوجي . وجدتني اطيرها في البيت وهي تطير وتحط على زجاج الطاولة ، على حافة الكنبة ، كان قلبي يطير ويحط معها ، صفقت بيدي وانا افكر اني استطيع مراقبتها النهار كله . ورأيتها كالعادة تدخل الصندوق بهدوء كلما سمعتني أصفق . جلست على الكنبة الجديدة .

تسربت الي رائحة السكائر . وائل في مكان ما يدخن . كلما ارسلته امي وفتحتُ له الباب . كأني افتح رئيته ، مع ان وائل قد أتم التاسعة عشرة فهو لا يستطيع التدخين امام والدي ، رغم اني لا اتصور والدي بدون خط دخان ينساب من انفه وفمه . لن يحدث هذا مع اولادي . سأدعهم يفعلون كل ما يريدونه ، طبعا في حدود المعقول ، تحت الشمس وامام الدنيا كلها . ابتسمت لأنـي فكرت بأولادي ، لا بولـد او بولـدين . تغمرني الان سعادة خاصة . الحمامة البيضاء جعلتني اكمش احساسي بأن زوجي هو خالد نفسه الذي احببته واحبني طيلة خمس سنـوات . الذي ما كففت عن التفكير به يوما واحدا . حتى وأنا اصارع آلام العادة الشهرية التي تمسكني من شرايين بطني وتشدني ، تلف ألمي حتى يصبح في كل لف ومسام . حتى انها كانت تضـع فوق ظهـري حجـرا ثقيلا ليتركني بعدها مشلوله ، مع ذلك كنت اهمس في داخلي :

« خالد ، آه يـا خـالد . متألمـة » .

افكر الآن بالذي جرى بيننا في ليلة الدخلة . الليلة التي تلتهـا ، والتي تلتها ، والبارحة . عندما ضمتنا غرفتنا ، وضمنا سريرنا . رغم ارتجافي وارتباكي ، كنت اشعر بيده الرافعـة شعـري ، الزاحفـة فوق رقبتي . التاركة نيران لذيذة الحماوة . لما اقترب من شفتي وجدتني اجمد رغم قراءتي لمئـات القصص وتـذكري جيدا لوصف القبـل الـدقيق . اغمضت عيني أعانقه واشده الى صدري ، واترك شفتي فوق شفتيه ، كأني احاول ان ادمل جرح الندم الذي نزف فجأة .

اعرف انه يجب ان اكون اسعد انسانة لأني تزوجت من احـب . لكني وصلت ايضا الى قمة الندم وانا افكر بالخمس سنوات التي مرت

والتي ظننت اثناءها اني احب خالد ، لأن بضعة اسطر كانت تصلني منه يوميا . لأني كنت اسمع صوته عبر الهاتف مرة في الأسبوع عندما ازور عمتي ، ولا افهم من حديثه كلمة واحدة . فالخوف ان تكتشف عمتي باني احادث شابا كان عظيما . سعادتي الان تتركني اتساءل . كيف كنت احبه وانا لم اره الا ثلاثين مرة خلال هذه السنوات الطويلة . دائما اراه عبر شيء ، دائما تفصلنا اشياء . النافذة عندما يزور صديقه الذي يسكن قبالتنا ، مرة في الأسبوع ، والرمال والبحر عندما يصطحب اصدقاءه وانا اهلي . واكتفي بأن احذره واراقبه يمشي ويجلس ، اسمع صرخته وهو يمازح اصدقاءه . يرفع الحطة عن رأسه . افرح لأني رايت شعره ورأسه. وكان هو بدوره يراني اركض خلف اختي ، واصرخ متصنعة الخوف من ربيان ام سمكة ميتة ، يدنيها مني وائل . اجلس على الرمل ، بينما اصابعي تكتب اسمه . اجعل العباءة تهبط عن رأسي عمدا . احيدها قليلا حتى يتسنى له رؤ ية لون فستاني .

افكر الآن ، لماذا تركنا تلك السنوات جافة . هل كانت سنوات حب ام سنوات بلا معنى . ام انها ايام حب . لأننا ما كنا قد اكتشفنا سحر اللمس والنار الذي يتطاير بين جسمينا . وتلك اللذة التي تحفر وتحفر حتى تصل الى الفكر وتمزجهما معا . تطير بهما فوق زوبعة تلو الاخرى .

نهضت وقد شعرت بلفحة هواء قد اتتني من تلك البلاد . لذلك ارتجفت ووقفت حلمة صدري . عدت افكر : المهم النتيجة ، وها انا انتظر خالد . سيدخل علي بعد ساعة ويقبلني على وجنتي . يجب ان انسى فراغ السنوات الماضية ، المهم هي النتيجة . وها نحن نعيش

معا . كان من الممكن ان لا نكون في هذا البيت ، ارى اشياؤه الان بل امسكها بين اصابعي .

لو عرف اهله ام اهلي بعلاقتنا . لما رضوا بزواجنا . بل كانت الضربات ستنهال علي . والقتل ايضا كان واردا رغم ان والدي لا يقتل الا بطريقته السلمية . فيزوّجني وقتها من يشاء . هذا هو القتل الحقيقي بالنسبة لي . انهض عن الكنبة ، ادخل المطبخ آتي ببعض فتات الخبز ، اقدمها للحمامة ، واذكر نفسي انني مواطنة صحراوية . وان بعض اجدادي كان يعيش في الخيم بين الواحات والجمال وان كانت افكاري تختلف . آه هذه هي المسألة . لماذا اختلفت افكاري . رغم اني تربيت واختي معا . ذهبنا الى مدرسة واحدة ومع ذلك فقد كبرنا لتشبه هي عمتي بافكارها وخصائلها التي لا تزال تخبىء وجهها بالبرقع ليلا ونهارا . هل تبدلت لأني قرأت الكتب والقصص الاجنبية ، لا اعتقد . فشقيقتي قرأت القصص ذاتها ومع ذلك عندما سمعتني اقول مرة (الحب ، والرجل ، والمرأة حتى الحكام وكل من هنا مظلوم في دائرة التقاليد والعادات) ، اجابتني بشهقة وبخيبة ظن : « العوذ بالله من الشيطان . ما تخليّ الشيوعية تسمم افكارك وتكفّرك » . لماذا انا اختلف . هل لأني حساسة ، او خيالية . احب السير في ضوء القمر ، احلم باني امسك بيد حبيبي ونحن نسير على الشاطىء ، هل الكتب هي السبب في خفقات قلبي وانا أرى الوردة تتفتح ، والثلج يتساقط عبر شاشة التلفزيون . حتى وانا ارى كثبان الرمل اتمنى لو اتدحرج بين رمالها . كما كنت افعل وانا صغيرة . اما الأن فلا حقّ لي ان افعل هذا . اكتفي بالنظر عن بعد واتركها تخطف انفاسي . لا بد ان الانسان يخلق

بطباع مميزة فملامحي السمراء وتكاويني تعود لعائلتي . لكن طبيعتي لا تناسب بشرتي وملامحي . كأني لم اولد هنا .

انهض ابحث عن وائل أجده يتأمل صور العرس . بينما تزيد اعقاب السكائر في المنفضة عن العشرة . اخذ يسألني وائل عن اسم كل بنت في الصور . ابعدتها عن نظري . لا اريد ان اتذكر حفلة العرس الذي من اجله لبثت انتظر جفاف الحنة عن يدي وشعري ، ثم جلست في الفرح ضجرة لساعات طويلة . بينما غصت الصالة بالنساء . فقط بالنساء من مختلف الاعمار . اجهل معظمهن . حتى صديقاتي ما تسنى لي رؤيتهن . كان الحر قد أذاب مكياج وجهي التي اصرّت امي عليه . جلست ضجرة اتمنى لو اقتنع اهلي واهل خالد باقامة فرح بسيط يجمعهما معا . لكن الجواب كان شهقات استنكار وجملة واحدة : « تريدي تتزوجي بالسر ؟ » .

اسمع مفتاح يدار في ثقب الباب . اهب استقبل خالد . يلحقني وائل . لاحظت ان خالد اكتفى بتقبيل يدي وصافح وائل الذي اصرّ على الذهاب وقد عبقت رائحته بالعطر . وجدتني اجر خالد حتى الصندوق الخشبي ، افتح بابه . واخرج الحمامة واعود فاعطيها لخالد وانا اهمس :

« تعرف هي اللي تربطني بك اكثر من ورقة الزواج ». لكنه لبث شاردا وهو يمسكها لبرهة ثم اعادها .

عندما ضمني اليه قررت نسيان ضيقي لعدم لهفته وهو يمسك الحمامة . ونسيان ندمي الذي كان قد ترك بعض اثاره واقلقني ، أقنعت

نفسي ان كبت تلك السنوات الخمس هو الذي يفجر فينا هذا الحب الجديد ولا داعي للندم . ولاول مرة وفي ضوء النهار اراه عاريا . كان صدره والشعيرات فوقه كما تصورت . تمنيت لو يخلعني ملابسي كلها . لكنه لم يفعل . ووجدتني اخلع ملابسي امام حيرته .

صباح اليوم التالي خرجت الى الشرفة سعيدة . انفاس خالد لا تزال فوق وجهي وجسمي . فجأة امسكت فمي وانا ارى باب الصندوق مشرعا ، عدت اتنفس وانا افكر بفرح انها عادت الى بيت اهلي . هذه عادتها . ربما لم يوصد خالد الباب عليها جيدا . اسرعت اطلب امي وازوغ عندما اسمعها تقول : « لا والله يا احلام ، ما جت عندنا » . عدت الى الشرفة التفت حولي . مددت راسي بحركة لا شعورية الى الشارع . ورأيتها ناصعة البياض فوق الاسفلت . لا اعرف كيف تناولت عباءتي التف بها وانزل الدرجات وكأني اطير ، افكر اذا كان الحمام يخطىء الطيران احيانا ، واذا كان احد الاولاد قد رماها بحجر . عدت امسك فمي وانا ارى بجانبها بحيرة دماء .

لما انتشلتها ، ترنّح رأسها الصغير في يدي وارتمى فوق صدرها . دماء جفت عند رقبتها ، وتركت خطا تحتنا . ابعدت الريش عنه ورايت الجرح . انها مذبوحة . من ذبحها ؟ من دخل بيتنا ؟ من اراد ان يمحو السنوات الخمس ؟ من اراد ان يقف في طريق الحمامة البيضاء التي كانت تذهب برسائلي الى خالد عند كل فجر ، وتأتيني برسائله عند كل عصر . من اراد ان يشل قائمها حيث كنت الف الرسالة ، منذ ان اهديته حمامتي ، وكانت سلوتي الوحيدة ، بمناسبة عيد ميلاده . وقتها عادت إليّ بعد ان فرت من ثغرة قرب بابها . لما عرف خالد ، ضحك وهو يقول لي عبر الهاتف :

« يظهر ان حمامتك زاجل » ، ومنذ ذلك الحين وهي بيني وبينه تطيرّ وتحفر اساس الحب .

من اراد ان يحفر في رقبتها خطا حتى ينس الماضي وكأنه لم يكن . بينما كنت انا في السرير ، لا استطيع النهوض من دفء الشراشف ، وكأني في شرنقة نسجها خالد حولي بانفاسه .

لؤلؤة

لاح بيت لؤلؤة ، رغم الاشجار الصحراوية التي شبت عالياً ، والتي مدت أغصانها وأوراقها العريضة وغطته ، كأنها أشواك قصر الاميرة المسحورة ! أتردد في الاقتراب . كأن الاشجار تود أن تخبىء لؤلؤة . كلما اقترب . بدا البيت غريباً عني . كأن الحاضر لا يريد أن يلتقي مع الماضي . خوفاً من العتاب ؟ لكن هل معقول أن تكون لؤلؤة قرأت ما كتبته عنها وهي تكاد تكون في الصحراء ؟ عدت أفكر : « واذا أغلقت هي الباب في وجهي ؟ » كيف أجعل الارض تنشق وتبلعني ؟ وعصا سحري تركتها في الخراب . وكيس دهائي قد تشققت خيوطه . وبات وجهي لا يعطي الا تكاوين الحقيقة بعدما وضع عقلي شاشة تليفزيونية صغيرة فوق جبيني . حتى أن تنفسي ضجر من الالتفاف حول ميزان حرارة النار والجليد ، وبات كالجماد يتلقى التبدلات وهو صامت . ما الذي بدّلني . أهو ما حدث في لبنان ؟ أهي السنوات التي تمر ؟ أم أن حشرة صغيرة دخلت دمي صدفة وأخذت تارة تسد صمامات السعادة وتارة صمامات الحماسه ؟

ابني يسير معي . هذه اللحظة فقد آخر ذرة من صبره الذي هو كحبيبات ملح . سألني لماذا ندور في المكان نفسه . عم نبحث ، وما توقف عن التراداد بعصبية : « ما في شي هون . ما في شي هون » فعلاً ،

كانت الطريق فرعية . لا تزال كما تركتها قبل عشر ، بلا رصيف . خالية الا من بيوت قليلة ، آخرها بيت لؤلؤة . وأولاد يلعبون الكرة ورفعوا أثوابهم حتى الخصر . وجدتني أكذب قائلة بأننا نبحث عن عنزة صغيرة كنت أحبها وأعطيها الحليب في رضاعة ، تماماً كالاطفال . وهنا ابتدأت اسئلة ابني اذ لمعت فجأة عيناه النعستان ، كأن الحر ما عاد ضايقه . وأنا رحبت بالاسئلة الكثيرة والمتشعبة ، فضلتها على حالة فقدان الصبر والحرقصة وجمله التي هي على لحن ووقع واحد . سألني هل كان في بطني انذاك ، وعن أم العنزة . خفت اذا قلت انها ماتت ، من أن لا تنتهي اسئلته عن الموت . وهل يموت اذا صار عجوزاً وان كان معافى ، وهل سأموت قبله لأني اكبره . خفت أيضاً أن أقول بأن أمها تركتها . فجأة وبلا تفكير وجدتني أقول له بأن العقدة التي تربط الكيس التي تخبىء ثدي امها كانت قوية حتى ما استطاع فكها احد .

سأل : « ليش ما جابوا مقص » اجبته : « جابوا مقص لكن العنزة الام خافت منه وما رضيت يقربلها احد » . سأل : « مين جاب المقص ؟ » اجبته : « أصحابها » . : « مين يعني ؟ » اجبته وأنا أشير بلا وعي الى بيت لؤلؤة . « أصحاب هالبيت » . اف ، زفر بعصبية وعاد يسأل : « ليش ما خبّوا المقص وراء ظهرهم وداروا وجهها وقطعوا الكيس ؟ »

ولم أجبه . ما عرفت بما اجيبه . استدرت رغم اعتراضه صائحاً : « ما شفنا العنزة بعد . ما فتشنا عليها . .

أجبته بعصبية : « بكرا »

سرت وأنا العن جبني ، لماذا لم ندق الباب .

وعـاد ابنـي يسألنـي : « ليش ما خبّرتينـي عن العنـزة ونحـن في بيروت . اجبتـه : « نسيت » . سألنـي : « ليش ما فتشنـا بيتهـم وسألناهم عنها . اجبته « لانـه ما في حدا ببيتهـم » . صرخ : « كيف عرفت . ونحن ما دقينا جرسهم ؟ »

لم اجبه ، لكن بدا استفساره معقولاً . وتساءلت هل انتقلت لؤلؤة من بيتها . وعدت أتذكر أنه ملكهم . كان يجب أن ندق الباب . تابعنا السير . فكرت كيف أن سيري الان يختلف عن زمان . في الماضي كنت أسير على هذه الطريق خائفة . قلبي يصل الى قدمي من شدة التوتر . كنت أشعر بأن هناك من يتبعني . من يريد التحرش بي . كنت أتخيل رجلاً . أتخيل ما سوف يفعله أمامي وأركض . كأني أهرب من كلب مسعور . مع الشعور الاكيد بأنه سيصل وسيطرحني أرضاً . كنت أشعر بالوحدة . ولم احب يوماً الدخول الى بيتي قبل عودة زوجي من عمله . فتحي للباب ورؤيتي للسكون والصمت بين جدرانه كانا يشعراني بأن الاثاث الجامد ينوي مؤامرة ضدي . أحياناً أدخل وكلي شعور بأنه فعلاً حاك المؤامرة واستضاف اللصوص والمهووسين .

أحياناً واذا رضي عثمان ابن لؤلؤة ان نصطحب معاً ، وسار بعيداً عني . كنت أسير بارتياح ، أتخيل نفسي عارضة أزياء حطت في الصحراء تعرض الملابس في الازقة الرملية ، وممثلة في فيلم عن الصحراء . الكاميرا تتبعها وهي تبحث عن حبيبها بين النخيل . .

ابني يشدني الى الحاضر : « لو ولدتّيني هون، لكنت شفت العنزة ورضعتها الحليب » . « شو كان اسمها ؟ » اجبته : « بس عنـزة » اجاب : « لو عرفتها كنت سميتها » . تابعنا السير . نحن شخصان

يسيران بهدوء. الخطى ثابتة . العين لم تعد زائغة . نقطع الطريق . عقلان يفكران وان اختلفت الافكار . لكنهما تدور في مناخ واحد . الاحاسيس : وان اختلفت . ستقترب وتصبح واحدة . ابني يحن الى الماضي . الى قصصي وقصصه في الماضي . صوره في الماضي . كلامه في الماضي . عندما يراني ارتدي فستاناً أهملته لوقت يركض ويقول : « تذكرت هذا » .

بات الماضي مهماً عنده . كالحاضر . كالمستقبل . ربما لاني كنت خلفه أصب ذاكرته بالذكريات . احفرها به كل ثانية ، احفرها بوصفي الدقيق للاشكال مستعملة الالوان حتى حاستي اللمس والرائحة .

أجره الان الى الماضي حتى يرى ما رأيت . حتى يكون فعلاً مني . شاهداً على مسرح معاناتي وسعادتي . لن يكون مني الا اذا عايشني حتى قبل أن أفكر في انجابه . عندما يسير اين سرت . يمسح العرق عن رقبته من الحر الذي لفحني من قبل . يحذف بقدميه حجارة حذفتها من قبل . يرى البيوت والدكاكين التي مررت بناظري عليها . يفكر كما فكرت بغرابة هذا الباب الاسود . كأن بنظراته الان يلتقي بنظراتي الماضية ، تفكيره الان يلتقي تفكيري في الماضي . ويصبح مني . عندما اخذته في بيروت الى البيت التي ولدت وترعرعت فيه ، وضعته على سريري النحاسي . لما شعر بانه تحرك احدث النحاس صريراً ابتسم كابتسامتي . عندما غسلت وجهه بالمياه الباردة ارتجف وقال تماماً كما كنت أقول : « بردان » . اخذته الى جنينة بيت النقّاش وأجلسته على الحجر الذي كنت أجلس فوقه ، انظر الى أوراق الزنزلخت واللحلح وأعرف كلما تكاثرت أوراقها أننا في الصيف . فرحت لما لفتت هذه الاشجار فضوله وسألني عن اسمها . ما توقف عن التأمل بها الا لينقل

بصره الى جدار البناية حيث كان وطواط لطّخه بالتوت منذ ان وعيت .

يومان ثم أجد نفسي أتجه حتى محول كهرباء البلدة الكبير . اترك بيوت العائلات الاجنبية ورائي . اتجه رأساً حيث الطرق الفرعية . أرى بيت لؤلؤة . هل أتقدم ؟ وبدت البوابة الحديد ، دهنت بلون قرميدي ، لونها يدعوني . ما ان لمست كفي حديدها حتى فكرت وقلبي يدق : عبده الزهراء ، زوجة محمود الاولى ألا تزال على قيد الحياة ؟ هل طلق محمود زوجته الثانية سلامة ؟ أم أنه تزوج من رابعة ؟ اريد أن أدق الباب . لم أستطع . وجدتني ابتعد ، اؤكد لنفسي أن لؤلؤة قد انتقلت . لأني لم أسمع أصوات أولادها في الجنينة . لكن فطنتي ذكرتني ساخرة بأن عشر سنوات قد مرّت . عشر سنين ، كأنها عشرة قرون . لم أعد أفكر بلؤلؤة فقط . بل كنت أتعجب وألوم نفسي على انغماسي في حياتها وادماني على زيارتها يومياً حين كنت في هذا البلد . أردت الوقوف على خصوصياتها . هجست حتى اني وضعتها في كتاب فرس الشيطان وباغلاقه شعرت كأني اقتلعت شوكه علقت بين ملابسي . وكان ظاهراً أن الذي جذبني كالمغناطيس اليها هو ضجري ، ووحدتي . وتالياً اختلافها عن عالمي .

لكن ، ما ان وصلت الى هنا ، منذ اسبوع ، وشممت رائحة الرطوبة اياها . ورايت النساء مازلن ملتفات بالعباءات السود . ووجوههن بالمناديل . ولما اخذت أسماء الايام تتساقط . ولم أعد أفرق بين الاحد والاربعاء ، بين شهر شباط أو كانون . ولما رأيت الماعز لا يزال يأكل الأوراق والكتب . والصراصير تتكاثر . والطرقات بلا أرصفة . بلا أسماء . بلا أرقام . حتى طفحت رائحة البخور في راسي . عادت لؤلؤة حيّة . وكذلك امرأة زوجها الاولى ، عبدة

الزهراء . الالحاح يكبر ، يدفعني لاعود أدخل حياتها .

يجب أن أدق الجرس . فتحت لي شابة ، سألتها اذا هل هذا بيت محمود وكليّ شعور بأن لؤلؤة انتقلت . لدهشتي ابتسمت الشابة وأفسحت لي قائلة : « تفضلي » والتفتت تنادي : « أمي ، في حرمة تبغاك » لحظات وأطلت لؤلؤة . كما رأيتها أول مرة : بشرتها السمراء ، كصفحة ورق أسمر . عيناها الصافيتان مكحلتان . جبهتها المرتفعة لا تزال ملساء . وصرخت : « سارة » ورمت نفسها فوقي تعانقني ، غير مبالية بارتباكي . تقبلني على كل خد . وعادت تضمني اليها وهي تقول : « ولهانة عليك . غيبتك طويلة يا سارة . والله كل ما أسمع خبر عن لبنان افتكر فيك وقلبي يوجعني » .

لم أعرف بما أجيبها . كالبغبغاء أخذت أردد : « وأنا كمان » . عادت تبتسم قائلة : « تعرفين . ما تغيرت ، كأن فارقتينا ضحى ، كيف جيت ؟ » اجبتها بأن زوجي حصل على وظيفة . وسنسكن هنا ريثما يحل الامان من جديد في لبنان .

ونهضت لؤلؤة كالعادة ، بلا استئذان . تتركني في غرفة الجلوس . السجادة الألمانية، الكنبات الامريكية . طاولات الفورمايكا ، صورة الحائط التي لا تزال تمثل أما وابنتها نائمتين في حقل قمح ، لكن الشمس أكلت لون سماءها الازرق . أرى البراد في الفسحة ما بين الغرف والمطبخ . فجأة رائحة البيت وجوّه ذكراني بجدتي أم حسن . تماماً كما كان يذكرانني بها . أطلت لؤلؤة . تماماً ، كما كانت تطل في الماضي . بين يديها صينية عليها صحون الفستق الحلبي المصبوغ باللون البرتقالي وبعلبة عصير قها . قالت وهي تفتح لي علبة العصير دون أن تسألني : « ولدت يا سارة ، أو لسه عصفور طيار ؟ » .

كنت شاردة أتأمل في قرطي أذنيها الذهبين المحفورين في الذاكرة . وأبحث عن الاساور الذهبية التي كانت تخشخش في معصمها . وأفكر كيف أن الانسان كالجمل يجتر ما خزنه من تفاصيل حسب المطلب والموضوع .

أجبتها بأني قد أنجبت صبياً وهو في السادسة ، وبنتاً هي في الرابعة . نهضت تقبلني فرحة . صائحة . « سارة أم بزور ! مش معقول . أبغي أشوفك تطبخي وتحممي . . هم وين دا حين ؟ » .

أجبتها بخجل . كأنها هي صارت سارة وأنا لؤلؤة : « في المدرسة . ان شاء الله تشوفيهم عن قريب » . سألتها بدوري عن أولادها وأجابتني والابتسامة قد انقلبت الى ضحكة : تتذكرين ابني عثمان ، لما كان يوصلك بيتك ، وكنت تنقهري منه لما ما يرضى يمشي الا قبلك أو خلفك ، صار يا اختي يروح جامعة المعادن . ونورة ان شاء الله تكون مدرّسة ، وأنا جاني بنت صارت ثلاثة من يومين » . والتفتت لؤلؤة خلفها تنادي « نورة » وبلمحة بصر دخلت نورة ، وابريق القهوة العربي النحاسي في يد وفناجين عربية بلا مسكات في يد . اخذت تصب لي ولأمها ، ثم تضع الابريق على الطاولة وتهم خارجة . استوقفتها لؤلؤة قائلة : « نورة ، هذي خالة سارة تتذكريها ؟ » واكتفت نورة بالابتسام في خجل . بينما تذكرت أنا نورة الصغيرة وهي تركض اليّ كلما أدخل بيتهم . تحاول إمساك اهدابي . تنتقل الى قبقاب شول الخشبي تمسكه وتدل على الاخرى الملتصقة به ، تسأل أمها متعجبة ، هل كان القبقاب يحمل اسمي أم اسماً خاصته ؟

قبل أن تغادر نورة الغرفة قالت لؤلؤة : « اذان العصر أذّن ،

وأختك لها الحين نايمة ، قوميها ، خليها تسلم على خالة سارة » . قامت لؤلؤة تسكب المزيد من القهوة . وأنا الاحظ الخطوط البيضاء لا تزال عند قدميها . سمعتها تقول بفرح : « أهلاً بالحلوة أهلاً » . واستدرت لأرى طفلة نسخة مصغرة عن لؤلؤة . تنقل عينيها بيني وبين أمها التي هجمت تضمها وتقربها مني قائلة : « سلمي على خالة سارة يا سارة » .

صعقت . « لا يجوز » ، ، فكرت . في كل مراحل علاقتي مع لؤلؤة ، كنت بلا روح أمام مادة وجدتها أرضاً خصبة . لانكش وأزرع فضولي . حتى عودتي اليها . كانت لأرى نفسي في الماضي . لاشعر بذبذبات تهزني وتحركني ، مولدة عندي أحاسيس فقدت ، وتالياً حتى يلتقيني ابني . بينما لؤلؤة ، السعيدة ، لا تحتاج الى الماضي . هو معها . لم يصبح ذكرى . اسمعها تقول : « قلت لمحمود اذا ولدت بنت ، لازم أسميها اسم عزيز على قلبي ، وسميّتها سارة ، عشان تطلع زيّك » .

مداراةً لأتباكى انحنيت أحاول احتضان سارة التي رفضت . اكتفيت بتقبيلها فوق جبينها ونهضت استأذن لؤلؤة واعدةً بالمرور عليها غداً مع ولديّ . وأنا أمر بالحديقة لمحت خروفاً أسوداً يقفز كأنه طفل . ورأيت المصطبة بهت بلاطها . وتذكرت عبده الزهراء . لما سألت لؤلؤة عنها ، ضحكت طويلا وهي تحيط بيدها بي قائلة : « لها الحين أنث ما تغيرت . الست الكبيرة عايشة ، وهي لها الحين في ايران » .

وعادت الصور . صورة عبدة الزهراء جالسة ، تشبه ام المؤمنين وآكلة الأكباد في آن . جالسة على الارض . كانت كالاسد ووجهها فوق الحساء . أظافرها تفتك باللحم وأسنانها تخرط الطعام ولسانها يبلع الحساء وكأنه يستنشق هواء الدنيا .

عدنا نسير في اليوم التالي . ثلاثتنا . ابنتي صامتة ، الحر قد امتص كل حيويتها . ابني يكاد يطير فرحاً ، لكن ، لما اتسع أمله برؤية العنزة . وطال بأسئلته يستفسر هل كنت رأيتها ، اكتفيت بترداد كلمة واحدة : « مفاجأة . مفاجأة » . عاد نفاذ صبره يهدده . يهدد اخته . يهددني . افلت يده من يدي رافضاً السير قائلاً بأنه لم يعد يحب المفاجآت ، بأنه لا يريد أن يعرف هذه اللحظة هل رأيت العنزة البارحة . خفت اذا قلت له لا ماعز هناك أن يرفض متابعة السير . وأنا لن أجبره على ذلك ، فقد وعدت نفسي منذ مدة بأني لن أصرخ عليه أو أضربه . وجدتني أقول : « صاحبتي جابت خروف أسود يشبه العنزة ، كأنه أخوها » . قبل أن أتنفس سمعته يجيبني : « يشبهها باللون . لان صوف الخروف مجعد ، هيك » ، وأشار الى رأس أختنه . « وصوف العنزة مالس » . ولم يسكت . بل عاد يسأل بالحاح عن مصير العنزة ، ولما اجبته : « صارت ملعونة ، ما خلت كنباية الا ونطت عليها ، حتى صار زبلها الاسود بكل البيت ، مشان هيك جوزوها . وهلأ صار عندها أولاد ، وصارت مشغولة » .

قال : « الحق على أصحابك . العنزة لازم تبقى بالجنينة . شو يعني زبل ؟

ـ وسخ العنزة الاسود الصغير ، المدور مثل الخرز .

ـ بي مثل الخرز ، يعني حلو . ليش تضايقو منو ؟

ـ ريحته كريهه .

ـ أي .

دخلنا بيت لؤلؤة وما ان رأيا الخروف حتى افلتا من يدي وركضا

اليه . وما رضيا مصافحة لؤلؤة ، حتى الاقتراب منها . انحنت لؤلؤة تقبلهما وأسرعت تأتيهما بقنينتين بيبسي كولا وألواح شوكولاتة من المطبخ . لاحظت لؤلؤة (التي ما تبدلت ، بل اكثر سعادة وراحة) أنني أحدق في سقف البيت هرّ دهانه وبان الحديدوالطوب . وقالت : «ما تخافي ، لسه جامد . ومحمود ناوي يصلحه عن قريب ان شاء الله ، وهو بالحقّ يسلم عليك وعلى زوجك » . سألتها فجأة : لسه متزوج من سلامة ؟ (زوجته الثانية) . ضحكت قائلة : « وانت يا سارة لها الحين مثل زمان تسألي ، آه سلامة بعدها حرمته ، على سنة الله ورسوله . مسكينة ، تعبانة . معها وجع بمعدتها . صارت مثل العود . ولسه الست الكبيرة بتقول ، الله بينتقم منها » .

قطعت حديثنا سارة الصغيرة التي مدت تعطي قطعة الشوكولاتة لأمها قائلة :

« وقعت عالارض ، ولحسها الشيطان ، أبغي غيرها » . تناولها لؤلؤة لوحاً آخر ، وتربت على كتفها قائلة : يعافيك الله يا شاطرة » .

عندما لبثت صامتة ، فكرت بأنني قد تغيرت فعلاً . لو سمعت كلام سارة الصغيرة منذ عشر لكان أصابني المرض ، لكنني شعرت بالخوف على الطفلة وهدسها في الشيطان . وها أنا جالسة ، صامتة . لا أستطيع حتى مد يدي ورشف القهوة . هناك ما يضايقني ، منذ أن زرت لؤلؤة ، بل أن ضيقي يزداد . تنفسي الثقيل كان يعرف سبب ضيقي : « أنه سعادة لؤلؤة » . عدت لأرى كل شيء لا يزال . لؤلؤة لم تنحني تحت ثقل العشر ، بين الرطوبة والحر ، رغم أنها تعيش ضمن جدران البيت، يوماً فآخر. لا تفارقه الا نادراً . رغم حياتها التي

تفتقر الى كل شيء في قاموس حياتي . نظرت الى ملابسي . صورة بلا روح خرجت فجأة من مجلة أزياء . نظرت الى وجهي في مرآة حقيبة يدي الصغيرة . لولا تقطيب جبيني . لصرخت خائفة من صفحة الزجاج فوق عيني . بينما كل شيء لا يزال يتفتح في لؤلؤة . كأنها حقن متواصلة من السعادة والمصالحة مع النفس . اكتشفت فجأة سذاجتي وفطنتها . قوتها وضعفي . اكتفاءها وقلقي . قلبها يسيرّ حياتها . والاعلام والواجهات والصور والكتب وكل شيء خارجي يسيرني . هي تمسك بالايام . وأنا أدور حولها . كلما مددت يدي انكسرت . لانها يد من شمع . ويدها من صلب . هي عاشت حياتها مع محمود وزوجتيه ، وأنا عشت مأساتها وتضايقت . استفظعت ما دار بينهم . والان أسأل نفسي لماذا كدت أفقع لما عرفت أن محمود يضاجع نسوته الثلاث وكأنهما ثلاثة رجال . تزوج من الاولى والثانية لانهما ما انجبتا . لماذا قرفت بدلاً من أن تعتريني الرجفة وأنا أقف أمام من يجهل قارة المرأة . فيحضر غواصته ، وطائرته ، معوله ، ورفشه ، ويبتدي في رحلة الاكتشاف ، ويتوه من جمال ما يرى . ألم يكن هذا في منتهى الخيال والغموض . كل هذا كان أمام عيني وأنا أفقع غلا واشمئزازاً . الأن وجه محمود لم يكن كوجه كازانوفا . لم يكن كوجه رمسيس . بل أن الصحراء لوحت بشمسها وجفافها بشرة وجهه . وتركته أصفر ، يابساً ، لا يتوقف ويشهق الا عند رؤيته للخروف المحشو والأرز . ولأن كل ما يفكر فيه كان كيف يخبىء زوجاته . ويعلّم ابنته كلمة عيب ، وابنه أن يصرخ ويحتقر المرأة ، اية امرأة حتى أمه ، وأخته .

استفظعت ما دار بين جميعهم وقرفت ودق قلبي لأن التجويفة في العقل تقول لا . يجب أن تكون حياتهم كحياتي . كحياة الاخرين

الذين اعرفهم . لكن لماذا لم أفطن قبل اللحظة ، لماذا لم أفكر اذا تساوت طرق المعيشة صارت الارض مسطحة . وقتها يسكن رفيف الاجفان . تهفت دقات القلوب . ولا يعود يشتاق العارف الى الجهل . والجاهل الى المعرفة . واذا عادت الأرض كرة . عادت فيها الفجوات والأسرار . فيها الصالح والطالح . فيها البزاقة والطاووس . فيها الذي يرى لكنه لا يسمع . . فيها الذي لا يجد الا الحشائش والفطر يأكله . والذي ينظر الى الطعام يصاب بالغثيان . كل هذا مثير . يرد الينا رفيف الاجفان . ودقات القلوب . فيها الملوك يجسدون الاساطير والخيال بصور حقيقية ، طبيعية . وفيها الثوار لأن الدماء الحمراء يجب أن تنفر وتسقي شقائق النعمان ، يجب أن تنبض بين القلب والرقبة . ما أجمل شعر عاشوراء . يجب أن يظل يحرّكنا . كذلك صوت ألفس برسلي والحان جيتاره . كم غموض المرأة في العباءة السوداء مثير . وكم هي جميلة صدور النساء على الشواطىء الأوروبية . الصحراء فيها وقع جمال عطشى وسراب . وفي السهول الخضراء السراب حقيقي .

كنت ساذجة عندما صعقت وأنا أتعرف بعبدة الزهراء . وأرى أنفها متوسط الطول . عند ذقنها ختم الوشم علامة . عيناها مكحلتان . فيها غشاوة ماء أسود . وجهها وحيد . قدماها كأنهما انغمستا في الجمر فاحترقتا وانغمستا في المياه المثلجة فتشققتا . خط برتقالي يعطي القدم وحشية الافريقين البدائين . تحب ضرتها لؤلؤة وتسميها ابنتي . لؤلؤة تحترمها وتجلس خلفها . لما استغربت ، قالت لي لؤلؤة : « هي ست البيت ، النساء يخدمنها ، الاطفال يقبلون يدها . والزوج يستشيرها في كل الامور » . وهي عند اسئلتي ودهشتي ازاء هذا الوضع المميز ، ضرّة

تحب ضرّة . حدثتني عبدة الزهراء ذات عصر قائلة : « بعد سنة لما ما انجبت قال أهل زوجي لمحمود : « لازم تتزوج » . محمود رفض وقال لهم « استنى كمان سنة » . لكن هم ما استنوا ، خطبوا له ابنة عمه التي بغوا يزوجوها له قبل أن يتزوجني ورفض زواجه منها وقال ما اتزوج حلالي . ابنة عمي زي اختي وأمي . وطلب قريبة له أن تبحث له عن حرمة . والقريبة كانت تبيع البخور والكحل الاسود والعباءات . وتتردد على كل بيوت الحارة . واحبت في شعري الطويل ولوني الحنطي . وتم الزواج . ابنة عمه أرسلت الي وعداً بأنه سوف يأتي يوم ويعود عن رفضه لها ويتزوجها . وأعرف ايش عملت فيّ حتى ما بزرت . يجوز صلت عند الفجر خمسين ركعة وطلبت في دعائها ان لا أبزر حتى تتزوج محمود . يجوز هي تكلمت مع الشيطان ، بسم الله الرحمن الرحيم .

ـ تكلمت مع الشيطان ؟؟؟

ـ ايوه ، يظهر لك كل ليلة جمعة اذا كنت في الحمام ورميت ماء حاراً على جسمك وعلى البلاط وما قلت بسم الله الرحمن أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . والله أعلم ايش عملت سلامة . بعد ثلاث سنوات بقيت حرمته . تزوجها . وأنا من وقت ليلة دخلة محمود على سلامة وعقارب تأكل كبدي ، وبومة واقفة على كتفي تنعق تولول ليلاً نهاراً ، ودور برد يشلني ، ودور ساخن يذيبني . ليلة الدخلة كانت على مسامعي ، هجم علي الاهل ، والاصحاب يبعدونني عن الباب المغلوق خلف العروس والعريس . كانوا عشرة ولم يستطيعوا زحزحتي شعرة . كأن الله ثبتني الى الابد ، الى يوم القيامة . وبكيت ولطمت ولبست السواد . وكان ـ لا سمح الله ـ اخذت المنية محمود . وسمع أهلي ما أنا

أفعله ، وأتى عمي يؤنبني قائلاً ، ان ندبي هذا فال على محمود وعلى العائلة ، وقرأ لي آيات القرآن . وأخذني الى ايران لبضعة أشهر أستعيد عافيتي . وهناك كنت أجلس الساعات أفكر في طريقة أضمر فيها همة سلامة حتى تصبح كالابرة ، واقهرها واقفلت عليها العقارب التي نهشت كبدي ليلة دخلتها . وكنت أصلي عند الفجر خمسين ركعة ، وأطلب من الله تعالى أن يسد بطنها بحجرة ، حتى لا تبزر ، واذا بزّرت فليكن بزرها غرائب عجائب أو كلباً. حاولت أن أرمي المياه الساخنة ليلة الجمعة حتى يظهر لي الشيطان وأتفق معه . لكن كنت سمعت أنه يفعل ما اطلبه منه شرط أن أبتعد عن الصلاة والصوم والفضيلة . خفت من الله . خصوصاً اني لاحظت أن وجهي لم يعد مستديراً كالطبق . ولم أجد طريقة لاحرقصها سوى وضعي لها جيف الكلاب والقطط عند بابها أو تحت نافذتها . وكنت أرسل بنت قريبتي فترمي الاوساخ حول المنزل وفي الجنينة . لكن محمود لم يتركني أنتقم حتى النهاية . زعله مني جعله لا يزورني ، وإذا زارني نام في غرفة المجلس . مضى عام وسلامة لم تحبل . عرفت كل اخبارها من النساء اللواتي حافظن على حبهن لي . كل أسرارها كانت على مسامعي . وعام آخر مضى ولم تحبل . أيقنت أن الله استجاب دعائي وها هو يسير معي حتى النهاية . وصممت على خطة لم أرددها على مسامع أحد . جاء يوم الاثنين وهو دور مبيت محمود عندي فأسررت اليه بما أنا فاعلته . « سأزوجك ثالثة » . وكان جوابه ان هذا مستحيل ، زوجة ثانية وقلبت الدنيا رأساً على عقب ، كيف بزوجة ثالثة . اخبرته أن الوقت حان ليبزر والا انقطع نسل العائلة . سمع كلامي جيداً وربما كان فكر فيه قبلاً ، لانه وافق لتوه ، وصعد الى المرقد جانبي . أما أنا ففرحي عانق العقاب في الخراب . عروس ثالثة تذيب

صحة سلامة كما اذابتني . عروس جديدة صغيرة أجمل من سلامة أكون لها الاخت والام ، اسكنها معي ، فيصبح بيتنا البيت المقرب لمحمود ، وشيئاً فشيئاً يهجر ابنة عمه وزوجته سلامة . عروس ثالثة اختار لها بنفسي الجهاز ، أسرح شعرها بنفسي ، وهي تسهر علي في شيخوختي . ووقع اختياري على لؤلؤة بنت حسن الطاوي ، وزوّجته اياها . والنسوة كن يتوافدن على منزلنا فيساعدنني في اختيار الجهاز ، وفي تنظيف البيت . وكان لساني لا ينفك رمشة عين يتحدث . كنت أريد سلامة أن تعرف كل شيء عن طريق السنة هؤلاء النسوة . وكما ظننت قبلاً أصبحت سلامة كالمسلولة ، كالمجنونة . تقف على السطوح بلا عباءة . تصرخ وتنعتني بشتى النعوت ، رغم أن منزلها ليس بالقريب من مسكننا ، لكن النسوة والجيران اخبرونني . سلامة أهملت بيتها وطعامها . أصبح محمود يتضايق عندما يحين دور زيارتها . لكن الله قال : « وإذا تزوجتم ثانية وثالثة فاعدلوا » . وضيقه من سلامة وصل الى حد التفكير في الطلاق ، والذي أثناه عن عزمه أنا ، مذ بلغ مسامعي أن سلامة لا تأبه ما دام هناك حقها المؤخر . لكن حتى طمعها في المال وفي المؤخر لم يدم لتكيدنا . وانتشر خبر حمل لؤلؤة كاللهب . وكيف أن الكبيرة عبدة الزهراء كانت توقظها فجر كل يوم ، فتصعدان معاً السطوح وتصليان وتختمان صلاتهما بالادعية حتى شروق الشمس ، وكيف أن الكبيرة عبدة الزهراء كانت تبحث بنفسها عن الاعشاب في الصحراء ، تحت الرمال ، وتغليها لتقدمها الى زوجة محمود الثالثة ، وكيف أن الكبيرة كانت تحلب الناقة بنفسها وعند كل حلبة كانت تتلو أدعية خاصة . . .

ولم تخبرني عبدة الزهراء عن الطبيب الذي تأكد مع كشفه على

لؤلؤة أنها لا تزال عذراء . وبأن محمود كان يضاجع نسوته رجالاً . لذلك بعد زيارتهما بمدة قصيرة للطبيب حملت لؤلؤة . كذلك سلامة . بينما عبدة الزهراء ما صدقت كلام أحد بل أنها ظنت أن سلامة قد عرفت سر الاعشاب وحليب الناقة . . . لذلك عادت فحملت .

نهضت تعبة ، حزينة . أعلل لنفسي بأني كنت صغيرة ، وجاهلة . أعدها بأن لا أنبش الماضي من الان . اعزيها باكتشافي وهو : قبول الحياة كما هي . حيال الرصاص والحرب . لؤلؤة تبتسم قائلة وأنا أودعها : « استني عندي مفاجأة ! وددت لو اجيبها بعصبية لا ، أستطيع انتظار المفاجآة ، لكنها جرتني الى غرفتها . انحنت تحت السرير ، تجر صندوق تفتحه ، وبين سلاسل ذهبية وأوراق سحبت كيساً من قماش المخمل الاحمر . تمد يدها ، تخرج ولدهشتي كان كتابي وتقول ضاحكة : « يا غشاشة ، انتي كاتبة وما تقولي ؟ » وارتجفت ، ما عرفت بما اجيبها . ووجدتني بارتباك اسألها سؤالاً تافهاً : « هل اعجبك » ولدهشتي ردت وهي تحيطني بذراعها بي ضاحكة : « طبعاً ، خصوصاً وصفك للست الكبيرة ولي وتذكرك لكلامها حرف بحرف » . آه . عادت لؤلؤة تلطعني بسوط كلماتها الهادئة . تحفر الحزن والقهر حيال نفسي التي واشكت على صب دموعها بغزارة . حدقت في لؤلؤة طويلاً . أريد أن أرى الغضب أم خيبة الظن حتى الحزن . لكني لم أر شيئاً سوى سعادة فوق سعادة . وحناناً وحباً يغمران وجهها لأنها عادت والتقتني . قالت وهي تستعيد الكتاب وتدخله الكيس : « اخفيه عن محمود ، تعرفي . . » اسألها : « من أعطاك اياه » . تضربني على يدي مازحة : « أنا صديقة وفيّة ، مع أنك سافرتي وما ودعتّني وما عطيتي عنوانك وما

كتبت . لكن كنت أسأل عنك أي حد يروح بيروت . وقريبتي اللي كانت تدرس في الجامعة الامريكية بعثت لي كتابك » .

ودّعتني لؤلؤة ووجهها لا يزال يطفح سعاده . جسمها الممتلىء كتزة من الحيوية والراحة . سرت ويدي تمسك ابني والاخرى ابنتي . سرنا في الطريق الفرعية ذاتها ، وما سمعنا اغلاق باب الحديد الا بعد أن أوشك بيت لؤلؤة أن يختفي . قال ابني : « بتفكري العنزة لح تشتاق لاصحابها وتجي تزورهم مع أولادها » اجبته بحزن : « العنزة ؟ يمكن » .

أسير . أتخيلها مبتسمة الوجه . تمسك كتابي بين يديها ، وكيس المخمل استوى في حضنها . أفكر : هل كانت ابتسامة شماتة أم ابتسامة ؟ وعاد وجهها المنفرج ولا مكان فيه لغير الصدق يقول : « كتاب حلو » .

يدق قلبي بعنف الان . انها قرأتني ، امسكت بأحاسيسي وبأفكاري في تلك الفترة . اخذت تبلع كأنها واد بين جبال متربة تصب فيه الرمال ، حتى الشيطانية وهو يبلع . وقعت هي على جوهر صداقتي معها ، عرفت كيف أفكر عن بلدها وفيها . عرفت من أنا بلا قناع . ومع ذلك احبتني . اكتشافها لزيفي وكوني أعيش في عالم آخر يبعد عن عالمها كبعد كوكب المشتري عن الارض . لم يبدّل شيئاً ، مع أن هذا البعد ينفي كل ما تعلمته هي من محيطها وعائلتها ومن مدرستها ، لم يرف جفنها ازاء صداقتنا . قَبِلَتْني كما أنا . كما يقبل المزارع غرسة شبت باعوجاج ، وهددت تناسق حقله .

فجأة ، كأني اكتشف لاول مرة أن لون السماء أزرق . ولون الليل

اسود . خفت من أن يذوب هذا الاكتشاف ويفلت مني . ولا أعود أتذكره . قلت بصوت عال : « لؤلؤة متحررة أكثر مني . رغم الحنة والزيت فوق الشعر ، والعباءة ، وكون بيتها على شفة الصحراء . لكنها متحررة بالفطرة ، دون أن تدخل لعبة البراهين . ودهاليز الاعلام » .

صرخت في داخلي ، يجب أن اعاقب نفسي على عيشي ضمن غشاوتين واحدة على القلب والاخرى على العقل . لأني أحيا بلا مناقشة . لأن العالم من حولي متصلب بأفكاره وذوقه . لأن الواقع هكذا . وبالتالي لأني تهت عن هذه المعادلة : العالم هو فرد ، فردان ، ثم مجموعة ، ثم عالم . هم يفرضون علينا كل شيء حتى اللون . يقولون علينا أن ترتدي اللون البنفسجي هذا الصيف !!

يجب العودة الى لؤلؤة . يجب أن أنحني أمامها . أطلب المغفرة . يجب أن أمزّق صفحات كتابي . لا . هذا ليس بحل . يجب أن أكون متحررة كلؤلؤة وأقبل به لأنه كان حقيقة في وقت ما .

كان يجب العودة الى الصحراء . لا لكي أجمع أساور الفضة ، وعقود المرجان المنقور . وحجر الفيروز الذي غطته الغبار وعرق الصحراء . كما جمعته من قبل وأنا الهث . ها هو يتمدد صامتاً ، ضجراً في علبة . في خزانة . وأنا التي ظننت وأنا أضع يدي عليه اني أضع يدي فوق الخلاص .

كان يجب العودة الى الصحراء . لاتعلم من جديد . أن الارض فعلاً هي كره تسبح في الفضاء . وان عند موت الانسان يولد طفل . بعد الليل تأتي صيحات الديك وعندها يطل الفجر .

عقرب الربع الخالي

لا أرى سوى كثبان الرمال . منخفضة ، عالية ، ناعمة ، خشنة . رمال برتقالية حمراء ، بنية ، رمادية وبلون الرمل .

أرى الهواء اذا مددت يدي ، استطعت ملامسته . كل ما حولي رمال . حتى الافق . رمال نائمة . ساكنة ، طائرة ، تلاعب الهواء الرملي فوق المفارق الرملية . التعاريج . كل ما حولي من الرمل . وأنا من لحم وعظم أو اني أيضاً من رمل أبيض ؟ كما فكرت وأنا صغيرة ، وأنا أرى حبيبات رمل تلتصق بكمّ فستاني كلما حفت جبيني ؟

أدخل الغرفة . أرى زوجي يفرد ما في الشنطة من معلبات سردين ولحم ، علب سكائر ، وعصير فاكهة فوق لوح خشبي جانب السرير . اخرج من شنطتي رزمة اوراق وصورة لولـديّ . ابتسم ، هذه الصورة وحدها تؤكد لي أني في الربع الخالي . لم انتقل الى كوكب آخر . وأني كنت في الظهران هذا الصباح وتركتها تعج بالسيارات ، بالدكاكين ، وبالرطوبة . وعند تفكيري في كلمة كوكب لمعت فجأة هذه الجملة : « كوكب رملي في عين امرأة » . يجب أن تكون عنوان كتابي الذي من أجله اصطحبت زوجي هذه المرة ، الذي اعتاد على قضاء ثلاثة أيام من كل اسبوع في الربع الخالي كما يتطلب عمله . استهوتني فكرة الكتاب

لاني احب التصوير الفوتوغرافي ، ولان الربع الخالي مادة خصبة ، لم تستهلك بعد .

الرمل سيكون المحور . سأصوره في الفجر ، الصباح ، الظهر ، العصر وفي الليل . وهو يتثاءب . يعارك ، ويستسلم . اجد نفسي الان لا أستطيع ايقاف سيل الجمل والافكار . سأبتدىء الكتاب بهذه الجملة : « الله ﷻ موجود في سماء الربع الخالي » وسأذكر : فجأة عندما حطت الطائرة النفاثة للشركة التي يعمل فيها زوجي التفت حولي ووجدت هول الرمل : بعد ان تراءت لي وأنا في الجو التلال واكمات الرمل كأنها تجاعيد طفيفة .

تذكرت الرمل الملوّن المكبوس في زجاجة طويلة أتتني من صحراء البتراء ، والخنفساء السوداء المضغوطة بين ذراته . اخذت الصور تتصادم مع سيل الجمل والافكار . خفت نسيانها . هجمت على الورق اكتب رؤوس اقلام وأفكر في فصول الكتاب .

افتح باب الغرفة ، يلتقي نظري امتداد الرمل . ابتسم وأنا استرجع ضحكات زوجي وأنا أسأله عن خريطة تدلني عن موقع الكمب . ماذا يكون عن شمالي غير الكثبان ، التي قيل أنها تنتقل كبدو الصحراء . وعن يميني الكثبان ذاتها . وأمامي وخلفي الصحراء الممتدة الخالية . لم استطع التخيل كيف ان هذه الكثبان تبدّل مكانها الا لما اصطحبت زوجي بعد الظهر في التراكتور العالي ، شعرت كأني فوق هودج جمل . لا أرى عن بعد كثبان الرمل وهي في حالة اعادة خلق وتحول ، شعرت بانني أمام شاشة أرى فيلماً خرافياً ، يمسك بالقلب والعقل . ولما جاء الليل جلست اكتب :

كثبان الرمل عندها روح . انها ضجرة . وحيدة . اية حركة من حولها تصل اليها مختنقة . لا تعرف سوى الرياح والشمس . تبحث عن الانسان والطير ، لا تدري انها وحدها تكوّن الربع الخالي . كيفما هي . عالية ، منبسطة . لذلك يدعى بالرمال فقط . وبحر الرمال . وهي تنتظر العواصف . تجد ان اللحظة الحاسمة أتت . فتأخذ بكل قوتهاتدمّر نفسها بنفسها ، تطير ذرة ، ذرة حتى تصبح مسطحة . وتعود تتجمع وتنتشر بعضها فوق بعض .

تصوغ نفسها بنفسها . تستعين بقوالب ذاكرتها . ترتفع عالية . تقترب من كثبان اخرى . احياناً تظل وحيدة . وهي تضجر . لذلك تبدل اشكالها . كفوهة بركان . كجرن حجر . تارة كحوض . تخلط الاملاح وتجبلها بلا ماء .

وبعد ان تهدأ تكتشف انها لم تزد على معرفتها غير الريح والشمس . وبحنان فكرت بالهواء وكتبت عنه :

اكتشفت أيضاً أن الهواء يضجر هنا . فهو لا يطيرّ الغسيل المنشور . ولا طائرات الاولاد من ورق . ولا يلوح بالاشجار وبالامطار . لذلك فكر في لعب الشطرنج . وما وجد سوى الكثبان لتكون الوزير ، الملك ، الجندي ، القلعة والاسد .

يجب عدم الاسترسال في الخيال . أية دار نشر ستطلب وهي تفلش الكتاب بعض الوقائع . لا يكفي وصف الرمل وتصويره . يجب أن أبحث عن الكائنات . من يحيا هنا فهو اعجوبة . اغمض عيني كأني الة تصوير . وفي العدسة تقف عقرب الصحراء . يقال انها جميلة الالوان . فتحت عيني وصممت على ايجادها . سأدبر لها

الكمين . سألحقها . سأدرس خصائلها . سأطعمها ، اجوّعها . اضبطها في حب . انتشاء ، غضب . وهي تشعر بالبرد . بالحر . ساصورها في أدق لفتاتها . علني التقط تعابير .

لكن ابتدأت العقرب تدبر الكمين لي . لم اجدها حتى الان . هل لان الصحراء تهتز من عجلات التراكتور . تدوي آلة الحفر والتنقيب عن البترول في بطن الصحراء وتخيف العقارب وتزحزح الرمل . تهدم بيوت النمل . فكرت : ربما علي أن أبتعد عن زوجي وفريقه . عن آلاتهم وصخبها . علي أن اسير في الصحراء ، انقب وحيدة ، شرط رؤ يتهم . أسير . ابتعد حتى اصبح زوجي وفريقه نقطة ملوّنة . التفت حولي . ها أنا وحيدة كالخنفساء المكبوسة بين رمل البتراء الملوّن . انحني كلما وجدت فجوة . انفخ الرمال مقلدة الريح ، ولا اجد سوى الرمل . ربما عقرب الصحراء لا تعيش في الربع الخالي . ربما الربع الخالي ، الخالي من البشر أيضاً خال من العقارب . عدت في اتجاه النقطة الملوّنة ، كلما اقتربت سمعت هدير الآلات تخرط الرمل . وظهر زوجي وعلى رأسه قبعة القش والشمس فوقه تضحك على هذه النقطة البشرية الآلية الملوّنة وعليّ ايضاً .

صعدت التراكتور ، وأنا أحس بخيبة أمل يرافقها شعور بأني لن أرى العقرب . بأني لن أرى سوى الرمال . وأنا أقنع نفسي بالاكتفاء بتصوير الطبيعة ، توقفنا فجأة عند غرفة خشبية . وأنا اتساءل متعجبة من يعيش هنا اكتشفت انها غرفتنا فقط من رؤ يتي للغرف التوائم المتناثرة .

تبدّلت الرمال من حولها ، رغم أن الصحراء ، خلف الصحراء .

داخل الصحراء . أمام الصحراء تحيط بنا . الا أن المناظر تبدّلت . حتى في الليل ، ونحن نسير حولها . تبدو النجوم اكبر . اقرب الى درجة خيل لي اذا مددت يدي كمشتها . القمر سعيد كأنه يرى نفسه في مرآة واضحة تعكس صورته . فلا يشعر بالغربة . كما هو فوق ناطحات مدينة نيويورك المشعشعة . ولا بالنقمة على مصابيح صيادي السمك لانهم نيام في الزوارق ، تهزّهم الامواج الخفيفة . يرى القمر من تحته بحرا من الرمال . لم تهطل فوقه الامطار قط . وكما في القمر بحر الهدوء . هنا يوجد البحر الصافي . حين ندخل غرفتنا الخشبية ، أشعر بأننا لسنا على الارض . وان غرفتنا معلقة بين السماء والرمل .

عندما توقف التراكتور صباح اليوم التالي رأيت غرسة الملح . غرسة واحدة تعارك أمواج بحر الرمال ولا تغرق . وكليَ كبت ونرفزة قلت للرمال :

اعرف تماماً أن الافاعي والسحال تنام في جوفك . تطمر نفسها في الرمال ولا تظهر سوى عينيها . تتمنى لو يغيب عن ذهنها أن لا ماء تشربه . بل تكتفي برطوبة ما تتنفسه .

وهج النور يعمي عيني لذلك لا أرى خيالي . ولا أرى خيال الكثبان ولا خيال غرسة الملح .

تلمع الجملة كالسّراب : « لا خيال في الربع الخالي »

لما توقفت لأشرب . عاودني نشاط يصحبه الأمل . يجب أن أتم الكتاب ولو لزمني أن أعود هنا ثانية . حتى لو رجعت الى نفسي . الى بلدي . وجلست وحيدة أم مع سواي . سألت نفسي او سألني سواي :

« ماذا فعلت عشر سنوات في السعودية ؟ » اجيبهم قبل أن يزحف شبح الايام الطويلة ، وتسبح في خيالي تلال الاطعمة في الثلاجة ، وفتحي المتواصل لها . وشرائي أساور الذهب . وذهابي لحفلات الشاي بعد ظهر كل يوم . والسباحة يومياً . أقول : « انجزت كتاباً » .

لم أجد العقرب بعد . رغم اني وجدت افعى تتمرغ في الرمال ، وتترك اثارها كأنها افاع . لكن ما ان سمعت تكة عدستي حتى فتحت فجوة في الرمل وانزلقت . انتظرتها . والعرق بلّل وجهي . الحسه ربما ابلّ ريقي . وعادت الجمل تسكب نفسها كشلالات صاخبة :

« اين العقرب ؟ عقرب الرمل ؟ تحت اي حجر تنام . تستمد البرودة من الجمر . تحت أي حطام شجرة يابسة تنام ، وأنا لا أرى حجر ، ولا خشبة » .

اجلس فوق الرمال الساخنة . امسكْ بحفنة بين اصابعي . هل تتحرك هذه المستسلمة ؟ تنزلق من بين اصابعي ، ناعمة . هل رغم نعومتها ، وجفافها وكأنها حبيبات الماس ، هل تبلع الانسان والكائنات ؟

اتأمل ما حولي . انسى أنني في الربع الخالي . أرى أمواجاً . أرى نمنمات ، تطريزاً بالابرة . خيطاناً حريرياً باللونين الابيض والرمادي . أرى صدور نساء بارزات الحلمات أعود احدّق . أرى فعلاً ما ذكرته . اسرع اخذ صوراً لجرادة . لأخرى . هاتان الجرادتان تستكشفان . ربما ستهجم الالاف بعد قليل ، كالمطر . اتمنى لو يحدث هذا . لكن الجراد لا يأتي فوق الجراد الحار . الا اذا احب طعم الرمل المملح .

اعرف ان الربع الخالي لملم حشراته وعقاربه . جمعها في منطاد ، طيّرها نزولاً حتى قعر الرمل . هو لا يريد تبديل حياته . وتالياً اسمه . انه ينتقم مني ومن الالات زوجي التي لا تزال تنخر بطنه . ربما حوّل البترول . ربما جمّده الى قطع بترولية ووضعها أيضاً في المنطاد وطيّرها نزولاً .

أتجه الى النقطة الملوّنة حيث زوجي وعماله . أشعر بأن الرمال تشد قدمي نزولاً . قبل وصولي اليهم أرى حجراً أبيض . أقف متسائلة . هل كان من الكلس ، أو أن ذرات الملح غطته . تقدمت اقلبه بهدوء ، ورأيت العقرب . كما رأيتها مصورة ، محنطة ، مرسومة ، لكن لم أرها من قبل لها هذا اللمعان والشفافية ، وتالياً هذه الألوان الجميلة . ابتعدت خطوات ريثما تطمئن وتظن أن الرياح وحدها قد حركت حجرها . فتحت زجاجتي ذات الثقوب ، وافرغت فوق الرمل بعض الحشرات نصف الدائخة . وجاءت العقرب . بطنها كحبة عنبر فاتحة اللون . كزجاج برتقالي ، بني وشفاف . تقترب بقوائمها الثماني . بكماشتيها وذيلها الذي يشبه مخلب السلطعون . في آخرها جيب يحمل سمها . ترفع ذيلها عمودياً فوق ظهرها . أرى ابرة اللدغ . تمسك الحشرة بكلتا الكماشتين ، تقرب ابرة ذيلها تغمسها في سمها وعيناها لم تتحركا .

اركض الى النقطة الملوّنة وأنا احمل العقرب في الصندوق ، وما عادت الرمال تشد قدمي نزولاً . ارفع يدي محيية زوجي وأنا سعيدة . لأول مرة . منذ أن تركت ولديّ في الظهران لا أشعر بوخز ضميري . افكر مجدداً في كتابي . علي أن أجد عقرباً آخر . اريد ان اصور الذكر

والانثى عندما يشدهما شوقهما وحماسهما ، فيقتربان بعضاً من بعض الى درجة تتشابك معها الكماشتان ، فيدوران يرقصان « رقصة الموت » قبل أن تسحب العقرب الذكر انثاه . الى مكان منعزل ، محصور . أريد ان أصوّر العقرب الانثى تلد عقاربها المئة ، كما تلد المرأة . وهي ترفعها فوق ظهرها . تسير بها ، وذيلها فوق رأسها . متأهبة لغرز سمّها في اي معتد .

لن أرافق زوجي هذا الفجر كالعادة . سأنام ساعتين . انتظر الحشرات ، ركزت صحون الماء أمام باب الغرفة . أريد أن أرى ما يحدث لها وهي تذوق طعم الماء لاول مرة منذ وجدت بين حماوة الرمال ، وجذباً لها ، فرّقت فوق الرمال بعض حشرات البلاستيك وفتات الخبز ، فتحت عيني لحظة ردّ زوجي الباب وراءه ، وعدت أغط في النوم . بدأت احلم اني اتممت كتاباً ، كثير الصور ، عديد الصفحات . وأن الربع الخالي أراد الانتقام مني . دفش باب غرفتي برياحه . امرها بأن تبعثر الأوراق والصور . لفحتني الرياح بقوتها وما استطعت الاستيقاظ بسهولة . اخذت تطيّرها وتفتح لها منافذ . كلما وصلت الى واحدة أحاول الامساك بها ، بوجهي ، بيدي ، بلعابي ، افلتت مني حتى لم استطع كمش صفحة واحدة . وأنا أقف في وسط الغرفة باكية اخذت العقارب والحشرات النادرة تنبت من جدار الغرفة . من سقفها ، ومن ارضها . وما استطعت الاستيقاظ بسهولة .

فجأة أشعر بثقل فوقي . اصرخ . انفاس كريهة . اصرخ . أرى عينيّ تحدقان بباب الغرفة المشرع . اصرخ ولا تجيبني سوى الريح . سوى الرمل . رجل فوقي يمد يده ويمزق سروالي . أقاومه . اعضه .

اخبط وجهه ، صدره ، لكن كأني اعض الرمل ، وتغرز العقرب ابرتها المسننة بي .

اعضّه وأنا أتقيأ . جسمه الثقيل ، الخشن ، يهتز فوقي . التقيؤ فوق صدري وعند شفتي . العقرب تلتصق بي كدودة علق . وأنفاسه تزداد . تتلاحق ، تتلاحق لتكف فجأة . يخرج مني حين افرغ كل سمه . ارفع نفسي بجهد وأنا لم أكف لحظة عن الصراخ . احاول رميه بأي شيء ، لكنه ينسل بسرعة كما جاء . يختفي تاركاً ملابسه وأنفاسه مطبوعة في ذهني الى الابد .

أنا أحلم . والا كيف ولدت ارض الربع الخالي رجلاً وهي عاقر . لكن رائحة التقيؤ لا تزال ، التقيؤ لا يزال . ارتميت على الارض ، متعبة . أواصل البكاء وأنا أرتعش . رأيت قميص نومي الممزق ، لا أعرف ما مضى من الوقت . انه كابوس ، لكن وأنا أحاول النهوض أخذ بلل يزحف .

عدت ارتمي وأنا أفكر في تطهير نفسي من لدغة العقرب . يجب ان آتي بضاغطة الشرايين وأشد ما بين نقطة اللدغة والقلب . يجب ان آتي بالثلج اضعه مكان اللدغة حتى يتجمد السم ولا يصل الى عقلي . عدت اصرخ . سمعت الريح تصرخ . بكيت . سمعت الرمال تبكي . دققت رأسي فوق خشب الغرفة . سمعت العقرب ، الحبيسة صندوقها ترد دقتي .

ها أنا ممددة ، اشعر تماماً كما هو مذكور في نشرة الاسعافات الأولية تحت لدغة العقرب :

الـم . تنميل تخـدير . غثيان . حشرجـه فـي الحلـق ، انـكماش عضلات الحلق والرقبة . يتزايد الريق في فمـي . ويصبـح كرغـوة . يهطل العرق . ينعدم الاوكسجين مكان اللدغة ، تنتشر البقع الزرقاء والحمراء فوق جسـمي .

احاول أن اغمض عيني . اقنـع نفسي مرة ثانية ان ما حدث هو كابوس . لكن استطيع استرجاع انفاس الرجل السامة . رائحته السامة وملابسه .

نهضت بتثاقل ، ارتكز على الرف الخشبي ، فجأة أتتني قوة خارقة . هجمت على الاوراق . الافلام . امزّقها . اعضّها . اضربها . اعلكها . أبصق عليها ، ثم ارميها من الباب ولا يزال مفتوحاً . تأخذها الرياح . تفرح بها الكثبان . ربما الثعبان الذي قيل أنه شوهد وهو يطير من تل الى تل سيظن أشرطة الافلام السوداء ثعباناً جديداً ولد لتوه في الربع الخالي . افتح الصندوق ، أرمي عود ثقاب ، آخر ، وآخر . ولا أتوقف الا عندما أرى النار . وأسمع عظام العقرب تطقطق . . .

وردة الصحراء

صاح الديك . تنحنح المؤذن . شمت البرغشة رائحة الفجر . سحبت ونينها ثم حطت في مكان لا يراها فيه أحد .

تتقلب مهيوبة في الفراش . تزفر . تستغفر الله . يسقط شريط حمالتها عن كتفها كلما تقلبت . تغطي وجهها بالوسادة . يحتجب نور الفجر عنها للحظات . ولا تنام . أنفاس نايف لا تزال تصل اليها . تسد اذنيها بالوسادة . تتقلب من جديد . تحضن الوسادة . تشدها على جسمها ثم تبعدها عنها وهي تستغفر الله .

تجلس في سريرها والغرفة من حولها ساكنة الا من حركة خفيفة ، تحدثها ابنتاها النائمتان . تنظر مهيوبة في اثاث الغرفة القديم . تحدق في الستائر الباهتة اللون . في المرآة التي عششت فيها الرطوبة . تنتقل ببصرها وتجمّده فوق صورة رجل لثوان ، لمدة ، قبل أن تنهض وتقترب من الصورة . ترى رغم العتمة الخفيفة عينيه الملونتين تنظران اليها . فمه الاحمر القاني يتحرك . شعيرات سوداء صغيرة تطل رغم العمامة الخضراء المخبئة كل شعره . تقترب ، تقبل الوجه ، تسعل ، تمسح فمها من الغبار الذي علق فوق شفتيها . تعود تريح وجهها فوق وجهه . لكن شدة سواد حاجبيه الطويلين ابعدتها . شعرت كأنهما سيفان يقفان في وجهها . استغفرت الله . التفتت حولها مذعورة .

لكن ، كل ما في غرفتها ساكن . تعود الى فراشها وهي تبسمل ، تفكر هل مسها الجنون ، والا كيف تفسر سبب اندفاعها الى تقبيل الصورة (المعلقة على الحائط منذ أن تزوجت) . وكانت أم نايف اشترتها من ايران إنها رسم للنبي محمد .

الساعة التاسعة الان . الصمت يعم البيت كله . جلست مهيوبة تشرب الشاي وهي تفكر كيف أن الله يخص الام بقوة خارقة . نهضت بنشاط توقظ ابنتيها . تلبسهما ، تمشط شعرهما ، رغم النوم الذي تسلل اليها عند الفجر فقط .

خانها النوم البارحة . تركها تتقلب في فراشها الليل كله ، تركها تشعر بالرودة وبالحر معاً .تبحث بيدها عن شيء تحتضنه ولا تجد سوى الوسادة . كلما حاولت النوم ، سمعت أنفاس نايف تأتي اليها بحرارة من الغرفة المقابلة . تتسلل حتى ظهرها تتحسسه . تنهض مذعورة ، تضيء النور ، ولا ترى سوى ابنتيها النائمتين . تشعر بأنها سجينة هذه الغرفة . غرفتها هي بيتها . أقسام البيت الأخرى هي لأم نايف وروحية وابنتها . تنظر مهيوبة الى سقف الغرفة . ثم يحط بؤ بؤ هـا على شنطة يدها المخبأة فوق ظهر الخزانة . تفكر في لونها الاحمر . ولما تذكرت ما في داخلها ، سمعت نفسها تقول : « اعوذ بالله من الشيطان الرجيم » . حاولت ان تتلو الايات ، ومع ذلك بقيت الشنطة الحمراء في خيالها . استغفرت الله . ثانية وثالثة قبل أن تنهض وهي في قميص نومها . تدخل المطبخ . تسخّن الماء . تغسل الصحون . تشعر بألم بسيط في أناملها . يبتل قميص نومها . تهبط خصلة شعرها حتى عينيها . تجفف يديها بقميصها . عندها يعود الالم . ترفعها ، ترى طبقة من الاحمرار

قد غطتها . تعود تجفف الصحون . تضعها في الخزانة . تفتح البراد تأتي بقطع اللحم ، بالخضر . تفرد حبيبات الأرز فوق صينية . تنقيه من السوس . تغسله ، ثم تنقعه لدقائق . ثم تغلق على كل هذا في قدر فوق النار .

تتناول المكنسة المرمية خلف باب المطبخ . تمسكها بيدها . تنحني تكنس غرفتها وحين تنتهي ترد الباب . تقف برهة أمام باب غرفة روحية المغلق . تقصد الغرفة الثالثة ، حيث تنام أم نايف . تفتح الباب بهدوء تتنفس بارتياح حين تسمع شخير المرأة العجوز . تسارع الى غرفة روحية تدخلها وقلبها يدقّ . تلتقط عن الارض سروال نايف ، جواربه وثوبه . تجمعها على شكل صرة . تتركها فوق السرير . تتقدم الى طاولة الزينة خاصة روحية. تتعجب لكثرة المرايا . وللأزرار الكهربائية . ترى قنينتين كبيرتين من العطر . أقلام أحمر شفاه . مكوى لفرد الشعر . كريمات للوجه وللشعر . تجلس على كرسي الطاولة المخملي . مقابل المرآة . تفتح درج الطاولة . تجد بعض الصور . عقوداً . تمسك بقنينة وعليها صورة خصلة شعر شقراء . تزيد دقات قلبها . وهي تفكر في قسم روحية الباطل ، في أن لون شعرها الاشقر طبيعي . تعد وجهها تتطلع في آخر الدرج . ترى الكثير من قناني الصباغ . تفتح الدرج الثاني . ترى ملابس داخلية . تظن مهيوبة لوهلة وهي تتأمل صغر حجمها ، انها لابنة روحية . لكن لكل سروال حريري حمّالة صدر مشغولة بالنتنة السوداء والحمراء . ترى قطعتين من الكاوتشوك في كل حمّالة . ترتجف وهي تفكر هذه المرة بصوت تسمعه : « بنت الحرام تحشو صدرها » . تعيد كل شيء الى مكانه ثم تنهض الى الخزانة . تجدها

مقفلة بالمفتاح فتفكر : « هالملعونة خايفة اسرقها . هي اكبر السارقات . سرقت زوجي وأبا أولادي » .

تقترب الان من السرير . تمد يدها تتحسس شراشفه البيضاء والمزركشة بالرسوم . تنتقل الى الوسادة ، تجدها ناعمة بين يديها . تتأمل جمال السرير . والمصابيح من على جانبيه . تضبط نفسها وهي ترتب السرير . تعود تبعثره . رامية ملابس نايف على الارض .

تدخل غرفة ام نايف على رؤوس أصابعها . العجوز لا تزال تشخر . ترد الباب عليها . وتتناول المكنسة ثانية . دموعها غزيرة وهي تكنس وتفكر في ستائر غرفة روحية ، في شراشفها ، في كرسي طاولة الزينة المخملي . تستطيع الان تصور نايف في السرير مع روحية .

تنحني مهيوبة تلتقط العاب ابنتيها ، لم تتوقف عن مسح دموعها في ذيل قميص نومها طوال الوقت . ترى الحنة يبست على الالعاب . تبتسم وهي تتذكر كيف حنّت كفيها وقدميها البارحة بعد أن فقدت الأمل في اسكاتهما . فهما ما كفتا عن البكاء ، منذ أن رأتاها تحني شعرها وكفيها . واذا رفضت مهيوبة أن تحنيهما فلسبب واحد . ان الصغار لا يصبرون حتى تجف الحناء تماماً . وهذا ما حدث البارحة . فابنتاها ما توقفتا عن القول : « نبغي نشرب » . « نبغي نبول » ولما جفت اصابعهما جاءتهما بالالعاب تلهيهما ريثما تجف اقدامهما . تنتهي من التقاط الالعاب . تعود الى المطبخ . تفتح غطاء الغسّالة الكهربائية ، تخرج منها الملابس . الى طشت كبير . تصب الماء الذي يغلي في صفيحة . ترش مسحوق التايد . تنحني وهي تغرق الملابس في قاع الطشت ، حتى يغمرها الماء . يعاودها الم كفيّها . تفكر بأنها ستتحدث

الى نايف اليوم . يجب أن تطلب منه ليأتي بأحد يصلح غسالة الملابس . عليها ان تهدده قائلة بالحرف « لازم روحية تساعدني في غسل الثياب . الغسالة ما تتصلح » . تفطن مهيوبة الى أن جميع المسؤوليات التي اختارتها روحية لا تحتاج للماء وللصابون . تزفر زفرة طويلة وهي تحدث نفسها : « دهاء بنات الشام . من البداية فكرت في ما يضر بجمالها ، حتى بجمال يديها » . عاد العرق يتصبب من جبين مهيوبة ، من تحت ابطيها . تفكر أن عليها الاتيان بملابس نايف ، ترفض الفكرة ، لا يجوز أن يعرف نايف أني ادخل غرفته ، ولا أريد ام نايف أن تخبر روحية بأني دخلت غرفتها أثناء غيابها .

فقاقيع المسحوق ورغوته غطت الملابس البيضاء والملوّنة . وعندما دخلت ام نايف المطبخ وهي تجر نفسها جراً ، وجلست على الكرسي قالت : « انت بتغسلي حقتك وحق بناتك بس » . لم تجبها مهيوبة ، بل ابعدت الرغوة بكفها ، واخذت تخرج الغسيل ، تعصره تضعه في طشت آخر ، لما سألتها ام نايف : « غسلت هدوم نايف ؟ »

نفخت مهيوبة بتأفف قبل أن تجيب : « اغسلها كل يوم لما روحية بتجيبها ، لكن ، أنا ما خش غرفتهم » .

قالت أم نايف وهي تنهض ، فمها يعلك قطعة من الخبز اليابس : « لكن يا بنتي ، انت وياها زي الاخوات . الكل يضرب المثل فيكم » .

هزت مهيوبة رأسها . وردّت « حق ، أتونس فيها . كمان هي تأخذ عني نصف شغل البيت » . تعود مهيوبة تمسح العرق بطرف كمها . تنتشل يديها من الطشت ، تمسحها بقميصها الذي تبلل معظمه الآن .

تسمع خطوات أم نايف التي لا تزال تجر نفسها جراً ، امسكت بملابس ابنها للحظة ثم رمتها أمام مهيوبة . لما فردتها مهيوبة شعرت برجفة وهي تشم رائحة نايف . انها مشتاقة اليه . تخيل لها جسمه الاسمر عندما كانت تدخل الحمام وتفرك له ظهره . كأن حقدها عليه اخذ يذيب نفسه بنفسه خلال هذين اليومين . بل اختفى بعد ساعات من سفر روحية الى الشام ، (عقب وصولها برقية من اهلها يعلمونها بأن والدها في خطر) . وعاد فجأة نايف ابا بكرها حازم ، وايمان وماجدة .

تفرك مهيوبة ياقه ثوب نايف ، تشعر بحبها له الآن ، كما كانت تحبه . تفكر : لولا الغرفة المغلقة الباب . لولا قوارير الحليب ورضاعات ابنة روحيه المصفوفة في المطبخ ، لكانت نسيت تماماً وجود الزوجة الثانية .

تفرك ملابس نايف الداخلية ، تفركها بأصابعها المتورمة ، بحب وحنان . تسأل نفسها هل رجعت تحبه ؟ هل كرهته حتى ما استطاعت النظر في وجهه ؟ هل رجع الحب يتسلق تلال الكراهية ، أو أنها تحت تأثير الأفلام التي تراها عند ام فواز ، والتي مفعولها يبقى مدة طويلة في تفكير مهيوبة يسترجع نفسه ؟ يريها حتى خيالها الصور والافلام في وضوح كذلك احاسيسها عندما رأت الرجل والمرأة يرتعشان . عندما امتدت لهفتها اليها ، شعرت بفراغ تريد من يملأه حالاً . لم تفكر في نايف آنذاك ، ربما لأن روحيه كانت ترى الافلام معها . تمنت أي رجل . عرفت أن بتفكيرها هذا قد اقتلعت الفكرة من جذورها . أي رجل معناه لا رجل . كتب عليها الدوران في غرفة الحرمان الحلزونية الشكل .

فكرت تلك الليلة مدهوشة ، كيف مرّ عامان وهي متروكة بلا أنفاس نايف فوق وجهها . مهجورة في السرير . ما اهتمت كثيراً بالنوم وحيدة في السرير قبل رؤيتها لافلام ام فواز . ربما لان الغيرة من جمال روحية اعمتها من التفكير في نفسها . الحقد على نايف وخيانته لها حفرا في قلبها سداً لغمته بجراح ، منذ عودته بأمه من الشام (وكانت في أحد مصحات الصدر هناك) ومفاتحته لها بأمر زواجه من ممرضة امه .

وقتها اكتفت بالصراخ . صرخت تلك الصرخة ثم خرست . ما عاد يسمع صوتها . وأخذت توصد باب غرفتها كل مساء .

تنهض الان مهيوبة تحمل طشت الغسيل ، تلتف بالعباءة السوداء . تمر بأم نايف ، ثم تصعد درجات السطح ، تنشر الغسيل فوق الحبال . لاحظت أنها تأخذ وقتاً طويلاً في نشر كل قطعة ، انتبهت بأنها تتصور سريراً يضمها ونايف على بياض كل قطعة . تتنهد وهي تنزل السلالم . تدخل المطبخ ، تجفف العرق . تضع في المقلاة حفنة من السكر وبضع قطرات من الحامض . تحرك المزيج حتى يصير لزجاً . تسكبه فوق بلاط المجلى ريثما يبرد . ترفع الغطاء عن القدر . تحرك الطعام ، تعود ترفع المزيج الذي جمد . تدعكه بأصابعها وهي تدخل الحمام . لما تسمع آذان الظهر تستشهد بالله ، تفكر أنه ربما لا يجوز أن تنتزع الشعر عن قدميها وتحت ابطها والمؤذن يصلي . لكن يجب ان تنتهي قبل أن تأتي ابنتاها من المدرسة ونايف من عمله . تنحني مهيوبة تنتزع الشعر رغم ضوء الحمام الخافت . تستحم ، تتوضأ وتسرع حتى غرفتها تصلي . تخلع ثوب الصلاة . تنثر البودرة فوق جسمها . تتناول من الخزانة الفستان الذي أرسله ابنها حازم من انكلترا

حيث يدرس . تقترب من المرآة تسرح شعرها . تضع قليلاً من أحمر الشفاه . وبودرة على وجنتيها . ترى وجه الرجل ينظر اليها . تذكرت هذا الصباح ، تقلبها في السرير ، كما تقلبت ليلة امس . ونايف في الغرفة المقابلة بعد ثلاث خطوات منها . ودّت لو تدخل عليه ، تكلمه وتضمه اليها .

تشعر الان انها قد عادت تحب غرفته ، رغم أثاثها الجديد . اختفى كرهها للغرفة ، فوصل الى درجة جعلها لا تجرؤ حتى على رؤ ية بابها . فالروح تدبّ في الغرفة . اخذت مهيوبة تتخيل الغرفة قبل أن تدخل روحية حياتهما ، حيث كانت اسرة أولادها .

كل شيء تبدّل لحظة حدثها نايف بعد عشاء أمس . انتظر حتى تنام امه ودخل على مهيوبة في المطبخ وهي تغسل الاطباق . سأل لماذا لا تتركها حتى الصباح . ولما لم تجبه ، سألها ان تأتي غرفته ، اقترب يتوسل لأن ترد عليه . قال أن صمتها بات يعذبه . وجدت نفسها تسأله : « ليه تبغاني أجي غرفتك ؟ »

لما اجابها : « انت زوجتي واللا ناسية ؟ » فقدت عقلها ، كأن بجملته هذه قد رمى بعود ثقاب فوق جبل فيه الاشواك يابسة تصل حتى السماء . النار اندلعت في قلبها . صعدت حتى زلعومها . وقفت عند حنجرتها . العرق بات كأنه سيل يتكاثف منتظراً ، انفتاح السد . ولما فتح ، تدفق من كل مكان . حتى من الاظافر .

صاح صوتها المختنق بالدموع وبالقهر : « لماذا نسيت انني زوجتك لعامين ؟ » أجابها نايف ويده فوق جبينه ، بينما عيناه تنتقلان بين ارض

المطبخ وصندالة : « انت قفلت باب غرفتك ، بالمفتاح ، هذه اهانة » . قالت بسرعة ، بعفوية : « لكني عدت ففتحته ؟ »

ندمت مهيوبة لهذا الجواب . ظنت أنها اسكتت نايف الى الأبد . ندمت ظناً منها أنها اقفلت باب المصالحة والحوار . لكن ولمفاجأتها قال :

« نعم ، فتحت الباب لما كبرت ايمان وماجدة . . . وحرام . .

سكتت مهيوبة وهي تعرف أنه يكذب . روحية تمزّقه لو حاول أن يدق بابها ليلاً . تغرز اظافرها الطويلة المطلية بالاحمر في لحمه ولحمها . زفرت زفرة طويلة وسألته : « لماذا تزوج اخرى ؟ لماذا روحية ؟ ألأنها شقراء . بيضاء اللحم . ألأنها تشرب الخمر معه . ألأنها تحب السفر . ألأنها تحضر قوالب الكاتوه في الاستقبالات » .

سكتت . وبقي نايف ينتقل بعينيه في بلاط الارض الى صندله . قبل أن يجيبها : « تزوجتها لأني أردت صبياً آخر ، يحفظ الله حازم . استغفر الله العظيم » .

كانت تعرف أنه يكذب . عندما تزوج من اخرى كانت في الرابعة والعشرين . الايام طويلة بينهما ولا تزال . وهي لم تقل أنها لن تنجب بعد .

اخذت دموع مهيوبة تتساقط . تستقر عند فمها . تود لو تخبره أنه كان غريباً عنها في تصرفه . كأنها لم تكن يوماً ما زوجته . وأم أولاده . هل ظنها بلا شعور اذ هي فضلت الصمت . عندما استحضر روحية وأسكنها مقابل غرفتها . هل فكر أن يزورها ليلة . بل عاش حياته وزوجته الجديدة . كأنها ليست قبالتها ، تسمع كل حركة تصدر

عنهما . وتكتفي بالدموع ، بالنحيب ، وبتدخينها للسيكارة تلو الاخرى سراً . « أنا رضيت روحية تشاركني بيتي ، بس عشان ما أترك بناتي » .

يرد نايف : من قال بغيت اطلقك !! مين اللي قال ، عاوز آخذ بناتك !

تجيب مهيوبة والدموع لا تزال تتساقط :

ما تأخذ بناتي مني ، لكن من ينفق عليهم ؟ انت ، لكن روحية ما ترضى . قلبي حسّني أنها طمّاعة ، يمكن يوم توسوس لك وتقنعك تقطع علينا النفقة . . وأنا أطلق وأعيش عند أهلي ، وأجيب هم العار . . تعرف انت المطلقة ، والخوف عليها أكثر من العذراء . .

يسكت نايف . تسكت مهيوبة ، ولا تزال تغلي . تود لو تصيح به : عامين وأنا أذبل . فضلت الصمت ، لكن ربما الصمت هو ابعدك عني . هل ظننت اني مكتفية احمد الله على اللقمة ، غير مبالية بهجرك لي ؟

تفكر مؤنبة نفسها ، ربما كان يجب أن أحادثه اكثر ، اطلي وجهي بالمساحيق كل يوم ، ارتدي الفساتين التي تكشف عن القدمين والذراعين . أضع شريط أم كلثوم . وقبل أن تصرخ أم كلثوم آه ، أكون قد سبقتها وصرخت آه . لكن ، كيف اوفق بين الصرخة ، بين وضع المساحيق وتأمل وجهي ، وبين الطبخ والكناسة وتربية الاولاد . أم نايف تعطي روحية المثل الاعلى للزوجة . لكن ، لو كففت عن مساعدتها في شغل البيت لاصبحت رائحتها كرائحتي تايداً وغباراً وبصلاً .

فضلت مهيوبة الكلام على الصمت . ونايف لا يزال واقفاً منهمكاً ، يصب الماء في كوبه :

« وأنا كمان مش ممكن اخش غرفتك وأنام في سريرها ؟ »

ولدهشتها قال : « ان شاء الله ابني فيلا . وأعطيك أنت دور ، روحية دور » .

تنحني الان مهيوبة تتناول صندلها من تحت السرير . حتى في البيت ستلبس صندلاً تماماً كروحية . تأتي بشنطة يدها الحمراء من على ظهر الخزانة .وهي تبحث عن قنينة العطر الصغيرة ، ترى الصورة العارية لرجل ولامرأة . تفكر في اعادتها الى أم فواز . وهي تمسك بقنينة العطر تمسك أيضاً برسالة ابنها حازم . تمسكها وتقبلها وهي تلمح السطر الاول : « شكراً لوردة الصحراء . . » وكانت مهيوبة قد أرسلت له وردة الصحراء . بناء على طلبه . وهي لم ترها ولم تسمع بها من قبل . عرفت أن مكانها في الصحراء يبعد مئات الكيلومترات ، وأنها تباع في السوق عند تاجر من الهند . قبل أن ترسل مهيوبة وردة الصحراء ، فتحت القماشة الملفوفة ورأتها . فعلاً وردة ، سبحان الخالق . لكن من رمال جامدة ، مترسبة ، جميلة ، لا يعرف بجمالها احد سوى الذي يحفر الصحراء ويخرجها والا بقيت مطمورة لا تتنفس الا الرمل ولا تحوم حولها الا العقارب .

« هي كحالي أنا » ، تبتسم مهيوبة وهي تقول لنفسها أمام المرآة ، وقد امسكت بالمشط تسرح شعرها . « هي كحالي أنا . وأنا وردة مخبأة لا أتنفس الا الحرمان » .

ترد مهيوبة باب غرفتها بعدما دلقت قنينة العطر عليها . تدخل المطبخ تطفىء النار تحت القدر . بينما تجلس أم نايف فوق مسند على الارض تشرب القهوة . لدهشتها تسمع مهيوبة العجوز تقول : « اذهب يا قط ، العب يا فار » . لم تجبها . بل اخذت تسكب الطعام في الصحون ، وتذيب الحليب المجفف في الابريق الزجاجي وهي تفكر : « المفروض أن أكون القط . وروحية الفأر » . لكن الله مع الصابرين ، هو اللي فوق عادل يقدّر ، يصبرني عام . حتى ننتقل للفيلا . دور لي ، دور لروحية . ساعود زوجة نايف . عام ويمضي مسرعاً اذا أردته . الله عادل . . الله جبار ويقدر يصبرني » .

فانوسة

رأيت نقاط دم فوق البلاط . زجاج متناثر . ثم وجه مسعد الأصفر كأنه حجر كارب لا حياة فيه الا عندما تتحرك به خرزتان سوداوان . فمه مزموم جامد . أبعد كفه المغطاة بالدماء عن جسمه . كأنه يريد التبرؤ منها . عاد يصرخ كطفل صغير يرى الدماء ولا يفسرها سوى بالخوف . وأنا أقترب منه أبعد كفه عني . هرب وقفز في الهواء لما اقتربت منه أكثر . صرخت به . ولدهشتي جمد في مكانه . للمرة الاولى منذ أشهر استطعت أن أحدق في وجهه والاحظ طيبة ملامحه . عندما لامست يدي كفه عاد يقفز ويصيح باكياً ، شاكياً ، متعثراً بكلمات لا أفهمها . تركته أطلب زوجي . وما سمعت الجواب . فمسعد قد صرخ صرخة عظيمة لا بد أنها صرخة ألم . وجدتني أقفل سماعة الهاتف وأعود الى المطبخ . لكن لما رأيت وجهه جامداً . وفمه مزموماً . شعرت بالضيق فجأة . وأنا أنقل بنظري وأرى الفوضى تعم أرجاء البيت . صحت به : « ما بك ؟ » ولدهشتي عاد الوجه الجامد ، والفم المزموم ينفرجان عن بكاء غريب اللحن . فيه سجع مضحك . لولا دموعه لظننت أنه يغني وهو يميل برأسه ويعض على شفتيه . استطعت فهم كلمة واحدة : « كيف المستشفى ؟ . . » لقد سمع محادثتي ، وهو خائف . حاولت التفسير له بأن عيادات الاطباء كلها في المستشفى . لكنه ما سمع شيئاً ، وما توقف عن الولولة ، وعن هزّ رأسه . اقتربت منه مواسية ، اطمئنه

بأنه ربما لن يحتاج الى طبيب اذ هو دعاني أرى جرحه . لكنه هرب مني وكأني مرض الطاعون . كاد صبري ينفد . اتجهت الى الخزانة أفتح علبة مهدىء الاعصاب ، أضع حبتين على الطاولة وآمره أن يبتلعها . أخذها بين أصابعه يقلبها ويسألني وهو يضعها على لسانه : « هذا اسبروك » . هززت رأسي بالايجاب . تناولت من الدرج منشفة ، قديمة ، نظيفة ، وقلت له بلهجة آمرة : « غسّل كفك » .

دخلت غرفة ابني . اقتربت من سريره . رأيت صدره يعلو ويهبط بانتظام . ملت اليه لأرى ابتسامة خفيفة استقرت عند زاوية فمه . عمتني السعادة فجأة . نظرت حولي . كل ما في غرفته مرتب ، نظيف . اجدني الان أصدق صور دعايات الاطفال لاول مرة ، وهي تظهر الاطفال سعداء ، يتبسمون فوق علب الحليب، الحفاضات والصابون . فابني كان دائم البكاء في أشهره الاولى . ابتعدت عن السرير وأنا أفكر بأن مسعد قد ساهم في تحقيق أسطورة صور الدعايات السعيدة ، فمسؤ ولية البيت قد استقرت فوق كتفيه النحيلتين ، وبات كأنه الجن يلبي طلبات حامل المصباح السحري .

عدت الى المطبخ ، أرى مسعد قد جلس على الكرسي وقد ألصق يده بصدره . وجدتني أسأله لأن يمد كفه . ولدهشتي مدّها ، ورأيت أن الجرح بسيط لدرجة . والدماء قد توقفت . قلت له مبتسمة : « ان شاء الله ما تحتاج لطبيب ، لكن يجب أن أضع عليها مطهراً ودواء أحمر وضماداً » . أجاب بصوت مرتفع : « الله يمدّ لك بالعمر ، جزاك الله ألف خير . وأبعد الشر عنك وعن رجالك وابنك يا بنت الحلال » .

لكن ويدي تحاول أن تصل كفه سحبها وقال واقفاً :

« ما يلزم ، ما يصير ، ما يوقع هالكلام » . لم أناقشه . حذفت علبة الاسعاف حتى آخر الطاولة . نهض مسعد وقال : « مع السلامة ، رايح شغلي » . استدرت وأجبته : « أجلس على الكرسي ، ما في شغل وكفك ما هي ملفوفة » . قال : « والشاهي ؟ ابغي أصلح شاهي » .

هززت رأسي بالايجاب وأنا أشير له ليظل جالساً . لأول مرة أرى مسعد يجلس على كرسي ، قد بدا رجلاً طبيعياً رغم ضآلته ، ومسافة ساقيه القصيرتين . فكرت كم من الصعب تحديد عمره . فهو يبدو احياناً في العشرين ، وأحياناً في الستين .

نهض فجأة ، ربما لان تحديقي بظهره قد طال ، وعاد يجلس وهو يضع كفه المعافاة فوق جبهته ويقول : « حاسس الدنيا بتلف وتدور في راسي » . أجبته : « معليش هذا من الاسبرو » ، الباب يدق . افتحه لولدين . اعتقد أنهما كانا ينتظران اطلالة مسعد ، لانهما وقفا مندهشين ، ينظران الى بعضهما وأنا أردد كالآلة : « نعم » « نعم » فجأة طارا يركضان . دخلت المطبخ أقول : « في ولدين ، دقوا الباب وهربو . . » صاح مسعد « اولاد الحرام ، جايين يرمون علي الحنش ، ايش يبغو بفلان مثلي ، دايماً يحبون يشوفوني بالكربه ، اتمرمر ، اتفلفل . أولاد الحرام ، أمهم ولدتهم وما سمّت بسم الله الرحمن الرحيم » .

وجدتني أقول وأنا بين الضحك والضيق : « أنت عارف أن الحنش بلاستيك ، مش حقيقي ، وليش تخاف ؟ »

وتذكرت مسعد ، وقفزه عن الارض وكأنه محارب بين صفوف

الـسوماريين . وقد نقشت علامات الهلع على وجهه . فمه مفتوح على مصراعيه ، وصياحه الذي كاد يصل الشمس . قلنوسته التي طارت عن رأسه وعاد يدفشها بقدمه ، يركض غير مبال بتعثره في وعـاء الغسيل الذي كان ينشره فوق الحبال . ولم يبال بعضه الذي علق في نعاله .

قال مسعد بصوت عال : « أنـا عارف يا عمتـي ، هو حنش مش حقيقي . لكن سبحان الله ، قلبي يدق لما أشوفه . اذا كان مطروح على الورق ، واذا كان مصبوغ من ذهب . ماني عارف السبب . سبحان الله ، ينتفض شعر جسمـي . حتـى شعـر تخـرى ، وتصـير رجـولي تجري . الحنش يخوّف حتى الجـن . يخـوّف اكثـر من الحرمـة . . أي والله ، أكثر من الحرمة » . سألته متعجبة : « حرمتك ؟ أنت متزوج يا مسعد ؟ »

وقبل أن يجيبني ، تصورت زوجة ضخمة . لكنـه قاطعنـي رافعـاً رأسه الى السقف : « أعوذ بالله ، الحمد لله » ، وعدت أسأله : « إذاً ، مين الحرمة اللي بتخاف منها ؟ » وعدت أتصور أم ظالمة ، حبيبة خائنة ، أم أخت لعـوب » . لكنـه أشـار بيده مبعـداً ، كأنـه يبعـد عنـه هذا الموضوع . وانهمك يمد يده الى كوب الشاي يرشفه بصوت مسموع ، رافعاً عينيه الضيقتين ، والتجاعيد عن جبهته وعـن صدغيه ثم قال : « هذا شاهي عظيم ، هذا شاهي أبو ريحه ، الوقيه منه في اليمن لأزم بآلاف البقش » .

فكرت ان مسعد فعلاً رجلٌ ماكر ، تماماً كما قال لي زوجي ، لّما كنت أشفق عليه في الايام الاولى لعمله وأنا اراه خلف تلال الصحون يغسلها ويمسح عرقه بين لحظة وأخرى ، وأمامه تلال الغسيل . وأنا أراه

رافعاً أكمام قميصه ، يركع وهو يجف أرض البانيو . لم أكن قد رأيت رجلاً خادماً من قبل .

عدت اسأله وفضولي قد ازداد : « مين الحرمة الي بتخوفك يا مسعد ؟ » . أجابني وفتات البسكوت تتناثر حول فمه وعلى الطاولة : « احلف بالله العظيم ، أني ما رفعت نظري على حرمة واحدة . حتى اختي ما اكلمها الا في اللزوم . ابنتها ما تسمع مني حتى كلمةالسلام عليكم . صدق الله لما كتب : ان كيدهن عظيم ، هن جنيات ، أي والله ، استغفر الله ، هن بنات الشيطان ، ما عرف عزّ وجل ليش خلقن . استغفر الله ، ليش ما قرض جنسهن ، لما عرف وكشف حواء ، حرمه ، غشاشة ، ملعونة ، عصت أوامر الله ، وعطت التفاحة لابونا آدم . الحرمة ما حد يوقف بطريقها . لأن في مخها تلفيفة شر ، استغفر الله العظيم منها . أنا شفت بعيني « فانوسة » وهم يرجمونها . وسمعتها وذاني بتصيح ، « سامحوني ، سامحني يا الله » ، حتى كيس الشوال اللي حطوها فيه كانت خيوطه كبيرة ، وسيعة ، كان يودّي الصوت ، ويودّي الدم . الدم كان يرعف ويطرطش الرمل والحصى . وما شفق على منظرها قلب . وما لفظ لسان واحد الله يسامحها . الكل صاح : « الله ياخذها جهنم الساعة ، الحين ، استغفر الله منها حرمة شيطانة ، كلبة ، بتفعل الطلاميس والسحور »

وجدتني اسأل مسعد بنفاذ صبر : « ليش رجموا فانوسة ؟ » وصرخ بي وسمات الكراهية والخوف ارتسمت على وجهه : « ليش حتى ما يرجموا فانوسة ، نور الصباح ، ونور القمر بريء منها . فانوسة ، أم زفت وقطران سرقت راجل يا عمتي ، وسحرته . كانت تريد تسرق

رجال كثير ، لو العسكر ما جو وكربجوها . اي والله ، استغفر الله ، صار الدم ينبع من كيس الشوال حتى صار ساقيه ، لما سكتت حركته خافت الناس . خافت لو فانوسة تترك روحها تسحر العسكر ، وكل من مد يده ورجمها . هجموا عالتراب والحصى وكل شيء مدمّم ، حتى كيس الشوال يدفنونها عميق ، حتى آخر الارض . وبخّروا مكان رجمها كله . وقرؤا الايات البينات ورددوا اية « النفاثات في العقد » أي الملعونة مئة مرة كانت ساحرة ، سرقت الرجل وسحرته . استغفر الله ، وأنا واقف بين الجموع ارتجف كأني طير بردان ، من شدة خوفي قلبي فارقني ، ولساني انعقد ومارضي يطاوعني الا بعد ما حلفت بالعظيم أنو ما قرّب من حرمة . وينعقد لساني كل ما اذكر صوت زوجة العباس ، مسكينة ناحت مثلا المرا المولّدة .

« الله أكبر » . ناحت زوجة العباس . وصاح الفقيه . الله اكبر الجنية سحرت العباس حمار . اقتربت زوجة العباس من الحمار تربت على ظهره نايحة : سحرتك الله يسحرها . وجروا فانوسة . الحريم بصقوا عليها . الجهال دقوا لها عالتنك . حاولت فانوسة تنجّي روحها . قالت لهم العباس وهي بحبو بعض . وكانوا مستنين حتى يهربو صنعاء ويتزوجو على سنة الله ورسوله . وعن وعاء الزيت قالت أنها كانت تغليه لتفرك رقبة العباس . والحجاب ما هو الا كيس اللحم اللي خلقت فيه ، وامها جففته وصارت تستبشر فيه . لكن عقولهم ما هي صغيرة . ما صدقوها . رجموها . وما تركوا شي من أثرها ، والعباس المسكين المسحور حمار صار يصيح زي البني آدم لما هجموا عليه العقال والرجال بخناجرهم . رموا عليه الكاز وحرقوه . وما صار رماد الا بعد يومين ودفنوه بعد أن صلوا عليه .

وقف مسعد رافعاً يديه الى السماء قائلاً : « الله يرحمك يا عباس ، يدخلك فسيح جناته » . . .

وجدتني أسأل مسعد الاخر عن عباس اقول مسعد الآخر . لأن انفعالات وجهه وهي ترافق قصته بدلته . عيناه كبيرتان كبيض النعام . ثم كخرزتين . أنفه شامخ ثم كأنف امرأة ضئيلة الوجه والبنية . إنه يسيطر على جلده . جلد عجوز ، وجلد طفل . الدهشة فوق صفحته الصافية ، تحكّمه بانفعالاته سحرني كالقصة . انساني أن هذا هو مسعد الذي مااستطعت استحضار شكله في ذاكرتي . بل دائماً أتصور تقوس ظهره وقد احنى قامته القصيرة ، وهو يصرّ على الجلوس في الحديقة رغم الشمس الحارقة يشرب الشاي ، الصامت دائماً في وجه الاسئلة ، والصائح فجأة بدندنة عالية ، ذات نشاز . . .

العباس يا عمتي فقيه ، ما يجلس الا وكتاب الحديث الشريف بين يديه وعلامة السجدة ظاهرة تقول لكل العقال ما حد ركع وسجد مثلي . احترامه لام عياله وبناته كانت لدرجة أنه ما حد شاف العباس مع اسرته . حتى في عيد الاضحى والفطر كان يصلي على قبور العايلة وبعدين حرمته من بعده تجي وتصلي . والجميع يعرف انو العباس كان الامام والفقيه والقاضي الاصلي . كلمته ما تصير اثنين . هو يأمر ، والناس ما تسأله ، بس تعمل بحكمته . وما كان يرد طلب لاحد . يخط المكاتيب عن لسان اللي ما يعرفوا يكتبوا . وكان يتأنى بالرسالة وكأنها عن لسانه ، ويكتب الديباجة والسلام والكلام .

لما ينزل صنعاء ، كان يصرف الحولات ، ويبدل الريال الاميركاني للناس والكل يأمنه ما حد يعدّ فلوسه . ولما كان يجي واحد من الحكومة

يستفسر عن حاجة ، كان يقصد العباس ، حتى الناس قالت انو العباس جايز يصير رئيس البلاد . حتى لما رضي يقرّي فانوسة ، ما لامه الكل . بعضهم قال ، جايز هو يعلمها عن صدقه . وايمانه ونزاهته ما تفرّق بين حرمة وراجل . هي دقت على بابه ، وطلبت يقريها . جايز قبل يقريها جزاء لربه ، حتى البنت ما تفكر وتترك البوادي وتروح عصنعاء لوحدها ، مثل ما هددت من قبل . وبالتالي هم ما اختلوا ببعضهم . دايماً حرمته وبناته حواليهم . لكن حرمته صارت تغير من فانوسة . يوم بعد يوم صارت تخبر الحريم بأنو فانوسة بتغزل شعرها حول العباس . وبأنّ فانوسة ما هي موحّدة الله ، وانبياءه . كأنها نحلة بتونّ على قلب العباس . وقالت حرمته لما فانوسة تسمع الآذان ما تستشهد . وكانت مطيورة ، مثل الطير ترفرف لما تجلس ، ولما تقرا وتغلط كانت تضحك زي العالمة الي شفناها بالتليفزيون ، وكان اسمها روايح ، كانت بتدخن وبتشرب مسكر وبتقول للرجالة : « يا عيون روايح » .

ووجدتني اقاطعه : وأنت تعرف فانوسة ؟ عمرك شفتها ؟ وقف مسعد كأنه يريد اثبات كل كلمة ، مد يديه ، بعيداً عن جسمه ، شبك أصابعه وقال : بل صاح : « يا عمتي ، فانوسة ، كانت بدر ، وجهها زي قشطة الحليب . باين من تحت الغطاء . الي يشوف مئة حرمة ماشية كان يدل عليها ، يمكن كنا نعرفها من دقة قلوبنا ، كل العزب كانوا يتمنونها زوجة . والمتزوجون استغفر الله كانوا يحسدوا العزب اللي يصير رجالها . بياض وجهها كان يكذب اللي يقول أصلنا من العبيد . قامتها زي الزرافة اللي شفناها على تلفزيون محمد سلامة شاهين لما السلاّل زار مصر وطلب من عبد الناصر يفسّحه بجنينة الحيوانات . خصرها خصر . شعرها كان واصل قعدتها ، وحرمة الفقيه قالت انو كانت

تجلس عليه الكافرة وتقول : « شعري يدفيني » . الجميع بالقرية قالوا أنها أخذت جمالها من أم أمها كاملة ، لكن ولا شيبه بتحلف انو شافت أم أمها كاملة حاسرة . جمال فانوسة انعرف في البوادي كلها لدرجة اذا حد شاف حاجة حلوة حتى لو ما كانت بني آدم ، يمكن قطعة قماش من مصر ، يمكن عقد لؤلؤ من البحرين ، يمكن اسورة من الهند ، يقارنها ويسأل هي أحلى من فانوسة ؟ لكن ، كل هذا انقلب . الكل صار يكرهها . اذا ذكرنا أسمها أمام الاكبر منا اسكتنا ، وفي عينيه حرج وغضب . بس هي وين والعباس وين ، واذا فانوسة بدر ، العباس قمر » .

يصمت مسعد ريثما يصب المزيد من الشاي في كوبه ، يضع أربعة ملاعق من السكر ، يحركها ، يرشف الشاي بصوت مسموع كعادته ثم يكمل : « العباس يا عمتي ، مين يقدر يطال كتفه . طويل ، طول النخلة . عضلاته مدكوكة زي الباطون الافرنجي ، ترمي الحجر على صدره ، يرتد الحجر ويضربك بوجهك ويعورك على نخرك . مع كل هذه القوة ، العباس كان زي نهر العسل ، لما يتمجلس ويتلو القرآن ، صوته كان اعجوبة برخامته . الجهال لما يسمعوه يسكتوا عن مص بز أمهم . والي ما نعم الله عليه بالسمع كان يفهم السور والايات فقط من شفاه العباس . ويقولو انو ابن هلال سمعها ، وهو أطرش من لما ولد .

زوجة العباس حاولت تفتح عينين العباس ، وتفتح وذانه لكلام الناس . لكن أي كلام يخش ذكاء العباس ؟ ما خلت حيله ، لدرجة انها ادخلت الدين وسألته يوم : « جايز تعليمك لفانوسة ضد الدين . هي تبغي تتعلم حتى تحضر روح أمها . والعباس كان وذانه محشوه ، ما سمعها .

وعادت حرمة العباس قالت للعباس كلام كثير عن فانوسة وقالت له انو فانوسة تبغي تفك الحرف عشان تحضر روح امها عشان تسألها عن الفلوس اللي طرحتها عند الفقيه وحلفته ما يفرط فيها لفانوسة اذا هي ما تزوجت وما خلفت . والعباس ساكت ، سكت لما انفقع . ومن وقتها وهو هاجر حرمته في المضجع .

سألت مسعد بنفاذ صبر . « كيف سحرت فانوسة العباس ؟ »

« وضع مسعد ساقاً فوق اخرى . رشف رشفة طويلة من كوبه قبل أن يقول بثقة جاييك الكلام » . عاد يرشف رشفة اخرى ويكمل :

« وما عرفت السبب الا بعد مدة ، وكنت عامل نفسي بصلح حدوة حماري وقلبي وعقلي مع الرجال الجالسين عند دكان حلاقة محمد علي . كنت أتمنى لو يمر الوقت بسرعة ، فيسمع ، حتى صير زيهم كبير ، حتى لما اضحك يهز معي حزامي وخنجري . لما سمعت الحاج خضر يبسمل ويلعن الشيطان . لما لفظ اسم العباس ، وقفت وذاني كوذان الحمار . العباس ما حد يلفظ اسمه الا اذا كان من مقامه بالوجاهة ، بالقراءة ، بالرجولة . والحاج خضر ما هو عسيت الاثنين . حرمته أقوى منه ، وأولاده ما يسمعوا كلامه . لدهشة كل الجالسين سمعت الحاج خضر يقول : « العباس ما عنده حق يقري فانوسة غصب عن كل أهالي القرية . هو فاكر الكل راضي لما سكتنا ! لكن كيف نفتح له الموضوع . مين يرضى يتجرأ ، وبأي كلام نواجه العباس»! وسمعت ركان يردّ : لو بس هي ترضى تتزوج ، بس لو هي توقف عن اهانة رجالنا . حريم القرية سمعونها بتقول : « ليش اتزوج ، عشان اشتغل ليل نهار ورجالي يعلك القات ويبصقه » . عاد الحاج خضر يزيد : « ما في فايدة من كلام الناس معها . فقيه القرية بعث لها مرسال مع زوجته عقب

صلاة الفجر عشان ترضى بابن تمام او باحمد ابن وسيلة ، وتتزوج واحد منهم . وبأنه ما يجوز تعيش لوحدها بالبيت . عادت حرمة الفقيه ، وقالت انو فانوسة ما تأهلت ولا تسهلت فيها . حتى ما حلفت عليها تشف نشفة قهوة . وريحة حب الهيل في القهوة كانت فوق الوقيد تغلي . بس قالت لها قولي للفقيه : فانوسة ماشية بمشيئة الله ، هو سبحانه عارف لما ماتت امها صارت وحيدة هو يمكن يبغاها تعيش لوحدها والا ما موّت سبحانه امها » .

لكن الفقيه ما صدق كلامها ، عاد وبعث حرمته عشان تقول لفانوسة عن لسانه . « جايز الله موّت امك حتى تتزوجي وتخلفي ولا تعودي تشفقي وتقولي كيف أتزوج وأترك امي الشيبة مرضانة » . تنهنه الحاج خضر ، وكان باين عليه الزعل لدرجة حتى لما مسّى الجميع بالخير وراح في سبيله سمعت مصطفى يقول لركان : « باين الحاج خضر ، نفسه خضراء . باين يبغي يتزوج فانوسة والا ليه الزعل الكثير وكأن فانوسة بنته أو بنت أخوه . وبعدين ولا قبلين ، يقولو ، فانوسة من أصل شركسي ، شروش أهلها ما هم من هالبوادي » . لكن ركان اسكته : « استغفر الله العظيم من كلام مالو وجدان ، ولا عقل . استغفر الله يا حامل اسم المصطفى ، الحاج خضر ، غيران على فقيه القرية ، لان كلامه زي الهواء ، ما ينسمع حتى من حرمه ، العوذ بالله ، وبعدين انت نسيت الحاج خضر متزوج من بنت الفقيه وبعيد الشر مئة مرة ، لما يموت الفقيه ما يصير الفقيه الجديد غير الحاج خضر » . اقتنع مصطفى وبان عليه الندم والنوم ، نهض وهو يقول : « تمسوا على خير ، الحاصل الدعوة ما هي دعوتنا . شيوخ القرية يشوفوا حل ويكلموا العباس » .

وجدتني أقاطع مسعود وأقول لمسعد بمكر وأنا أبتسم .

« يجوز العباس حب فانوسة ؟ » وقف مسعد ، يمد يده ، متواعداً ، ينتبه الى أنها ملفوفة يعيدها الى صدره ويصيح . أعوذ بالله » . يجلس ويخفض صوته :

« فانوسة سحرته عشان يعادي حرمته . أعوذ بالله منها جنيه . سحرت العباس ، حتى يقول لعياله أنا رايح الجامع . جهاله قالوا : « شفنا كتاب الادعية بيده ، وما رجع البيت » . أي والله . استغفر الله . أم عياله تستنى ، جا الفجر ، جا الصبح ، جا الظهر ، جا العصر ، جا العشاء والعباس ما في ، حرمته دبت الصوت ، ركض الرجال والعقال والجهال ، وصاحت حرمته فيهم . . العباس ، العباس . . والحريم ولولت ـ ما عمري سمعت مثلها ولولة . ولا على موت معاز ، زينة الشباب .

والرجال ثبتوا خناجرهم في احزمتهم . رموا بالقات . ركضوا وأصواتهم تزأر كالاسود . أنا واخوي توفيق ، وفقه الله . لحقناهم ، سحبوا الخناجر ، وما خلوا شجرة ، ما خلوا كهف ، ما خلو جبل . ما خلوا سفح . ما خلوا وكر ضباع ، والعباس ما في . كأن الارض انشقت وبلعته . وما توقف البحث عنه الا ثاني يوم . لما نزلنا الجبال ، قال أحدهم : « اقسم بالعظيم اذا لقينا العباس في بيته ، اذبح ضاني قبل الاضحى ، والكل يجي ياكل عندي . والقات زي التراب ، والمسكر زي النهر . لكن ولولة النساء سبقت أرجلنا ، اذا العباس ما في . الفقيه والشيخ زكريا والشيخ خضر كانوا يقرأوا الايات . يصلوا ، يتضرعوا ، العسكر جا عند الظهر ، وسأل الكل اذا حد شافه

بالجامع ، قالوا : « كلنا » . عاد يسأل وبعد الجامع ؟ قال وقتها الحاج خضر : « ولا شيء.مشيت معاه . ولا شيء . لما وصلت بيتي صبحته على خير وهو كذلك ، ولا شي . وخشيت بيتي وهو راح في سبيله .

اربع أيام مرت والعباس ما في . الشباب صار يتندر ، عند دكان حلاقة محمد علي . قالوا الظاهر العباس عنده اعداء في السياسة وخايفين منه . والعقال قالوا وهم على درجات الجامع ، اختفاء العباس مرسال من الله . العباس خالف بجلوسه مع حرمه غير حرمته ، وسمع صوتها وضحكتها وكلّمها . وما هي حلاله . رضي يقربها وهو عارف آخر حياة السفور . والصغار قالوا أنهم شافوا طير كبير غط وأمسكه بمخالبه وطار به حتى اختفى ، والعباس خلف أشجار الجبال . كان يمكن الحكاية تطول ، وما تنعرف النهاية لولا الخالق ما موجود . هو في السماء . يكشف عن كل صغيرة وكبيرة . هو يعرف متى القملة لازم تبيض في الشعر . هو سبحانه زاد من وجع العادة الشهرية عند نقيّه ، جارة فانوسة ذات ليلة عشان تقوم من نومها تغلي نعنع وتصلح شاهي . وتسمع قهقهات وكلام عهر في الليل من بيت فانوسة ، سمعت صيحات حسبتها صيحات ألم ، لكن بعدها سمعت ضحكات . وسمعت فانوسة بين الآهات وكلام العهر تقول : « يا نور عيوني ، يا تاج راسي » . وخذت نقيه زوجها وقالت له : « قوم ، فانوسة زانية ، وكأننا استغفر الله معاها في الزنى ، بيننا وبينها حيط وسقفنا واحد » . لكن ابو مزاحم ما هو داري . لما ينام ، ينتقل من غير شر للدنيا الآخرة . شخيره يوقف شعر الضباع ويخلي الحنش تهرب عن بيضها . لما وخذته مرة ثانية وثالثة دار لها ظهره ورفع الغطاء يخبي رأسه وقال : « ان في الظن اثم » .

تنحنح مسعد ، نظر الي وهو يسكب الشاي في كوبه ، يضع ثلاث ملاعق سكر ثم يضع الرابعة في تردد . ثم نفض يده ، كمن يبعد عنه شيئاً كريهاً ، قال باشمئزاز » : ما كان فيها خير . .

لما سألته مين ؟ تعجب مسعد ، قال نادماً : والله انت ما تسمعي قصة فانوسة يا عمتي ؟ واكمل غير مبالياً بجوابي

« فانوسة تبغي تضحك الحريم على أمها . ولما تدق لها حجر الكحل ما كانت تنعمّه ، وما تفركه بالزيت ، حتى يغز بعين أمها » . ولما الحريم قالو لها : « حرام يا فانوسة ، غد يدخلك الله جهنم ، معاملة الوالدين منزله من القرآن والاحاديث الشريفة ، كانت فانوسة ترد : والله أنا شغلتي ما هي حنة وكحل . أنا عايزة أتعلم ، عايزة روح صنعاء ، أتعلم وأشتغل . وواحدة من الحريم سألتها : « وتشتغلي زي الراجل » . اجابتها فانوسة : « مش زيه ، معاه . أنا طفشت من عيشتي ، زي الحيوانات ، والله ما أنا شاغلة بالوادي ، أرعى الضاني والبهائم » . وياريت وصلت لهذا الحد ، كانت فانوسة تشتم أمها الله يرحمها وتقولها أنت واقفة ضد مستقبلي ، عايزة روح صنعاء وأتعلم ، وأمها المسكينة الطيبة كانت تزيد من ركعات صلواتها ، وتستغفر الله نيابة عن بنتها . وحتى تكيد أمها أكثر كانت فانوسة تخلط لها الجنة السوداء بالحمراء ، حتى لما تنشف على رأس أمها يصير رأسها كالسفرجل . ومد مسعد يده كطفل صغير لا يعرف الكلام ، انما يتفاهم مع الكبار بالاشارات وسأل : « لكن فين تروح ؟ كانت ترجع الوادي كأنها ما قسمت عالقرآن. وأمها كانت تستغفر الله وتحط اللوم عالمصرية زوجة عبد الله اللي اشتغل في مصر عند البشوات ولما رجع اليمن رجع

ومعاه المصرية . هي اللي وسوست لفانوسة . فردت جدايل شعرها ، حطت لها الاخضر على عيونها . البودرة على وجهها . حتى صارت بيضاء مثل كيس الطحين . الله يخرب المصرية وينسى الساعة اللي جت القرية . هي علمت فانوسة لعب حجارة الملوك . ولما فانوسة تعلمتها وصارت تغلب المصرية : صارت الثانية تقول لها : انت فاطنة وحرام ما تتعلمي . ولازم ، وحرام حتى لخبطت عقل فانوسة . ومن يوم ما عرفت فانوسة المصرية حتى قال الكل التوبة على فانوسة . وأمها قالت يا ريت الولّادة ما شقت كيس اللحم اللي ولدت فيه فانوسة ، جايز الله عارف خلقها بالكيس عشان تختنق ولما ما اختنقت وهي رضَع ، اختنقت وهي شابة » .

تعب مسعد . ظهر فتوره على صوته ، على عينيه . لكن لما قلت : « حرام ، يمكن رجموا فانوسه بناء على استنتاجات » . هب من جديد ، انما مسعد الاخر وقال هازئاً : « وأنت ويش عرفك بكلام فوزية ؟ » . والقصة اللي ترويها صادقة ، من كثرة ما روتها ، حفظتها الجهال والشيبة عن ظهر قلب . وهي للحين ترويها وتقسم بالعظيم خمس مرات ولما حدا بيجيب سيرة فانوسة والعباس . بتعيد فوزية القصة وما بتزيد ولا بتنقص حرف . دايماً لما تبتدي بتغطي وجهها وبتقول :

« يا ريتني ما سمعت كلام نقيه والحريم . ياريتني ما بت الليل عندها . كيف أقدر أنام الليل اللي جاي واللي جاي وما اتذكرها لليلة . شفت القمر انكسف . والشمس انخسفت . والتراب غطى وجهه ، والخضار بكي ، استغفر الله وداني اللي سمعت كلام الزنى والسفالة ، كيف تسمع الأذان وكلام الله . يا لطيف الطف بعبيدك . يا لله

الطف بعبدتك فوزية . يا لله سد وذاني بالحصى وعاقبني على اللي سمعته ، بعد منتصف الليل ، لما صار شخير ابو مزاحم كالبهايم ، قلت بسرّي أستغفر الله . نقيه كذابة ، وستين ألف كذابة . لكن ما ان غمضت عيني حتى سكت البيت . لا حس ولا حركة ، وبعدين سمعت وشوشات وحرتقات . ثم صوت فانوسة . هببت من فراشي ، والتفت الى نقيه النائمة ، ولقيت فراشها بدونها . قمت وأنا اوحد الله ورسوله . لقيت نقيه واقفة غامرة الحيط . قربت وحطيت وذاني الاثنين . وسمعت صوت فانوسة . لكن ما فهمت كلامها . حبست انفاسي ووضعت كفي على فم نقيه احبس انفاسها ، حتى سمعت فانوسة تقول : وينك سرحان ، هات . . . ، سمعنا قرقعة الفخار . وعدنا نسمع صوت فانوسة : « اللي ببالك شيله » . واختفى صوتها . اختفت معها كل حركة ، ما عدنا سمعنا شي . التفت حولي ، الظلمة قوية ، وشخير ابو مزاحم خلانا نفكر كنا نحلم حلم واحد . وان الشيطان أرادنا حتى نتخبط بالشك والوسوسة ونكفر ، اعوذ بالله منه . فعلاً ، صارت رؤوسنا تدور بين ايوه وبين لا ، بين لا ، وبين ايوه حتى انصرعنا وغمضنا العيون وكذبنا الحقيقة . ونقول : « يا الله ، استغفر الله . ما نبغي ظننا يكون اثم . » فجأة سمعنا صوت فانوسة الناعم . عادت نقيه تلتصق بي وقد لكزت ابو مزاحم حتى يسكت ويبطل يشخر . سمعنا فانوسة تتنهد وتقول :

« بنتظر الليل ، حياتي الليل . أكره النهار ، كله غبار وضاني عنيد وعيون حسودة . السكوت من جديد . نسمع من جديد صوت البعيدة ، البعيدة مئة مرة ، فانوسة بتضحك وتتدلع وتغني اللي كانت تغنيه المصرية : تعال لاعبني ، والحال عاجبني ، والمازة طازة » .

سكوت ثم هذه المرة صراخ : « لا والله ماني نادمة . أنا فرحانة لكن خايفة » . ثم لا شيء ثم بكاء ، شهقات ، واختفى صوتها لمدة طويلة . عاد الشيطان يوسوس ، عدنا نتخبط بالشك ، يمكن هي تحدث نفسها . يمكن هي بتحضر روح امها وتتونس فيها . « استغفر الله العظيم » . قلت لنقية : « نحنا ظلاّم ، نسينا سورة « فأما اليتيم فلا تقهر » البنت فانوسة ، المسكينة اليتيمة كأننا غطسناها وحممناها بماء الرزيلة والزنى . هي يتيمة لا ولد ، ولا تلد ، لا ام ، ولا أب ولا حتى صديقة . وهي تحضر روح أمها عشان ما في بني ادم تتكلم معه .

لما قلت لنقيه هامسة نحنا ظلام ، دفشتني وقالت : « واللي يحضر الارواح ما هو كافر . هي كافرة ، تدعس على كلام الله وبتحضر الارواح » . قلت لنقيه : « صلي عانبي ، يمكن هالمظلومة بتحادث نفسها . تعالي ندق على بابها وناواسها . هي قلقانة . يا ويلاه لما القلق يزور جفون العين ، وما يتركه الا وعيونه جمر وما ينطفي لا بالماء ولا بالزيت » .

رحنا الفراش نتمدد ، وقبل أن تغمض عيوننا عدنا نسمع فانوسة . بقيت نايمة ، ونقيه قامت ورجعت تشدني وتقول : « هي زانية ألف مرة . تعالي أسمعي ، وسمعت فانوسة بتقول :

« يا راجل ، اللي ببالك انساه . انت ما تحبني ، خايف . انت اسد والأسد ملك . تعال حط ايدك ، آه . حط ايدك الثانية . آه . ما حد شافهم حتى امي ما رضيت تحممني من وأنا وعمري عشر سنين . آه لما تكون بقربي أنسى النهار وويلاته . بريدك . بريدك . ثم تقول باكية : بتعذب » . وما فهمنا تماماً اذ صوتها اختلط بالبكاء والتأوه .

عادت تصدر الاصوات وكأنها تتمطى : « آه . بس خايفة ، المرة الماضية كان الألم قوي . واللي أول . احلف بالعظيم . . . ما شفته بعمري . لكن كأني مسحورة ، ساحرة . . . . » وما فهمنا الجملة الاخيرة تماماً فشخير ابو مزاحم قد عاد . لكن الكلمة الاخيرة كانت عن السحر . سكوت . لا صوت . ولا حركة . لكن لم يدم اكثر من رمشة العين ، عادت فانوسة تسأل : « ليه ، ليه ، آدم وحواء . عايزة ، خنجرك ثقيل ، حزامك جلده ناعم لازم من صنعاء ، عايزة أفك النور ، ليش الخوف ، أنت أسد . والاسد ما يخاف . يمكن في كل البوادي ، والقرية ، حتى في صنعاء ما حد شاف الثاني ، والدنيا منورة » . فجأة صرخت فانوسة . « ايوه ، ايوه ، ايوه » . فجأة كأن زلزال ضرب الارض والسماء ، سمعنا صوت الرجل يشخر ، « قتلتني . سحرتني ، كمان كمان » .

عندها خبأت وجهي بيدي . سرت بجسمي قشعريرة عظيمة . خفت ، بقيت واقفة ، حتى جرتني نقية ، ووشوشت بوداني : « صوت الراجل اعرفه . هذا صوت العباس » . « ابعدت المسكينة عني . وقلت : اعوذ بالله . هذا صوت واحد من العسكر . مش العباس . وما سمعتني ، بل اسرعت نقيه تصحي زوجها . وعدت التصق بالحيط . والقشعريرة العظيمة ما تركت جسمي . بغيت اسمع المزيد . لكن ، ما عدت اسمع شيء . وكدت ايئس لما افتكرت انهم لازم ناموا . وتمنيت يناموا بالقبر . هالصوت اعرفه ، لازم يتكلم على مهل وأنا أحذره . أنه يتكلم ، لكني لااسمع من الغرفة الثانية شخير ابو مزاحم . ونقيه مارضيت تصرخ حتى يوقف زوجها شخيره . عدت اسمع فانوسة تقول : «ولا حاجة . البلد لسه بدوّر . المهم أنا وأنت يا عباس» . الدم

طلع رأسي . العباس ؟ لازم سحرته . مش معقول العباس يزني ؟ طبعاً سحرته . هي سحرت العباس . وقفت على العتبة . لما طلت نقيه هزّيتهاوطمنتها على كلامها الصحيح . وركضت هي الى ابو مزاحم . لكن هو ما رضي يدخل عليهم ، قال لازم نخبر الاول الفقيه والعسكر . في الصباح الرباح يا عمتي ، دقت نقيه وفوزية على باب فانوسة . واندهشوا . غرفتها هي ، هي ، ما فيها ريحة انس أو جن . حجه نقيه كانت لتستلف كمن ريال من فانوسة . ناولتها فانوسة الفلوس ، وكانت طبيعية لدرجة .

الليل ما مضى على خير ، نقيه وفوزية ما نامو الليل ، قعدوا عالباب ينتظرو آذان الفجر . ولما تنحنح المؤذن حتى ركضت الاثنتان الى زوجة العباس وعلى لالآى وافتكار وحسن شاه ونجاة ومهيوبة .

تماماً كما ما انتظرت نقيه حتى الشمس تصير في السماء . لما سمعت فانوسة أول مرّة . دقت الباب على فوزية وعلى لالآى ، وافتكار وست الحسن ونجاة وقالت لهم عن فانوسة . والحريم منهن صدق ومنهن لا . فنقيه كانت تغار غيرة عظيمة من جارتها فانوسة . ولما حلفت وقسمت ونذرت . اتفقن على ان تبات فوزية الليل كله عند نقيه . لان فطومة بنت فوزية لحقت النسوان وصارت مثل النحلة في البيت .

لما خبّرتها فوزية حتى هبت حرمة العباس مثل السعدان وركض الثلاثة عند بيت الفقيه . يدقوا الباب ويولولو . فتحت لهم ام سيف وهي بترجف . وقصت فوزية قصة الليل . ما زادت ولا نقصت حرف .

كما يحدث في النهايات ، يزداد لهاث الحكواتي من كثرة اندماجه في

القصة ، وفي الافلام ترتفع الموسيقى وتطن في الاذان وكأنها تحذّرها ان تسمع جيداً . وكما على المسرح يهتز الابطال ، وهم يتنفسون بعمق قبل ان يصرخوا بالكلمة الاخيرة . وقف مسعد يريدني أن أكون معه بعيني . وبيدي التي كانت تحاول اصطياد ذبابة . اخفض صوته . ثم شيئاً فشيئاً ، أخذ يعلو به . لدرجة اضحكتني ، ولما كانت نشافة الملابس دائرة . اشار بيده . فاوقفتها .

وقف بعينيه الخرزتين ، وفمه المزموم ، وقصر قامته ، ولفة رأسه الملونة . وعاد من جديد يتلو بصوت منخفض الوشوشة .

« لما جاء الليل . جا العسكر والفقيه على مهل . وانتظروا ببيت ابو مزاحم لكن على رؤوس اعصابهم حتى منتصف الليل . وخلعوا باب فانوسة . وشافوهم هي والعباس كما خلقتني يا رب . صرخت فانوسة كما يصرخ الغول . يقولوا اهتز البيت ، والطين هرّ من صرختها . واوقف شعر الموجودين اللي خبوا وجوههم من منظرها بما فيهم العسكر . بعد ان فاق الجميع من الصدمة . كانت فانوسة قد لفت نفسها واختبأت تحت السرير . والعباس ما عاد بينهم . اختفى من جديد . قلبوا الارض والعباس ما في . العسكر راح يطوف القرية ، يدق الابواب ويفتش بالجبال . في بيت فانوسة بقي الفقيه وابو مزاحم وكمان واحد من العسكر . يفتشوا البيت ولاحظوا على الطاولة وعاء من تنك فيه زيت . وبقربه صورة العباس . وحجاب من لحم يابس كيباس الحجر . صرخ الفقيه وكلام نقيه وفوزية رنّ بودانه . قال : « فانوسة . ساحرة . جنّية . العباس قال لها سحرتيني . وقالت له أنها مسحورة » . ولحظتها دخل العسكر وقالوا اختفى العباس الدنيا فاضية ، لا انس

ولا جـن . بس في حمار غريب عن القرية . صاحت نقية وفـوزيـة . فانوسة سحرت العباس . حمـار . لازم . لان ما حد يعـرف من وكيف وليش الحمار جا . وكيف اختفى العباس » .

رفع مسعد يديه الى السماء ، قائلاً : « الفاتحة لروحك يا عباس » .

موت ابنها عمر

البسنها الاسود . أجلسنهـا على كنبـة وثيرة . رفعـن قدميهـا عن الارض . اسندن ظهرها بوسادتين ، بدا شعرهـا كالـح السـواد رغـم بياض بعض الخصلات . غطينها بحرام صوف . ربما رأين اصطكاك شفتيها . هي لـم تقل لهن بردانه . سلخت نفسها عن كل كلمة وتصرف تذكران بالحياة . مغمضـة العينـين . مع ذلك كانـت تشعـر بدخـول وخروج اية امرأة . نساء فقط . يقدم الرجال التعـازي الى زوجهـا في الشقة المقابلة . ما ان تشعر بامرأة تقترب منها حتى تفتح عينيها ، تحاول ان تستوي جالسة ، بارتخاء تمد وجهها للمرأة التي تقبلهـا باكية وهـي تقول : « البقية بحياتك وبحياة زوجك واولادك » .

هذا هو اليوم الثالث لوفاة ابنها عمر . اثر اصطدام دراجته النارية بسيارة . فقدت عقلهـا في اليوم الاول . رفضـت ان تقابـل احـدا . شعرت بانها تريد ان تحتضن جثته وان تبعد عنه الذباب ملوحة بيدها كما كانت تفعل عندما ينام وهو طفل . في اليوم الثاني ، ارادت ان تحتضن زوجها واولادها وان تغمض عينيها وان تنسى انه كان عندها صبي اسمه عمر . الان تود لو تشد شعرها . تؤجل بكاءها . تغمض عينيها ، رغم معرفتها بان الارق سيلازمهـا في الليالي القادمـة حتـى تموت . تفـكر بكراهية وعداء تجاه جارهـم الدكتور اسعد الذي اجبرها على تناول حبتي

دواء كل ست ساعات . قال لها وبوقاحة : « مشان ضغطك » . كأن درجة ضغطها مهمة الان ؟ . انها لا شك حبوب مهدئة ، لماذا يمنعوها عن البكاء والصراخ ؟ . الم يختف عمـر ، ولن تراه ؟ بل سوف ترى جواربه ، كتبه المدرسية قناني السفن آب التي كان يخبئها بـين خضـار الثلاجة خوفاً من ان يكتشفها ويشربها احد غيره . تشهق في داخلهـا وهي تفكر ان ترى ساعته . القبعة الوقائية لركوب الدراجة النارية التي لم يستعملها قط . بل تركها مطروحة بين أشيائه . ان تسترجع صوته ولا تسمعه . ان ترى وجهه ولا تمسكه . لكن لا بد انهن جمعن حاجاته واخفينها . ستعثر عليها . لكن ، ربما رمينها . غير معقول . من لهـا قلب وترمي حاجات عمر ؟ ، واذا رمينها ، هل يظنن انهن يتركنها بلا اثر ؟ . هل يظنن انهن يستطعن محو ستة عشرة سنة ؟ وماذا عن وجوده في قلبها ؟ .

من يستطع محو بناء مدرسته . اخفاء اصحابه . منع غوار الطوشي عن شاشة التلفزيون والذي كان عمر يحبـه ويقلـده . قرص الفطائـر بالسبانخ الذي كان يطلبها يوماً بعد آخر ، والدجاج المشوي بالثـوم ، الذي منذ ان كان عمره ثلاث سنوات ، يأتـي بكرسي ويجلس جانـب الفرن ، مستأنساً يشم رائحته ،ينتظرها ان تفتح الفرن وتشك الشوكة في بطن الدجاجة قبل ان تقول : « استوت يا استاذ عمر » .

تمسك المرأة وجهها بين يديها وتبكي بصمت رغم حبـة المخـدر . تبكي لأنها تأففت منه احياناً . لانـه طلـب منهـا ان تجهـز له الفطائـر بالسبانخ ، ليأخذها الى المدرسة منذ اسبوع ، وقالت له : مشغولة. لانها خاصمته يومين اثر نومه عند صاحبه دون اخبارها .

يحاول الجميع ان يحيدها عن الحقيقة ، بان عمر مات . كلهن ، بناتها ، قريباتها ، صديقاتها ، يودين مواساتها ، بشكل او بآخر . كلما حاولن ، كلما ودت لو تصرخ بهن حتى يتوقفن عن الكذب . تود ان تفتح صدرها تريهن قلبها يرف كطائر ذبح لتوه .

تسمعهن وهي مغمضة العينين . صدرها يتنفس الغل ، كيف يتحدثن عن الاشياء اليومية اوكأن عمر لا يزال في مدرسته الان ، وسيدق الجرس ثلاث دقات كعادته عند كل ظهر . لماذا لا يتركنها تبكي وتحزن ، لماذا يواسينها ، هن يعلمن انهن لا يقصدن ما يقلن « بل يتمنين ان يصرخن ويبكين مثلها ؟ » . لماذا جملهن تافهة ، لا معنى لها . لماذا ما أتين بملابسهن التي كن يلبسنها لحظة سماعهن الخبر ، كيف استطاعت ايديهن تسريح شعرهن أمام المرآة . كيف استطاعت اختها ان تغلي القهوة وتعرف عيار البن والسكر ، وأن تقدمها . وهن ؟ كيف يستطعن شرب القهوة .

لا تزال جالسة ممدّدة رغم الغضب والحزن. تجد نفسها تجيب على كل جملة تسمعها . فللتي قالت لها : « والله منذ ان سمعت الخبر وراسي يوجعني» ، أجابتها في قلبها: « وإذا وجعك رأسك شو وجع الرأس أمام موت ابني ؟»

وللتي قالت : « والله عمر كان مثل ابني » . اجابتها : « يا ريت كان ابنك ، قديش كان اهون علي » . والتي بكت وقالت : « الله ، بيعطي والله بياخذ » . أجابتها بضيق : « ليش الله ما اخذك ؟ » وللمرأة التي كانت تخبر من بجانبيها أنها لا تزال تنزف منذ يومين ، وجدت

نفسها تقرف من هذا الحديث وروح عمر لا تزال ترفرف في البيت ، وتغضب لأن هذه المرأة تفكر بنزيفها رغم الموت وأمام أم الفقيد فتقول لها بتشفي « يا ريتك تنزفي ، ما انت صرت عجوز كركوبة » . والتي قالت : « يللا ان شاء الله يديم لك جوزك وأولادك » . أجابت بوخز ضمير : « لماذا يديمنا ويأخذ عمر وهو في سن الشباب ؟ » وللتي تنهدت وقالت : « من التراب الى التراب ، » ، أجابتها : « ما بتعرفي شو معنى هالجملة » .

تململت في جلستها . عضت على شفتيها مستنكرة اجاباتها الشيطانية ، العدائية . عصرت عينيها ، لا تريد ان تلتقي باعينهن . خجلت منهن رغم أن أجوبتها ما خرقت جدار نفسها ، أرادت أن تمنع نفسها من المضي في التشفي منهن ، فكرت تذكر نفسها أنها كانت تتصرف وتنطق مثلهن في المآتم والتعازي . سألت نفسها ، هل هي تطلب أن لا يزرنها ويواسينها كأنهن ما اهتممن لموت عمر ؟ تعود تجيب نفسها بضيق : « عليهن الصمت والاكتفاء بالنظر الي وأنا أفهم مواساتهن وعاطفتهن وألمهن. ودّت لو يصمتن جميعهنّ لدقائق ، حتى تستجمع صبرها وعقلها ، وتصمد أمام وسوسة الشيطان ، لكن وهي تسمع احداهن تقول « بنتي ما عادت فتحت كتاب من لما سمعت خبر عمر » . أجابتها للفور : « ان شاء الله ما تفتح ولا كتاب » ، ولما دخلت إمرأة لا تعرفها وتساءل الجميع عن من تكون . غضبت أم عمر وقالت : « حشريات حتى في الموت » . وسمعت صوتاً يقول : « هاي أدبية ، زوجها وكيل سيارات المازدا » . وجدت نفسها ترد : « وكيل سيارات جهنم » . جاءت القهوة . سمعت قرقعة الفناجين ، تضايقت لانهن لم يقلن : « أعوذ بالله ، لا نقدر أن نبلع نقطة » . بل وجدت

نفسها تقول لهن بحقد : « تشربوا سم » . لما طلبت احداهـن المزيد قالت : « الله يزيد على قلبك تفل يمرمرك » .

لا تزال مغمضة العينين . لا تزال تسمع احاديثهن العادية . وهي تغلي . تكز على أسنانها حتى أصبحت نمرة مفترسة لكن مخدرة . اكتفت بالتنهد وأجابت التي قبّلتها وقالت : الصبر . . . هيدي الحياة « ان شاء الله بشكلك الصبير بين عيونك » . لما سمعت امرأة حامل تقول انها ربما ستولد بعد يومين ردت : « انشاء الله بعد دهر » تدخلت اخرى قائلة : « الهيئة بدك تجيبي صبي» . وجدت أم عمر تغص وهي ترد : « ان شاء الله حيه » . صاح المؤذن فقالت له : « اسكت صوتك نشاز » . لما فتحت عينيها . وشاهدت احداهن وقد لفت نفسها بثوب صلاة أبيض قالت : « انشاء الله تلبسي كفن » . لما سمعت اخت زوجها تقول لامرأة : « شفتك عند الحلاق سمير ، بس هو بطل بلفّ الشعر ، كل شغله عالسشوار » . أجابتها : « ان شاء الله يلف حبل على رقبتك » .

لا زلن يتوافدن ، تحاول ان تفتح عينيها تمد وجهها لتتلقى التعازي والقبلات . تود لو تبكي ، لو تتشنج لو تشد شعرها . لكنها تؤجل .

تسمع صوتاً ينادي : مدام نقّور ، تنهض مدام نقور تقترب منها تقبلها مودعة فتهمس المرأة : «الله ينقرك نقر » . وللصوت المنادي : « مدام كيوان : « مدام خوتان » . مدام صفير ، « الله يصفر بدينيك » . مدام حاج « راسك ينبج » . مدام يافي . « الله لا يعطيك عافية » . مدام فران : « مدام حمار » مدام حشمة ، « عمرك ما تحتشمي » .

يسقط رأس المرأة الى الخلف . جسمها يسقط بارتخاء ، تسرع ابنتها باكية حتى الشقة المقابلة وهي تنادي جارهم الدكتور أسعد ، يدخل الدكتور يجس نبض يد الام ويقول : « الهيئة الحبوب نومها . أحسن » . نقلنها الى الفراش وهي تتقلب ، سمعت صوتاً ينادي مدام همام ، أجابت : « فطسوها بالحمام » .

فهرست

راس النبع 5
حمام النسوان 9
هل تعرف من يعلمني البيانو 19
جارنا الذي يصفر 23
السجادة العجمية 29
هواء بعلبك 35
اسكندرية ذات مساء 39
عبد الحليم حافظ 57
جون برونز خذني بين ذراعيك 61
طاووس هولند بارك الأبيض 75
صورة ياسمين 83
بيت البحر 91
يا شمس انا قمر 99
ذات العين الواحدة 109
الكنار ، الحسون وماريا 111
بنت اسمها تفاحة 121

الحمامة في الصحراء 127
لؤلؤة 135
عقرب الربع الخالي 153
وردة الصحراء 163
فانوسة 175
موت ابنها عمر 197

للمؤلفة

إنتحار رجل ميت	1971
فرس الشيطان	1975
حكاية زهرة	1980

1982-4-94

مناخ هذه القصص القصيرة واحد، المرأة العربية، أينما كانت، كيفما كانت: في الجنوب تحلم ببيروت ولو كان حمام النسوان، في الربع الخالي تجد العقرب بعد جهد ثم تستمع إلى عظامها وهي تطقطق محترقة، في جبال اليمن تنحر حبيب الليل إلى حمار، في القاهرة تتمنى لو يأخذها جون برونز بين ذراعيه، في الصحراء ترى حمامتها البيضاء الزاجل مذبوحة، في الواحة تغرز علم الزواج حيث لا خاطبة، في الغربة حيث الطبيعة الأوروبية والحنين إلى الوطن يحولان خيالها إلى واقع، صغيرة تصاب بخيبة أمل بجارها الذي يصفر، وباختفاء السجادة العجمية، مراهقة كلما فكرت بأهلها تذكرت رجال عائلتها وبكت، صبية تتمنى وتخطط لزوجها العجوز لسعة ثعبان مميتة، وامرأة تلهب خيال الرجل الذي يسكن بيتها أثناء الحرب اللبنانية، وأم تتمنى الشر للمعزيات، وامرأة كلؤلؤة الصحراوية اللابسة عباءة تقر عيناً أمام سارة الحضرية.

الثمن ١٦ ل. ل. أو ما يعادلها

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع